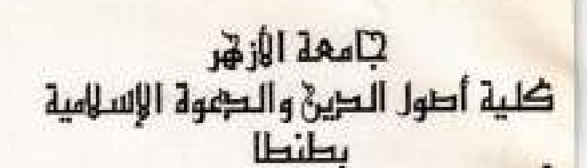


ثمار الجنان

فى أفنان من علوم القرآن

للأستاذ الدكتور

جودة محمد أبواليزيد المهدى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
وعميد كلية القرآن الكريم بطنطا
وعضو اللجنة العلمية الدائمة للتفسير وعلوم القرآن
وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء .

والصلاة والسلام على الرسول الأعظم والمجتبى الأكرم صفوة الله من خليقته ونخبته من بريته : سيدنا ومولانا محمد النور الوضاء ، المبعوث بخير ما أشرف على الأرض من كتب السماء . فأخرج به الناس من الظلمات إلى النور وهدى به قلوبهم وشفا الصدور ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وورثته حماة أنوار الذكر الحكيم على امتداد الأحقاب والسنين ، وفقنا الله تعالى للسير على منهاجهم واقتفاء آثارهم فى الدنيا لنحظى بمعيتهم المشرقة يوم الدين .

أما بعــد :

فإن القرآن العظيم هو روح الحياة الأبدية ومناط السعادة السرمدية ، به تحيا القلوب والأرواح ، وتخلص النفوس من قتام الدجى إلى فلق الصباح ، وفى نوره تسبح العقول الزكية لتقتات قوامها وهداها ، وتتزود من فيض علومه زادها وضياها ، إذ تجد فيه الكمال الجامع والدواء الناجع والحق الصادع والنور الساطع . من ثم : كان أحظى الخلق بعطاء الله هم من أورثهم الله تعالى هذا الكتاب العظيم فكانوا الصفوة المصطفاه والخيرة المجتباه كما سجل التنزيل فى محكم آياته :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير »(١) .

وحسب علماء القرآن العظيم شرفاً أن الله تعالى اختارهم أهلا له ، وقد روى النسائي وابن ماجه والحاكم بإسنادهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين من الناس » قالوا : يا رسول الله من هم ؟ ؟ قال : هم أهل القرآن ، أهل الله وخاصته » ! ! (٢) .

وعلماء القرآن الكريم هم أهل الحكمة وأحق الخليقة بلقب (الحكماء) وليس غيرهم على الإطلاق أولى بهذا الإطلاق ! ! فقد قال تعالى شأنه :

«يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ومايذكر إلا أولو الألباب » (٣) .

قال الامام ابن عباس — رضى الله عنهما — فى تفسير الحكمة فى الآية الكريمة : — « يعنى : المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله »(٤) أى أنها معرفة علوم القرآن المجيد .

وكذلك فسر الامام مجاهد التابعى (ت سنة ١٠٠ هـ) رضى الله عنه الحكمة

---

(١) سورة فاطر / ٣٢ .

(٢) خرجه صاحب الترغيب والترهيب (٣ / ١٧١ ط التجارية) من النسائى والحاكم وابن ماجه والرواية ههنا من سنن ابن ماجه (٧٨/١ ط عيسى الحلبى) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى

(٣) سورة البقرة / ٢٦٩

(٤) انظر تفسير ابن كثير / ١ ٤٧٥ ط الشعب .

فى الآية الكريمة بأنها : (الفهم والإصابة فى القرآن) (١) كما فسرها مقاتل ابن سليمان (ت سنة ١٥٠ هـ) بأنها علم القرآن (٢) . أجل : فإن القرآن الكريم هو المحيط الجامع الزاخر الذى وسع علوم العاملين جميعا وإليه تؤول شتى مصادر المعرفة الجمة ، فقد قال منزله جل شأنه : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء »(٣).

ولقد فقه الراسخون فى العلم ذلك وترجموا فقههم فى عباراتهم المشعة بأنوار المعرفة فها هو ذا إمامنا الشافعى — رضى الله عنه — يقول :

«جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة ، وجميع السنة شرح للقرآن ، وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا » (٤) ، وأضاف بعض العارفين :

« وجميع الأسماء الحسنى شرح لاسمه الأعظم » (٥) !! - يضيف صاحب « البرهان » هذا التنظير الحكيم فيقول : « وكما أنه — أى القرآن — أفضل من كل كلام سواه ، فعلومه أفضل من كل علم عداه » (٦) !! ويقول الإمام ابن مسعود عليه الرضوان : « من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين » (٧)

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه على الأذهان ويجيش بالخواطر : أنى يتوصل إلى إدراك إحاطة التنزيل بشتى ضروب العلم والمعرفة ؟

وكيف السبيل إلى استنباط تفاصيل حقائق المعلومات المتشعبة فى أقطار الوجود بأسره من آى التنزيل ،

(١ ، ٢) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ٦

(٣) سورة الأنعام / ٣٨

(٤ ، ٥ ، ٦) البرهان الزركشى ١ / ٦

(٧) نقله صاحب البرهان (١ ، ٨) معقبا ومدللا لقوله : (وكل علم من العلوم منتزع من القرآن وإلا فليس له برهان) !! صدقت يا صاحب البرهان .

وهل يقع فى دائرة الإمكان الوقوف على حقيقة قوله سبحانه : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) دون جنوح عن الظاهر المحكم إلى شطط التأويل المتعسف ؟

ومن محكم التنزيل — بتوفيق من منزله جل وعلا — نتعرف وجه الحقيقة :

ففى سيدة آى القرآن يقول وقوله الحق (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء)(١) فقد علق إحاطة الخلق بشىء من علمه تعالى على حصول مشيئته ، كما اختص سبحانه من شاء من عباده بإيتاء الحكمة — وهى الفهم والإصابة فى القرآن — فى قوله جل شأنه (يؤتى الحكمة من يشاء) ، وإذا شاء الله تعالى أمراً هيأ له الأسباب وصرف عنه الموانع والعوائق ، فمن شاء الله له فقه التنزيل زكاه بالتخلية — والتصفية من الموانع والحجب وقلده — بالتحلية — مفاتيح الفهم عن الله ! !

وقد صرح التنزيل ببعض هاتيك الموانع التى تحجب العبد عن استشراف أنواره وتدبر آياته ، إذ قال عز من قائل : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق »(٢) فالتكبر مرض يرين على القلب فيحجب به عن أنوار كلمات الله ، ويعجز عن تدبر آياته ، من ثم قال الإمام سفيان بن عيينة — رضى الله عنه — فى تفسير صدر الآية الكريمة : (قال : أحرمهم فهم القرآن)(٣) .

ومن أشد الموانع عن تدبر أسرار التنزيل وفهم معانيه وعلومه : حب الدنيا والنهم بحطامها والرضا بها وإيثارها على الآخرة ، يقول سبحانه : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم »(٤) ، من ثم

---

(١) سورة البقرة / ٢٢٦

(٢) سورة الأعراف : ١٤٦ .

(٣) انظر البرهان ١ : ٦

(٤) سورة النجم : ٢٩ - ٣٠

قال الأمام سفيان الثورى — رضى الله عنه : - « لايجتمع فهم القرآن والاشتغال بالحطام فى قلب مؤمن أبدا (١) .

وأما عن مفاتيح الفهم عن الله ومقاليد العلم اللدنى الذى يقف به العبد على إحاطة التنزيل بحقائق الوجود واستيعابه لضروب المعرفة ودقائق أسرار العلوم : فإن القرآن الكريم قد قدم لنامفتاح الفتح الإلهى الذى يوقف به على ساحل محيط المعرفة القرآنية الوهبية ، ألا وهو (التقوى) ، إذ قال تعالى شأنه :-

« واتقوا الله ويعلمكم الله . . . »(٢) والتقوى هى جماع الطاعات الإسلامية والإيمانية والإحسانية(٣) . ومن ثم كان المتقون أعظم من سطعت فيهم أنوار هداية التنزيل : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين »(٤) .

وقد كان سادتنا أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين ، هم الصف الأول من الأتقياء الذين ورثوا الكتاب وشافهوا الخطاب من حضرة سيد الأحباب فانهلت عليهم نفحات الفتاح العليم الوهاب فكانوا أوعية علوم التنزيل وأساطين الفهم والتأويل فعرفوا من القرآن مالم يعرفه سواهم ممن تلاهم . وتأكد لهم — بالذوق والتحقق — أن فى التنزيل علم الأولين والآخرين .

وأدركوا — بالعرفان اليقينى — حقيقة معنى قوله تعالى : «مافرطنافى الكتاب من شىء » . وقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء »(٥) .

---

(١) انظر الموضع السابق من البرهان .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢

(٣) انظر مبحث « التقوى فى القرآن الكريم » من كتابنا : « قصد السبيل فى التفسير الموضوعى لآى التنزيل » ١ : ٢٤٩ .

(٤) سورة البقرة : ٢

(٥) سورة النحل : ٨٩

وقوله جل شأنه « . . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

ولقد أثر عن السادة الصحابة — رضوان الله عليهم — من الإشارات والعبارات مايدل على رسوخهم وتبحرهم فى علوم التنزيل الحكيم بما يعجز العقل عن إدراكه وتصوره ، فها هو ذا باب مدينة العلم(٢) سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : « لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من فاتحة الكتاب » !!

فليت شعرى كيف به لو فسر كل الكتاب ؟؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !! وهذا هو الإمام ابن مسعود عليه الرضوان يقول : « والذى لا إله غيره، مانزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته »(٣) !!

ثم ها هو ذا حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — الذى قال له النبى صلى الله عليه وسلم « نعم ترجمان القرآن أنت »(٤) يصرح سيدنا على كرم الله وجهه بكشفه البصيرى الذى سبر به غور محيط علوم التنزيل فقال : « ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق »(٥) !!

---

(١) سورة (يوسف) : ١١١

(٢) روى الحاكم والطبرانى وغيرهما عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب » ! !

انظر تخريج الحديث فى الفتح الكبير للإمام النبهانى ١ : ٢٧٦ ط الحلبى .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١ : ١٢ ط الشعب .

(٤) أنظر الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى ٤ : ٢٠٥

(٥) أنظر تفسير القرطبى ١ : ٣٥ والبرهان الزركشى ١ : ٨

بذا وقف الصف الأول من ورثة الكتاب المبين على مايعجز العقل عن حصره أو استقصائه من علوم القرآن الكريم التى شارف علماء التنزيل مبلغاً من علمها ، فلقد نقل صاحب « البرهان » عن القاضى أبى بكر بن العربى — من كتابه : قانون التأويل — أن علوم القرآن : « خمسون علما وأربعمائة وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة ، إذ لـكل كلمة ظاهر وباطن وحد مطلع(١) .

وقد فصل بعض علماء التنزيل القول فى إحاطة القرآن الكريم بعلوم الأولين والآخرين بله ما استأثر الحق تعالى بعلمه مالا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة فقد نقل العلامه المرتضى الزبيدى — فى شرح الإحيـاء — عن أبى الفضل المرسى(٢) أنه قال : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما - حقيقة - إلا المتكلم بها ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه .

ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم ، مثل : الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس ، حتى قال : « لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله »

---

(١) روى ابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن القرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » ، وقد خرجه الحافظ العراقى فى : « المغنى عن حمل الأسفار بتحقيق مافى الإحياء من الأخبار » بهامش الإحياء للإمام الغزالى ١ : ٨٨ ط العثمانية » ، وانظر النص المتضمن لمورد الحديث فى « البرهان للزركشى ١ : ١٦ » .

(٢) هو العلامة المفسر المحدث الأديب شرف الدين محمد بن عبد الله المرسى الأندلسى المتوفى سنة ٦٥٥ هـ من تصانيفه : تفاسير ثلاثة للقرآن الكريم يقع أحدها فى أكثر من عشرين مجلدا ، انظر : ترجمته فى معجم المؤلفين ١٠ : ٢٤٤ .

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه : ـ منهم القراء ، والمعربون ، والمفسرون ، والاصوليون ، والكلاميون ، والفقهاء ، والفرضيون ، والصوفية ، والوعاظ ، والخطباء ، والمؤرخون ، والمعبرون ، والبيانيون ، والمؤقتون ، وغير هؤلاء على تباينهم ، وغير ذلك من الفنون التى أحدثها الإسلامية منه.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل : الطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، والنجامة ، وغير ذلك .

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها ، كالحياطة والحدادة والنجارة والغزل والحرائة ، والغوص ، والصياغة ، والزجاجة ، والتجارة والملاحة والكتابة والحيازة والقصارة والجزارة ، والبيع والشراء والصباغة والنحت والكيالة ، والرمى .

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات ماتحقق معنى قوله : « مافرطنا فى الكتاب من شىء »(١) .اهـ

أجل : لقد صدق الإمام ابن مسعود ـ عليه الرضوان ـ إذ قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن »(٢) وصدق سيدنا على كرم الله وجهه إذ قال : « من فهم القرآن فسر به جمل العلم »(٣) . ولقد أدرك الصفوة من حملوا

---

(١) انظر : اتحاف السادة المتقين لشرح أسرار إحياء علوم الدين . الزبيدى ٤ : ٥٢٨ .

(٢) انظر الاحياء ١ : ٢٦٠ ط العثمانية .

(٣) نفس المرجع ١ : ٢٦١ .

علم التنزيل أن استقصاء علومه وحصرها فوق طاقة البشر ولا يحيط بها الاخلاق القوى والقدر ، بيد أن الضرورة العلمية تقتضى تدوين ماتمس إليه الحاجة من تلك المباحث والفنون التى يفتقر إليها فى فهم وتعرف التفسير القرآنى كشأن مصطلح الحديث لعلم الحديث بل وآكد استدعاء ، لإحاطة مباحث علوم القرآن بجوانبه ودخولها فى البناء التفسيرى ذاته ، وتوقف فهم المراد من النص القرآنى فى مواطن بالغة الكثرة منه على خوض لجة علوم التنزيل كالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والعام والخاص وأسباب النزول وغير ذلك .

ولقد كانت هـــذه المباحث القرآنية مستبطنة ومتضمنة فى أحشاء المصنفات التفسيرية منذ جرت أسنة الأقلام بالتدوين للتفسير ، بيد أنها لم تأخذ وضعها المكتمل كعلوم مستوفاة الجوانب متعددة الأطراف عميقة الأغوار فى مصنفات التفسير حرصا من مصنفيها على تجنب الإيغال والإستطراد فى التصنيف .

كما أن الراسخين فى العلم من أئمة سلفنا الصالح — رضوان الله عليهم — كانت قلوبهم وعقولهم أوعية واعية لعلوم القرآن الكريم بمختلف ضروبها ومباحثها وإن لم يدونوا ذلك فى مصنفات مستقلة بها .

فقد روى الحافظ أبونعيم — فى الحلية — مادار بين الإمام الشافعى رضى الله عنه وبين هارون الرشيد من محاورة سأل فيها الإمام عن بصره بكتاب الله؟ فقال الإمام الشافعى — عليه الرضوان — « عن أى آية تسألنى ؟ عن محكمه أم عن متشابهه ؟ أم عن تقديمه أم عن تأخيره؟ أم عن ناسخه أم عن منسوخه ؟ أم عن ماثبت حكمه وارتفعت تلاوته أم عن ماثبتت تلاوته وارتفع حكمه ؟ أم عن ماضرب به الله مثلا أم عن ماضربه الله اعتبارا ؟ أم عن ماأحصى فيه فعال الأمم السالفة ؟ أم عن ما قصدنا الله به من فعله تحذيرا ؟؟

قال : بم ذاك ؟؟ حتى عدله الإمام الشافعى ثلاثا وسبعين حكما فى القرآن(١)

ومع ذلك لم تظفر المكتبة القرآنية بمؤلف خاص جامع لشتات العلوم القرآنية ومباحثها المتشعبة فى موضوعات التفسير حتى القرن الخامس الهجرى — فيما نعلم — وإنما كانت هناك مؤلفات سابقة تفرد كل منها بعلم من علوم التنزيل على حدة وقد وقد صنف بعضها فى القرن الثانى ككتاب مقـــاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) فى (الوجوه والنظائر) وبعضها فى القرن الثالث ككتاب على بن المدينى (٢٣٤ هـ) فى أسباب النزول ، وبعضها فى القرن الرابع ككتابى أبى بكر السجستانى (سنة ٣١٦) فى غريب القرآن ، وفى المصاحف .

أما فى القرن الخامس الهجرى : فقد ظهر لأول مرة — فيما انتهى إليه علمنا — بعض المصنفات الجامعة لطائفة من علوم القرآن يحمل عنوانها الاسم الاصطلاحى لهذا العلم وهو « علوم القرآن » .

وغير حقيقى ماذهب إليه صاحب (مناهل العرفان) من أن أول مصنف ظهر معنونا بهذا الاصطلاح هو ما اكتشفه فى دار الكتب المصرية ويحمل اسم (البرهان فى علوم القرآن) لأبى الحسن على بن إبراهيم الحوفى (ت سنة ٤٣٠) فإن الاسم الحقيق للكتاب كما ورد فى المصادر العلمية هو (البرهان فى تفسير القرآن) وقد نص على ذلك الحافظ الداودى (فى طبقات المفسرين) كما أورده صاحب : (كشف الظنون)(٢) بهذه التسمية أيضا ، وإنما حصل اللبس غالبا من عنوان المخطوط بالدار . بيد أن ثمة — فى القرن الخامس — مصنفا آخر يحمل اسم (البيان الجامع لعلوم القرآن) وقد عثرت على عنوانه — بالتوفيق الإلهى — أثناء

---

(١) انظر حلية الأولياء للإمام الحافظ أبى نعيم الأصبهانى ٩ : ٨٧ .

(٢) انظر طبقات المفسرين للداودى : ترجمة الحوفى ١ : ٢٨١ — ٢٨٢ وكشف الظنون ١ : ٢٤١

البحث فى تاريخ هذا العلم فى تراجم طبقات الداودى ، ومؤلف هذا الكتاب هو شيخ الإقراء أبو داود سليمان بن أبى القاسم نجاح المتوفى سنة ٤٩٦ هـ وقد ذكر فى ترجمته أن مصنفه (البيان الجامع لعلوم القرآن) يقع فى ثلاثمائة جزء (١)!! وبكل أسف لم يحفظ لنا التاريخ من هذا التراث العظيم إلا الاسم ! ! كما ذهب أدراج الرياح مؤلفات تمثل قمة العطاء العلمى مثل تفسير الإمام أبى الحسن الأشعرى المسمى (بالمختزن) الذى قال فيه الحافظ ابن عساكر : (. . وكان ألف فى القرآن كتابة الملقب بالمختزن ، ذكر لى بعض أصحابنا أنه رأى منه طرفا وكان بلغ سورة الكهف ، وقد انتهى مائة كتاب ، ولم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق ، وبين المجمل وشرح المشكل (٢) وقد نقل عن القاضى أبى بكر بن العربى أن تفسير (المختزن) يقع فى خمسمائة مجلدا(٣) !!

وفى القرن السادس : صنف الحافظ ابن الجوزى (ت سنة ٥٩٧ هـ) كتابين ما زالا مخطوطين بدار الكتب ، وهما : (فنون الأفنان فى علوم القرآن) و (المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن) .

وفى القرن السابع صنف علم الدين السخاوى (ت سنة ٦٤١ هـ) : (جمال القراء) كما صنف أبو شامه (ت سنة ٦٦٥ هـ) كتاب (المرشد الوجيز فى علوم

---

(١) انظر طبقات المفسرين للداودى ١ : ٢٠٨ .

(٢) انظر تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الأشعرى . لابن عساكر ص ١١٧ نشر القدسى .

(٣) أورد العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى تعليقه على (تبيين كذب المفترى) ص ٢٩ ماذكره ابن العربى فى (العواصم من القواصم) عن الإمام الأشعرى قائلا : (وانتدب إلى كتاب الله فشرحه فى خمسمائة مجلد وسماه بالمختزن فمنه أخذ الناس كتبهم ، ومنه أخذ عبد الجبار الهمذانى كتابه فى تفسير القرآن ، الذى سماه بالمحيط فى مائة سفر قرأناه فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام اهـ

تتعلق بالقرآن العزيز) ، وقد وصف الإمام السيوطى مصنفات ابن الجوزى والسخاوى وأبى شامة المذكورة بأنها ليست إلا طائفة يسيرة ونبذة قصيرة بالنسبة لما صنفه فى إتقانه المتقن (١) .

ثم لقد بلغ التصنيف فى علوم القرآن الكريم فى القرنين الثامن والتاسع أوج النضج والازدهار إذ صنف العلامة بدر الدين الزركشى (ت سنة ٧٩٤ هـ) كتابه الحافل (البرهان فى علوم القرآن) تناول فيه سبعة وأربعين نوعا من علوم التنزيل، ضمنها عصارة أقوال أساطين العلماء فى مباحث هذا العلم الجليل فسد به ركناً هاماً فى المكتبة القرآنية .

ثم صنف أبو عبد الله الكافيجى (ت سنة ٨٧٣ هـ) كتابا ذكره الامام السيوطى فى الإتقان ، غير أنه لم يشتمل إلا على بابين تناول فيهما معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية .

ثم شروط القول فى القرآن بالرأى ، وختمهما بخاتمة فى آداب العالم والمتعلم .

وفى القرن التاسع أيضاً صنف الامام جلال الدين البلقينى كتابه الجامع الرائع « مواقع العلوم من مواقع النجوم » ، وأروع ما فى هذا الكتاب حسن ترتيبه وتصنيف مباحثه ، إذ رتبه على ستة مباحث رئيسية :

أولا : فى مواطن النزول وأوقاته ووقائعه ويتضمن اثنا عشر نوعا ، هى : المكى والمدنى ، والسفرى والحضرى ، والليلى والنهارى ، والصيفى والشتائى والفراشى ، وأسباب النزول وأول ما نزل وآخر ما نزل .

وثانيها : فى سند القرآن ، وهـو ستة أنواع : المتواتر والآحاد والشاذ وقراءات النبى ﷺ والرواة والحفاظ .

---

(١) انظر مقدمة الاتقان ١ /٣ ط. الحلبى .

وثالثها : فى الأداء ، وهو أنواع ستة : الوقف والابتداء والامالة والمد . وتخفيف الهمزة ، والادغام .

ورابعها : فى ألفاظه وهو سبعة أنواع : الغريب والمعرب والمجاز والمشترك والمترادف والاستعارة والتشبيه .

وخامسها : المعانى المتعلقة بأحكامه ، وهو أربعة عشر نوعا : هى : العام على عمومه ، والعام المخصوص ، والعام الذى أريد به الخصوص ، وما خص فيه الكتاب بالسنة ، وما خصت فيه السنة بالكتاب ، والمجمل ، والمبين ، والمؤول ، والمفهوم ، والمطلق ، والمقيد ، والناسخ ، والمنسوخ ، ونوع من الناسخ والمنسوخ وهو ما عمل من الأحكام مدة معينة ، والعامل به واحد من المكلفين .

وسادسها : المعانى المتعلقة بألفاظه ، وهو خمسة أنواع : الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والقصر .

وبذا استكمل الامام البلقينى خمسين نوعا فى مصنفه الجليل :

ثم جاء الامام العلامة الحجة الحافظ سيدى جلال الدين السيوطى رضى الله عنه (ت سنة ٩١١ هـ) الذى أثرى التراث الاسلامى بكنوز وفيرة من مصنفاته ، فصنف فى علوم القرآن الكريم كتابين : أحدهما : « التحبير فى علوم التفسير » وقد تناول فيه من علوم التنزيل اثنين ومائة متضمنة ما تناوله القاضى البلقينى من الأنواع مع زيادة مثلها و إضافة ما جادت به القريحة الوقادة من بدائع وطرائف هذا العلم .

ثم صنف كتابه الثانى الذى يعد أعظم مرجع للعلماء والباحثين فى علوم التنزيل من عصره إلى الآن ، إذ لم يصنف بعده مثله ولا قريب منه فى غزارة مادته وحسن استيعابه ألا وهو : « الاتقان فى علوم القرآن » الذى جعله مقدمة لتفسيره

الكبير المسمى «مجمع البحرين ومطلع البدرين» ، وقد أدمج فيه بعض ما شحبه فى (التحبير) من الأنواع ، وأضاف إليه ما عن له من سوانح المعارف ومبتكر الأغراض . فجاء جامعاً لأشتات ما تقدمه من مصنفات علوم التنزيل ، ومهيمناً عليها بما تضافر له من براعة التصنيف وعمق التحليل ، وقد اشتمل على ثمانين نوعا من علوم القرآن المجيد ، صاغها برونق الحسن فى عقد نضيد ، فجزاه الله عن التنزيل وأهله كفاء ما أسدى من عطاء مديد .

ومنذ تربع (الاتقان) على عرش مؤلفات علوم القرآن فى القرن التاسع لم يخلف بما يدانيه حتى يومنا هذا فى تبحره واستيعابه ، وإن كانت أسلات الأقلام لم تتوقف عن الكتابة فى هذا الميدان فألفينا فى هذا القرن مثل : « التبيان فى علوم القرآن » للشيخ طاهر الجزائرى و « منهج العرفان فى علوم القرآن » للشيخ محمد سلامة ، و « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ، و « إعجاز القرآن » للأستاذ الرافعى . ثم مثل لدينا أجمع ما صنف فى عصرنا فى علوم التنزيل ، ونهل منه الدارسون فى الأزهر الشريف ، وهو كتاب (مناهل العرفان فى علوم القرآن) للعلامة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى رحمه الله وأجزل مثوبته . إذ تناول بأسلوبه السلس الهادىء الرصين وعرضه الشيق سبعة عشر مبحثا من أمهات مباحث هذا العلم فى جزأين كبيرين تناولا جامعا بين أصالة القديم وعصرية الروح والأسلوب تأخذ مكانة بجدارة فى المكتبة القرآنية ثم شاء الله تعالى أن تنهض — فى الآونة الماثلة — روح البحث العلمى فى جامعة الأزهر الشريف فألفينا طائفة من المصنفات فى علوم القرآن يسطع ضوؤها بفكر أساتذة الأزهر وباحثيه .

وهذه دراسة أقدمها من ثمار الجنان فى أفنان من علوم القرآن آمل بها أولا : أن أحتسب عند الله تعالى من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته . فذلك غاية قصدى ومأربى ، « وما ذلك على الله بعزيز » .

ثم : ابتغى بعد ذلك إمتاع القلب والعقل بإعمالهما فى فقه علوم التنزيل والاستضاءة من أنوارها المستمدة من ضياء كلام الله جل وعلا .

ثم : آمل بث ذلك الشعاع الوهاج ـ على قدر طاقتى الكليلة وجهدى القاصر ـ فى قلوب وعقول تتوق إلى ضياء التنزيل وعسى الله أن يرجيها بنفحات المن والجود والكرم ، فيسبغ على عبده من التوفيق والرشد والسداد ما يبلغ به أقصى المراد من رب العباد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور

جودة محمد أبو اليزيد المهدى

أستاذ مساعد ورئيس قسم التفسير

وعلوم القرآن الكريم بكلية أصول الدين

والدعوة الاسلامية بطنطا

فى الرحاب الأحمدى المبارك

الاثنين ٢٩ محرم سنة ١٤٠٣هـ

١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٢م

الباب الأول

في

علم المحكم والمتشابه

○○○

أهمية هذا العلم وموقعه من علوم التنزيل : —

من أعظم وأهم ما يجب الوقوف عليه لفهم حقائق القرآن العظيم وتدبر أسراره ، والتحقق بالحكمة في معرفة تأويله ، : علم المحكم والمتشابه فقد نص عليه حبر الأمة الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — في بيانه لأهم علوم القرآن الكريم التي يتقلد عارفها بالحكمة المذكورة في قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » إذ فسر الحكمة بأنها : (المعرفة بالقرآن : فقهه ، ونسخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وغريبه ، ومقدمه ومؤخره)(١) .

وإذا ما عرفنا أن آيات التنزيل قاطبة لن تخرج آية منها عن أن تكون محكمة أو متشابهة أو متضمنة للمحكم والمتشابه : أيقنا أن الضرورة قاضية بخوض عباب هذا العلم لمن رام تفسير الكتاب العزيز ، ليعرف أى الأبواب تطارق وأيها يترك ، وما يحق له الخوض فيه ، وما يحق عليه الامساك عنه ، ومتى يلتزم التفويض ، ومتى يسلك التأويل ولو عدنا إلى تصنيف علوم التنزيل عند أئمة هذا العلم — كالإمام الجلال السيوطى — رضى الله عنه — لوجدنا موقع علم

---

(١) أنظر : تفسير القرطبي ٣/٣٣٠ والبحر المحيط لأبي حيان ٢/٣٢٠ .

المحكم والمتشابه من مباحث علوم القرآن الكريم : ضمن العلوم المتعلقة بألفاظ القرآن الكريم ، لتعلق الاحكام والتشابه بالألفاظ القرآنية ذاتها ، شأنه شأن علم الغريب وعلم المجمل والمبين (١) وعلم المجاز وعلم المشترك ونحوها . ولا ريب أن العلوم المتعلقة بالألفاظ لها التقدم على علوم المعانى المتعلقة بالاحكام، لتوقف فهم الأخيرة على معرفة الأولى .

المعنى اللغوى للمحكم والمتشابه :

المحكم : اسم مفعول من أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الفساد، فأصل المادة (حكم) يدور حول المنع ، ومنه سميت اللجام حكمة(٢) الدابة ، لأنها تمنعها عن الاضطراب ، ومنه قيل الحاكم بين الناس حاكم ، لأنه يمنع الظالم من الظلم ، وقال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم أن أغضبا

يريد . امنعوهم وكفوهم عن التعرض لى . ومنه سميت الحكمة حكمة ، لأنها تمنع عما لا ينبغى.(٣) فتطلق الحكمة ويراد بها العدل أو العلم أو الحلم أو النبوة أو القرآن ، لما فى هذه المذكورات من الحوافظ المانعة مما ينافيها .

وأما المتشابه : فأصله فى اللغة من الشبه بمعنى المثل ، ويطلق التشابه الدلالة

---

(١) اعتد الامام السيوطى علم المجمل والمبين من قبيل العلوم المتعلقة بالألفاظ فى تصنيفه لمباحث كتابه (التحبير) بينما اعتده الجلال البلقينى — فى مواقع العلوم — ضمن مبحث المعانى المتعلقة بالاحكام ، وهو خلاف اختيارى . أنظر الاتقان بتحقيق محمد أبو الفضل ١/٥ ، ٩ .

(٢) بفتح الحاء والكاف .

(٣) أنظر : لسان العرب ١٥/٢٢ ومفردات الراغب / ١٢٦ وتفسير الفخر الرازى ٢/ ٣٩٥ .

على المماثلة المؤدية إلى الالتباس غالبا ، يقول الإمام الفخر : « وأما التشابه : فهو أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز ، قال الله تعالى : (إن البقر تشابه علينا)(١) ، وقال فى وصف ثمار الجنة : (وأتوا به متشابها)(٢) أى متفق المنظر مختلف الطعوم ، وقال الله تعالى : (تشابهت قلوبهم)(٣) . ومنه يقال : اشتبه على الأمران ، إذا لم يفرق بينهما ، ويقال لأصحاب المخاريق : أصحاب الشبه .

وقال عليه السلام : (الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور متشابهات) — وفى رواية أخرى : مشتبهات — ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما : سمى كل ما لا يهتدى الإنسان إليه بالمتشابه ، اطلاقا لاسم السبب على المسبب ..) (٤) .

كذلك يضيف الإمام ابن قتيبة — لبيان مدلول التشابه فى اللغة — عطاء آخر فيقول : (.. ثم يقال لكل ما غمض ودق : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة فى أوائل السور : متشابه وليس الشك فيها والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها والتباسها بها ؟؟

ومثل المتشابه (المشكل) وسمى مشكلا : لأنه أشكل ، أى : دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله)(٥) .

---

(١) سورة البقرة / ٧٠ .

(٢) سورة البقرة /٢٥ .

(٣) سورة البقرة /١١٨ .

(٤) أنظر تفسير الفخر الرازى ٢/ ٢٩٥ .

(٥) أنظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بتحقيق السيد صقر /١٠١ — ١٠٢ .

انقسام التنزيل إلى محكم ومتشابه :

عندما نقرأ قول الله تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (١) .

نجد القرآن الكريم قد دل على أنه بكليته محكم . وهذا متجه حكاه ابن حبيب النيسابوري وعندما نقرأ قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني . . .)(٢) .

نجد القرآن الكريم قد دل على أنه بكليته متشابه . وهو قول آخر حكاه ابن حبيب(٣) ثم عندما نقرأ قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (٤) : نجد التنزيل يدلنا على أنه منقسم إلى محكم وإلى متشابه . وهذا هو المتجه الصحيح الذي تتضافر القرائن والأدلة لرجحانه :

وليس ثمة من تعارض أو تناقض بين الآيات الثلاث ، لانفكاك جهة التعارض في هذه الإطلاقات :

فإن المراد بالأحكام في الآية الكريمة الأولى : كون القرآن الكريم كله في الذروة من الاتقان والنظم والبلاغة بحيث يمتنع تطرق النقض إليه أو الخلل اللفظي أو المعنوي .

كما أن المراد بالتشابه في قوله تعالى (كتابا متشابها مثاني) أنه يشبه بعضه

---

(١) سورة (هود) /١ .
(٢) سورة الزمر / ٢٣ .
(٣) أنظر البرهان ٢ / ٦٨ والاتقان ٣/٢ .
(٤) سورة آل عمران / ٧

بعضاً فى الحق والصدق والإعجاز والحسن ، ويصدق بعضه بعضا . ولا ريب أن التنزيل كله بهذه المثابة وإليه الإشارة بقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً)(١) أى : لكان بعضه وارداً على نقيض الآخر ، ولتفاوت نسق الكلام فى الفصاحة والركاكة (٢) .

وأما الإحكام فى قوله تعالى : (منه آيات محكمات) : فإن المراد به: وضوح الدلالة على مراد الله تعالى منه ، كما أن المراد بالتشابه فى قوله سبحانه (وأخر متشابهات) بخفاء دلالته على هذا المراد .

ومن ثم يتضح : أنه لاتنافى بين كون القرآن الكريم كله محكما أى متقنا فصيح الألفاظ صحيح المعانى ، وبين كونه متشابها ، أى : يشبه بعضه بعضا فى إتقانه وحسنه وإعجازه ، وبين كونه منقسما إلى ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى وماخفيت دلالته(٣) .

فانفكاك جهة التعارض والخلاف حاصل بعزو إطلاق الإحكام والتشابه فى آيتى : (هود) و (الزمر) إلى المعانى اللغوية للإحكام والتشابه ، وعزو إطلاقهما فى آية : (آل عمران) إلى المعانى الاصطلاحية التى سنقف عليها لهما .

وقد ظاهر انقسام القرآن الكريم إلى محكم ومتشابه ـ بالمدلول الاصطلاحى ـ إلى جانب وجود المقابلة بينهما فى قوله تعالى : (.. منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ..) : وجود هذا التقابل الآخر الماثل فى تتمة الآية الكريمة (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

---

(١) سورة النساء / ٨٢ .

(٢) أنظر : تفسير الفخر الرازى ٢/ ٣٩٥ .

(٣) مناهل العرفان ٢/ ١٦٧ .

تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب) حيث قابل بين الزائغين والراسخين لتقابل موقفيهما من المتشابه . . .

ثم إنه تعالى قد جعل الآيات المحكمات أما الكتاب ولذلك سر ساقه الإمام الفخر إذ قال : (مامعنى كون المحكم أما للمتشابه ؟؟ .

الجواب : الأم فى حقيقة اللغة : الأصل الذى يكون منه الشيء ، فلما كانت المحكمات مفهومة بذواتها، والمتشابهات إنما تصير مفهومة بإعانة المحكمات: لاجرم صارت المحكمات كالأم للمتشابهات (١) والإمام الشاطبي يرى أن قوله تعالى فى المحكمات : (هن أم الكتاب) يدل على أنها المعظم والجمهور ، وأم الشيء : معظمه وعامته ، كما قالوا : أم الطريق، بمعنى : معظمه(٢).

(آراء العلماء فى المعنى الاصطلاحى للمحكم والمتشابه)

تعددت وتنوعت آراء العلماء وأقوالهم فى تحديد معنى المحكم والمتشابه فى الاصطلاح فكان من تلك الآراء ماهو واضح بين ، جامع مانع ، وكان منها ماقصر عن نيل المراد ، وسنضع أبرز تلك الآراء ههنا تحت ضوء كاشف لنتبين وجهاتها ومراميها ومدى استيعابها لجوانب الحقيقة دونما إبهام أولبس :

فالرأى الأول — ويعزى لأهل السنة(٣) — : أن المحكم ماعرف المراد منه

(١) انظر : مفاتيح الغيب للإمام الرازى ٢ : ٣٩٨

(٢) انظر : الموافقات لأبى اسحق الشاطبى ٣ : ٥٧ ط صبيح

(٣) ليس المراد هنا جمهور أهل السنة بدليل ورود آراء أخرى لأئمة من أهل السنة بعد هذا الرأى ولذا أهملت بعض المصادر ـ كتفسير الفخر والاتقان ـ عزوه إليهم بينما نص البعض كالعلامة الزرقانى ـ فى المناهل ـ على هذه النسبة . كما نسبه أبو حيان (البحر المحيط ٢ : ٢٨١) إلى جابر بن عبد الله وابن رئاب والشعبي والثورى .

إما بالظهور وإما بالتأويل . والمتشابه : ما استأثر الله تعالى بعلمه ، كقيام الساعة وخروج الدجال ، والحروف المقطعة فى أوائل السور(١) .

وقد تعقب هذا الرأى : بأن تعريف المحكم فيه غير مانع لدخول كثير من الخفيات المشتبهات فيه بالتأويل ، كما أن تعريف المتشابه فيه غير جامع ، وذلك لاقتصاره على ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بينما يدخل فيه — على الراجح — مما لم يستأثر بعلمه : ما كان العلم به بدلالة غير راجحة كالمجمل والمشكل .

ويمكن الجواب بأن معرفة المراد حد فاصل بين الإحكام والتشابه .

والرأى الثانى : وينسب للسادة الحنفية(٢) - أن المحكم هو : الواضح الدلالة الظاهر الذى لا يحتمل النسخ .

والمتشابه : هو الخفى الذى لا يدرك معناه عقلا ولا نقلا ، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه ، كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور .

وتعقيب هذا الرأى : بأن تعريف كل من المحكم والمتشابه فيه غير جامع أيضا . لاقتصاره فى تعريف المحكم على (النص) وهو ما لا يحتمل غير معناه الذى وضع له ولاقتصاره فى تعريف المتشابه على ما استأثر الله تعالى بعلمه ، وعليه : يلزم وجود واسطة بين المحكم والمتشابه لا تدخل فى أى منهما مثل (الظاهر) و (المجمل) و (المؤول) . بينما يدخل الأول فى المحكم والآخرين فى المتشابه على ما سيأتى بيانه .

---

(١) انظر جامع البيان للإمام الطبرى ٣ : ١٧٤

(٢) نص على هذه النسبة : الشهاب فى حاشيته على البيضاوى ٣: ٥ والإمام الألوسى فى تفسيره : ٣ : ٨٢

الرأى الثالث — ويمى لأكثر الأصوليين وجماعة من السلف منهم الأئمة : ابن عباس وجعفر الصادق والشافعى(١) رضى الله عنهم أجمعين .

قالوا : إن المحكم هو : مالا يحتمل إلا وجها واحدا من التأويل ، والمتشابه: هو ما احتمل من التأويل أوجها . وهذا هو متجه الإمام الغزالى الذى عرف المحكم بأنه : (المكشوف المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال ، والمتشابه : ماتعارض فيه الاحتمال)(٢) .

وقد نقل الطبرى والقرطبي هذا الرأى عن محمد بن جعفر بن الزبير ونص عبارته :« آيات محكمات ، فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ، وأخر متشابهة فى الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق (٣).

وهذا الرأى متعقب أيضا بأنه : يخرج من المحكم ماهو فيه (وهو الظاهر الذى رجحت دلالته على دلالة غيره) ويدخله فى المتشابه ، فتعريف المحكم فيه غير جامع وتعريف المتشابه غير مانع . وقد يجاب عن ذلك بأن رجحان الراجح يسقط احتمال الوجه المرجوح .

---

(١) حكى أبو حيان فى البحر (٢ : ٣٨١) هذا الرأى عن الأئمة جعفر الصادق والشافعى ومحمد بن جعفر بن الزبير وعزاه صاحب مناهل العرفان (٢ : ١٦٨) للإمام ابن عباس رضى الله عنهما ونقله الإمام السيوطى فى (معترك الأقران ١ : ١٣٧) عن أبى الحسن الماوردى الشافعى .

(٢) انظر : المستصفى للإمام الغزالى ١ / ١٠٦ ط الأميرية .

(٣) أنظر تفسير الطبرى ٣: ١٧٤

الرأى الرابع : وينسب للإمام أحمد — رضى الله عنه — كما يعزى النحاس(١) وهو : ـ أن المحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه : هو الذى لايستقل بنفسه بل يحتاج إلى بيان من غيره : لحصول الاختلاف فى تأويله .

وقد أوضح النحاس هذا الرأى بقوله: «أحسن ماقيل فى المحكمات والمتشابهات أن المحكمات ما كان قائما بنفسه ، لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره نحو : «ولم يكن له كفوا أحد»(٢) ، « وإنى لغفار لمن تاب »(٣) والمتشابهات نحو : « إن الله يغفر الذنوب جميعا »(٤) ، يرجع فيه(٥) إلى قوله جل وعلا : « وإنى لغفار لمن تاب » وإلى قوله عز وجل : « إن الله لايغفر أن يشرك به »(٦) . اهـ(٧) وقد

---

(١) عزاه القرطبى فى تفسيره (٤ : ١١) النحاس وذكر أنه مبين لما اختاره ابن عطية من رأى محمد بن جعفر بن الزبير الذى أوردناه آنفا ، ونقل صاحب (مناهل العرفان) نسبته للإمام أحمد رضى الله عنه كما نقلها صاحب (المنار) فى تفسيره : ٢ : ١٣٧ .

(٢) سورة الإخلاص : ٤

(٣) سورة « طه » : ٨٢ .

(٤) سورة الزمر :٥٣ .

(٥) بتفسير المحكم والمتشابه على هذا النحو : يتلاقى هذا الرأى مع ما أورده الفخر فى تفسيره (٢ : ٢٩٦) عن الأصم من أن المحكم هو الذى تكون دلالته واضحة لائحة فتعلم صحته بضرورة العقل والمتشابه : مايحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل فلا تعلم صحته إلا بدليل العقل .

وقريب منه مانقل فى الاتقان (٣ : ٤) من أن المحكم ما تأويله تنزيله ، والمتشابه : مالايدرى إلا بالتأويل .

(٦) سورة النساء : ٤٨ .

(٧) انظر تفسير القرطبى ٤ : ١٠ - ١١ .

نقل أبو حيان نحوه عن الفقهاء(١) وقد تعقب هذا الرأى : بإبهامه البيان الذى يحتاج إليه المتشابه ولا يحتاجه المحكم ، وإن كان النحاس قد قدم شيئاً من التبيان لذلك ، كما ساق صاحب المناهل مثله عن إمام الحرمين .

الرأى الخامس : ـ وهو منسوب للامامين : ابن عباس وابن مسعود(٢) رضى الله عنهما ـ

قالوا : إن المحكمات من آى القرآن : المعمول بهن ، وهن الناسخات : أو المثبتات الأحكام ، والمتشابهات من آيه . المتروك العمل بهن ، المنسوخات .

وهذا الرأى متعقب من صاحب (الموافقات) وتبعه صاحب (مناهل العرفان) فى أن إطلاق المحكم على خلاف المنسوخ إنما هو إطلاق خاص ، وهى عبارة علماء الناسخ والمنسوخ .

ومن العجيب أن صاحب (المناهل) قد وضع هذا الرأى فى قائمة الآراء الضعيفة البعيدة عن مغزى المبحث مع أن القائلين به هم أئمة أهل التنزيل من الصحابة والتابعين كحبر الأمة وابن مسعود وقتادة والضحاك ، وقد صدر به الإمام الطبرى قائمة الأقوال عكس صنع الشيخ الزرقانى) .

وقد تعددت النصوص المـــأثورة التى تدور فى فلك هذا الرأى أو تنتمى إليه بسبب .

فرواية عن الإمام ابن عباس ـ عليه الرضوان ـ تفسر المحكمات التى هى أم الكتاب بأنها الناسخ الذى يدان به ويعمل به ، والمتشابهات : هن المنسوخات التى لا يدان بهن .

---

(١) انظر البحر المحيط ٢ : ٣٨٢ .

(٢) ممن قال به من التابعين أيضا : الأئمة قتادة والربيع والضحاك كما فى تفسير الطبرى ٣ : ١٧٢ .

ورواية أخرى عنه تفسر المحكمات بأنها: (ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده، وفرائضه، ومايؤمن به ويعمل به، والمتشابهات: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه ومايؤمن به ولا يعمل به.

وليت شعرى ماصنع العلامة الزرقانى من استبعاده لهذا الإطلاق من مبحث التشابه بحجة خصوصيته بالشرعين — على حد تعبيره — مع أنه ذكر — فى نفس المبحث — أن من جهات التشابه فى اللفظ والمعنى: التشابه من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ(١).

الرأى السادس: — وهو مأثور عن الإمام ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهما — أن المحكم: ما أحكم الله تعالى فيه بيان حلاله وحرامه، والمتشابه: ماأشبه بعضه بعضا مصدقا له فى المعانى وإن اختلفت ألفاظه(٢). وقد أثرت روايات عديدة للإمامين تجسد هذا المتجه.

فقد أخرج الإمام السيوطى عن الامام ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال: (المحكمات: الحلال والحرام) كما أخرج عنه أنه قال فى قوله تعالى (. آيات محكمات): (من ههنا «قل تعالوا . . .»(٣) إلى آخر ثلاث آيات، ومن ههنا: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه»(٤) إلى ثلاث آيات بعدها.

وأخرج عن مجاهد أنه قال: «المحكمات: مافيه الحلال والحرام، وماسوى

---

(١) انظر: مناهل العرفان ٢: ١٧٧ وانظر اندراج هذا الوجه فى أوجه التشابه فى مفردات الراغب، ٢٥٥

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢: ١٧٣ ونقله فى تفسير المنار: ٣: ١٣٦

(٣) سورة الأنعام: ١٥١ - ١٥٣

(٤) سورة الأسراء ٢٣ - ٢٥

ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضا مثل قوله : (. وما يضل به إلا الفاسقين)(١)، ومثل قوله : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »(٢) ، ومثل قوله : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »(٣) .

وقد علق صاحب « المنار على ماقاله الإمام مجاهد بقوله : « وكأن مجاهدا يعني بالمتشابه مافيه إبهام أو عموم أو إطلاق ، أو كل مالم يكن حكما عمليا ، فهو عنده خاص بالأشياء دون الخبر »(٤) كذلك أخرج السيوطي عن عكرمة وقتادة «أن المحكم : الذي يعمل به ، والمتشابه : الذي يؤمن به ولا يعمل به .

وقد تعقب صاحب (المناهل) هذا الرأي بأن فيه قصرا المحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وقصرا المتشابه على ما كان من قبيل العقائد ، فلو كان المراد بالمحكم : أنه الواضح الذي يؤخذ بمعناه على التعيين ، والمتشابه : الحق الذي يجب الإيمان به دون تعيين لمعناه : فإن العبارة لا تفي بأداء هذا المراد .

ونقول : إن ماذهب إليه صاحب (المناهل) من أن كلام الإمامين ـ ابن عباس ومجاهد وكذلك عبارة قتادة وعكرمة رضوان الله عليهم أجمعين يفيد قصر المحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وحصر المتشابه فيما كان من قبيل العقائد : غير متحقق وإن كان متعلقه الأوامر والنواهي ، أو الحلال والحرام .

ألا ترى أن الامام ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قد فسر المحكمات بوصايا

---

(١) سورة البقرة : ٢٦

(٢) سورة الأنعام ١٢٥ (٣) سورة « محمد » ١٧

(٤) انظر تفسير المنار ٣: ١٣٦.

(٥) انظر المنقول عن الامام السيوطي في تفسيره (الدر المنثور ٢ - ٤) وفي « الاتقان ٢ - ٤ » وفي (معترك الأقران ١ - ١٣٧) .

سورة الأنعام: «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا..» الخ والوصية الأولى فيها هي النهي عن الاشراك بالله تعالى ومفاده: الأمر بالتوحيد وهو من قبيل العقائد؟؟ وكذلك افتتحت وصايا (الاسراء) بقوله تعالى: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه..»(١) وهو أمر بتوحيده سبحانه وتعالى فى العبادة، والعقيدة روح العبادة وروح الأعمال ذاتها، فمن الممكن قطعا أن تدخل الأمور العقدية فى سياق الأوامر والنواهى، وتكون حينئذ محكمة لالبس فيها، ثم يتبدد الفصل المزعوم بين العقائد والأعمال فى نطاق الحلال والحرام أو الأوامر والنواهى لاسيما إذا سلمنا بأن الاعتقادات إنما هى أعمال القلوب!! ثم نأتى إلى:-

الرأى السابع: - وهو للإمام الفخر الرازى وجمهرة من المحققين: -

أن المحكم: ماكانت دلالته راجحة، وهو النص والظاهر».

والمتشابه: ماكانت دلالته غير راجحة (وهو المجمل والمؤول والمشكل)

وبيان ذلك:

إن اللفظ الذى وضع لمعنى إما يكون محتملا لغير ذلك المعنى أو لايكون. فإذا كان غير محتمل لغير المعنى الذى وضع له فهذا هو: «النص»(٢)، وأما إذا كان اللفظ محتملا لغير ماوضع له فإنه:

إما أن يكون احتماله لأحدهما راجحا على الآخر ولغيره مرجوحا، وإما أن لايكون، بأن يكون احتماله لهما على السواء.

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣.   (٢) فالنص هو اللفظ الذى يفهم منه على القطع معنى لايتطرق إليه احتمال كلفظ الخمسة مثلا فانه نص فى معناه لايحتمل الستة ولا الأربعة، انظر المستصفى ١ - ٣٨٥ ط الأميرية.

فاللفظ بالنسبة للمعنى الراجح يسمى (ظاهرا)(١) وبالنسبة للمعنى المرجوح يسمى (مؤولا)(٢) وبالنسبة للمعنيين المتساويين أو المعانى المتساوية يسمى (مشتركا) . وبالنسبة لأحدهما على التعيين يسمى (مجملا)(٣) وأما (المشكل) ، فقد بينه الإمام الفخر بقوله .

إنما المشكل : بأن يكون اللفظ بأصل وضعه راجحا فى أحـــد المعنيين ومرجوحا فى الآخر ، ثم كان الراجح باطلا والمرجوح حقا .

ومثاله من القرآن : قوله تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ..)(٤) ، فظاهر هذا الكلام : أنهم يؤمرون بأن يفسقوا ، ومحكمه قوله تعالى : (إن الله لا يأمر بالفحشاء ..)(٥) رادا على الكفار فيما حكى عنهم : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها)(٦) .

ومن ثم نخلص إلى أن المحكم: ما كانت دلالته راجحة، وهو النص والظاهر .

---

(١) ذكر الإمام الغزالى فى المستصفى ، ١ - ٣٨٤ ، : أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان يسمى الظاهر نصا ، وعلى هذا حد الظاهر بأنه : اللفظ الذى يغلب على الظن فهم معنى منه من غير قطع ، فهو بالإضافة إلى ذلك المعنى الغالب ظاهر ونص . وقد مثل له البعض بصيغة الأمر الظاهرة فى الوجوب .

(٢) سمى مؤولا لكونه يؤول الى الظهور عند اقتران الدليل به ، وقد مثل له بالمنقول لعلاقة ولم يشتهر كالأسد ، دلالته على الأول ظاهرة وعلى الثانى مؤولة . انظر نهاية السول شرح منهاج الوصول : ١ - ١٩١ .

(٣) المجمل مأخوذ من الاجمال وهو الاختلاط ومثاله : القرء بالنسبة الحيض أما بالنسبه للحيض والطهر فيكون مشتركا .

(٤) سورة الاسراء ١٦ (٥) سورة الأعراف ٢٨ .

(٦) انظر مفاتيح الغيب ٢ - ٢٩٥ .

إذ هما مشتركان فى حصول الترجيح . بيد أن النص راجح مانع من الغير والظاهر راجح غير مانع من الغير ، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم .

وأما المتشابه : فهو ما كانت دلالته غير راجحة (وهو المجمل والمـــؤول والمشكل) فالثلاثة اشترك فى عدم رجحان دلالة كل منها، ولم يدخل معها المشترك بادىء ذى بدء ؛ لأنه إن أريد منه كل معانيه فإنه من قبيل (الظاهر) . وأما إذا أريد منه بعضها على التعين فإنه يكون (مجملا) .

بهذا التبيان المفصل لرأى جمهور المحققين(١) الذى ارتضاه الإمام المحقق فخر الدين الرازى واصطفاه لنفسه نجد أنه التعريف الجامع للمحكم والمتشابه لارتكازه على استقصاء واستيفاء وجوه الظهور والخفاء — اللذين هما مناط الاحكام والتشابه فى آيات الكتاب العزيز — وتصنيف تلك الوجوه إلى راجح فى الدلالة ومرجوح ، فأصاب بذلك الهدف فى دقة دقيقة وتحرى لوجوه الحقيقة، وقد قاربه رأى العلامة الطيبى حتى كاد أن يكون هو لو أتم وجوه الدلالة .

ولئن شطرنا شطر صاحب (المناهل)(٢) فى اطراء هذا الرأى والثناء عليه، فإننا لانبخس آراء السلف وأثبات الأئمة التى عرضناها حقها ، لاسيما ما أثر عن سادتنا الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ،فإنها تحمل فى طياتها المجملة من عميق المعانى والاشارات ،ماتنوء به الأفهام والألباب ، ولو بسط المقام لتحليل تلك الآراء والأقوال المضيئة لوجدناها ـبعد تفهمها واصابة مراميها ـ تسطع بأضواء الحقيقة النيرة .

---

(١) على الرغم من اشتهار نسبة هذا الرأى الى الامام الرازى فإنه أصلا لجمهرة من علماء أهل السنة المحققين كما صرح الإمام نفسه فى صدارة عرضه له قائلا :ونحن نذكر الوجه الملخص الذى عليه أكثر المحققين » .

(٢) يقال فى اللغة شطر شطره : أى قصد قصده ، والمراد هنا : مشاركة صاحب « مناهل العرفان » فى الرأى .

أقسام المتشابه فى التنزيل :

قد تبين لنا - بالوقوف على المعنى الاصطلاحى لكل من المحكم والمتشابه عند أثبات العلماء - أن مناط الأحكام والتشابه إنما هو إمكان الوقوف على مراد الشارع من كلامه ، وعدمه (١).

ولقد صنف الراغب فى مفرداته آيات التنزيل - من حيث الإحكام والتشابه إلى أضرب ثلاثة : محكم على الإطلاق ، ومتشابه على الاطلاق ، ومحكم من وجه متشابه من وجه ، ومن ثم قسم المتشابه - فى الجملة - إلى ثلاثة أقسام :-

القسم الأول : المتشابه من جهة اللفظ فقط وهو ضربان :-

أولهما : متشابه اللفظ المفرد ، والتشابه فيه إما لغرابته وندرة استعماله فى اللغة كلفظ : (الأب) فى قوله تعالى : (وفاكهة وأبا)(٢) وهو المرعى المتهيء للرعى وإما لكونه مشتركا بين عدة معان كلفظ القرء مثلا

وثانيها : متشابه الكلام المركب وأنواعه ثلاثة :-

---

(١) إنما ذهبنا إلى اعتبار إمكان الوقوف على مراد الشارع مناطا للإحكام دون تخصيص ذلك بالظهور والوضوح، كما اعتبرنا عدم امكان الوقوف على المراد مناطا للتشابه لا بمجرد خفاء المراد - كما اتجه صاحب (المناهل) - لاستيعاب شتى الآراء التى سقناها فى تحديد المعنى الاصطلاحى للمحكم والمتشابه لاسيما رأى سادتنا أهل السنة الذى اعتد بالتأويل - قسيما للظهور - فى تعرف المراد من اللفظ المحكم .

ولا يعارض اعتبار عدم الوقوف على المراد مناطا للتشابه : بما ذكره الراغب من أن من أضرب المتشابه: ما للإنسان سبيل إلى معرفته كالالفاظ الغريبة والأحكام المغلقة ، لأنها متى عرفت آلت الى المحكم .

(٢) سورة عبس /٣١

«الأول»: ماوقع التشابه فيه لاختصار الكلام، كقوله تعالى: (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء (١) فالتقدير: وإن خفتم ألا تقسطوا فى يتامى النساء إذ تزوجتم بهن فانكحوا ماطاب لكم من النساء من غيرهن. وقيل: إنهم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنا، فقيل لهم: إن خفتم ألا تعدلوا فى أمر اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ماحل لكم(٢)

«النوع الثانى»: ماوقع التشابه فيه لبسطه والإطناب فيه، كقوله تعالى: (ليس كمثله شىء)(٣) فإنه لو كان التعبير: (ليس مثله شىء) لكان أظهر للسامع، لكن الكاف، جاءت ههنا لأسرار بلاغية منبئة عن إعجاز التنزيل(٤).

«النوع الثالث»: ماوقع التشابه فيه لترتيبه ونظمه، ومنه قوله تعالى: «الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما»(٥).

إذ تقديره: (.. الذى أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا) وترتيب الكلام المعجز على هذا النحو: لإفادة وصف الكتاب العزيز بالتكميل بعد وصفه بالكمال.

القسم الثانى: هو المتشابه من جهة المعنى:

ويتضمن هذا القسم ماورد فى التنزيل وصفا لله تبارك وتعالى(٦) أو وصفا

---

(١) سورة النساء/ ٣ (٢) انظر تفسير البيضاوى ١/ ٨٤ ط الحلبى الثانية.

(٣) سورة الشورى/ ١١

(٤) من ذلك ماذكره الآلوسى فى تفسيره ٢٥ : ١٨، من أن المراد بالجملة الكريمة افادة المبالغة فى نفى المماثلة عنه بنفيها عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه، وهذا لايستلزم وجود المثل، اذ الفرض كاف فى المبالغة اهـ بتصرف

(٥) سورة الكهف/ ١، ٢

(٦) فن هذا القسم: متشابه الصفات الذى سنعرض له بعد.

ليوم القيامة وأحداثه ، فإن تلك الصفات بمنأى عن تصورنا ، اذ لايدخل فى نطاق التصور مالايقع فى دائرة الحس أو ماهو من جنسه .

القسم الثالث : المتشابه من جهة اللفظ والمعنى معا ، وهو خمسة أضرب :

أولها : ماكان التشابه فيه من جهة الكمية ، كالعموم والخصوص مثل قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم »(١) .

وثانيها : ما كان التشابه فيه من ناحية الكيفية ، كالوجوب والندب ، نحو قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء »(٢) .

وثالثها : ما جاء التشابه فيه من جهة الزمان ، كالناسخ والمنسوخ ، مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته »(٣) إذ قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم »(٤) وكلتاهما : مدنية النزول .

ورابعها : ماوقع التشابه فيه من جهة المكان ، والأمور التى نزلت فيها ، نحو قوله تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ..)(٥) .

فإن من لايعرف عادات العرب فى طرق بيوتهم وأماكنهم لم يقف على المعنى المراد ، إذ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه ، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة من وراء ويعدون ذلك برا ، فبين الحق تعالى لهم أن ذلك ليس بالبر ، إنما البر من اتقى المحارم والشهوات(٦) .

---

(١) سورة التوبة /٥ .
(٢) سورة النساء /٣
(٣) سورة آل عمران / ١٠٢
(٤) سورة التغابن /١٦
(٥) سورة البقرة /١٨٩
(٦) انظر تفسير البيضاوى ١/ ٤٥ .

وخامسها : ماتطرق إليه التشابه من جهة الشروط التى يصح بها الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح (١) .

(مذاهب العلماء فى معرفة المتشابه)

اختلف أئمة العلماء — سلفا وخلفا — فى إمكان الاطلاع على علم المتشابه ومعرفة الراسخين فى العلم بتأويله .

ومنشأ الخلاف فى ذلك : اختلافهم فى هذه الآية الكريمة : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » (٢) .

فقد ثار الخلاف بين العلماء فيها حتى اعتدها الإمام الزركشى من قبيل المتشابه (٣) .

وذلك من حيث تردد الواو فى قوله : « والراسخون فى العلم » بين أن تكون للاستئناف ، وعليه : يكون الوقوف بالتمام على قوله تعالى : « إلا الله » ، اتمام الكلام عنده (٤) ، وبين أن تكون للعطف فيوقف على قوله : « والراسخون

---

(١) انظر المفردات للراغب / ص ٢٥٤

(٢) سورة آل عمران / ٧ .

(٣) انظر البرهان ٢ / ٧٢

(٤) على هذا : يكون (الراسخون) ، مبتدأ خبره : جملة (يقولون آمنا به) ومعناه هذا : أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه وإنما يقفون عند حد الإيمان به .

فى العلم . . . وتكون جملة : (يقولون آمنا به) إما مستأنفة لتوضيح حال الراسخين فى العلم وإما حالية من الراسخين . وقد نقل الشهاب عن أئمة من المحققين قولهم بجواز جعل الواو استئنافية أو عاطفة .

ومن منطلق ترجيح الاستئناف (١) ذهب الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم (٢) - وخاصة أهل السنة - والأحناف إلى القول بأن المتشابه قد استأثر الله تعالى بعلمه فلا يعلم تأويله أحد غيره ، (هذا هو المذهب الأول)

وقد ذكر الأثبات لصحة هذا المذهب وترجيحه جملة من الأدلة ما بين نقلى وعقلى : -

الدليل الأول : ما أخرجه الحافظ عبد الرزاق فى تفسيره والحاكم فى مستدركه عن الامام ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه كان يقرأ : « وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنا به » فإن هذا يدلنا على أن الواو للاستئناف ، لأن هذه الرواية - وإن لم تثبت بها القراءة - فأقل درجاتها أن تكون خبرا بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن ، فيقدم كلامه فى ذلك على من هو دونه .

وقد حكى الفراء : أن فى قراءة أبى بن كعب أيضا : (ويقول الراسخون فى العلم) .

---

(١) أى ترجيح جعل قوله تعالى : « والراسخون فى العلم » كلاما مستأنفا مقطوعا عما قبله .

(٢) نص الامام الفخر فى تفسيره (٢ / ٤٠٠) على أن أصحاب هذا المذهب الأئمة : ابن عباس والسيدة عائشة والحسن ومالك بن أنس والكسائى والفراء ومن المعتزلة أبو على الجبائى .

الدليل الثانى : ما أخرجه الطبرانى - فى معجمه الكبير - عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ..) : الآية ، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه (١) .

الدليل الثالث : ما أخرجه الحافظ ابن مردويه عن ابن العاص عن رسول الله ﷺ قال : (إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به ، (٢) .

الدليل الرابع : ما أخرجه الحاكم عن الامام ابن مسعود رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : (كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ومحكم ومتشابه ، وأمثال ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا ، وقد أخرج البيهقى - فى الشعب نحوه عن أبى هريرة(٣) .

الدليل الخامس : ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما - مرفوعا وموقوفا - أنه قال : وأنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال

---

(١) انظر تخريج الحديث فى الجامع الكبير للحافظ السيوطى (١ / ٨٧٦) وتفسير ابن كثير (٢ / ٨) .

(٢) انظر تخريج الحديث فى المصدر الأخير .

(٣) انظر الاتقان ٢ / ٧ وروح المعانى ٣ / ٨٥

وحرام لايعذر أحد بجهالته ، (وتفسير تفسره العرب)(١) وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لايعلمه إلا الله تعالى ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب » .

هذه خمسة دلائل نقلية تردفها بخمسة عقلية (٢) لتكمل الأدلة عشرة كاملة :

فالدليل السادس : أنه إذا قام الدليل الأقوى على أن ظاهر اللفظ المتشابه غير مراد علم أن المراد من اللفظ بعض مجازات الحقيقة ، وبما أن المجازات كثيرة وليس الترجيح لبعضها على بعض إلا بالترجيحات اللغوية وهى ظنية والظن لايكفى فى القطعيات ، من ثم يتحتم تفويض تعيين المراد إلى الله تعالى .

والدليل السابع : أنه لو كان طلب تأويل المتشابه جائزا لما ذمه الله تعالى بقوله (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فإن قيل : إن مناط الذم هو بعض المتشابه ـ كقيام الساعة ـ لا كله أجيب : بأن تخصيص ذلك ببعض المتشابه دون بعض ترك الظاهر وهو غير جائز .

والدليل الثامن : أن امتداح الله سبحانه وتعالى للراسخين فى العلم إنما هو لقولهم (آمنا به) مع عدم علمهم بتأويله ، إذ لو كانوا عالمين به ـ على التفصيل ـ لما كانوا مستوجبين للمدح ، لأن من علم شيئا على التفصيل لابد وأن يؤمن به ، وإنما الراسخون يعلمون بالدليل العقلى : أن المراد غير الظاهر ، ويفوضون تعيين المراد إلى علمه تعالى ، ويقطعون بأن ذلك المعنى ـ أى شىء كان ـ فهو الحق ،

---

(١) ما بين المعقوفتين : لم يرد فيما رواه صاحب (روح المعانى) وهو فى الاتقان وفى الجامع الكبير ١ / ١٥٦

(٢) هذه الأدلة الخمسة ذكرها الإمام الفخر فى تفسيره (٢ / ٤٠٠ - ٤٠١) مطولة ونقلها عنه أبو حيان مختصرة فى البحر المحيط (٢ / ٣٨٤) وقد توسطنا هنا فى عرضها بين الاطناب والايجاز تحريا لتقريب المعنى بلا ألغاز .

فهؤلاء هم الراسخون في العلم بالله تعالى ، الذين لم يزعزعهم قطعهم بترك الظاهر ولاعدم علمهم بالمراد على التعيين : عن الإيمان بالله والجزم بصحة القرآن .

والدليل التاسع : أن القول بعطف قوله : (الراسخون) على لفظ الجلالة في الآية الكريمة : فيه عدول بالكلام عن ظاهره ، لإستلزامه إما الإبتداء بقوله : (يقولون آمنا به) مع إضمار (هؤلاء) وهو مدفوع بأن تفسير كلامه تعالى بما لا يحتاج إلى إضمار أولى من تفسيره بما يحتاج معه إلى إضمار .

وإما : أن يجعل قوله : (يقولون آمنا به) حالا(١) ، والمتقدم : هو الله والراسخون ، ولايجوز أن يكون الأول - سبحانه - صاحب الحال هنا فلزم أن يكون صاحب الحال : (الراسخون) فقط وفيه ترك للظاهر ، ومن ثم يكون هذا الوجه مرجوحا ويترجح القول بالاستئناف على القول بالعطف .

وأما الدليل العاشر : أن قوله تعالى - حكاية عن الراسخين - « كل من عند ربنا » يقتضي فائدة ، وهي : أنهم آمنوا بما عرفوا بتفصيله وتأويله ومالم يعرفوه ولو كانوا عالمين بالتفصيل في الكل لعرى الكلام عن الفائدة(٢) .

المذهب الثاني) : وهو مروي - أيضا - عن الإمام ابن عباس رضي الله

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (١٦/٤) أن عامة أهل اللغة ينكرون أن تجعل جملة (يقولون ...) حالية لأن العرب لاتضمر الفعل والمفعول معا ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل .

(٢)من الأدلة التي ذكرها القرطبي في تفسيره لهذا المذهب أيضا : أنه لايجوز أن ينفي الله شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه ثم يشرك فيه غيره (لا يجليها لوقتها إلا هو) .

عنهما وعن مجاهد والربيع بن أنس وأكثر المتكلمين(١) الذين نسقوا الراسخين على ماقبله وذهبوا إلى أن الراسخين فى العلم يعلمون المتشابه ، وقد استدلوا لذلك بجملة من الأدلة مابين منقول ومعقول ، ويتمثل أبرزها فيما يلى :

أولا : لقد ثبت — فى الصحيح — أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس — رضى الله عنهما — بقوله « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »(٢) . فلو كان التأويل مما لايعلمه إلا الله تعالى لما كان للدعاء معنى .

وثانيا : أخرج ابن المنذر — من طريق مجاهد — عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : « ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » قال : (أنا ممن يعلم تأويله)(٣) كذلك قرأ مجـــاهد هذه الآية وقال : (أنا ممن يعلم تأويله)(٤) .

وثالثا : أخرج ابن حميد عن مجاهد — رضى الله عنه — فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم) قال : (يعلمون تأويله ويقولون آمنا به (٥) .

ورابعاً : أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : (الراسخون فى العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ولا محكمه من متشابهه(٦) .

---

(١) انظر عزو هذا المذهب لهؤلاء فى تفسير الفخر (٢/٤٠٠) وعزوه إلى الإمامين القاسم بن محمد ومحمد بن جعفر بن الزبير فى تفسير القرطبى(٤/١٧)وإلى الشافعية فى تفسير الآلوسى ٣ / ٨٤ وإلى الإمام الضحاك وابن قتيبة والنووى فى الاتقان (٢ /٥ – ٦) .

(٢) انظر التاج الجامع للأصول ٢/٣٦٠ وانظر روح المعانى (٣/٨٤

(٣) انظر الإتقان : ٢ / ٥ وتفسير القرطبى٤/١٨ .

(٤) انظر المصدر السابق .

(٥) ، (٦) ، انظر : الاتقان : ٢/٥ .

تلك أدلة نقلية وتتبعها بجملة من الدلائل العقلية التى تعاضد بها أصحاب هذا المذهب وتتمثل فيما يلى — مشفوعة بما عقب به عليها من أجوبة ساقها أنصار المذهب الأول — فنقول :-

خامساً : قالوا إنه يبعد أن يخاطب الله تعالى عباده بما لاسبيل لأحد من الخلق الى معرفته . قاله الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم ونقله صاحب الاتقان(١) ونقل الزركشى — فى البرهان — عن الراغب قوله فى مقدمة تفسيره: (وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً ، والا لأدى إلى بطلان فائدة الانتفاع به)(٢) .

وقد أجاب الآلوسى عن ذلك بقوله : (لايبعد فى أن يخاطب الله تعالى عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ، ويكون ذلك من باب الابتلاء ، كما ابتلى سبحانه عباده بتكاليف كثيرة وعبادات وفيرة لم يعرف أحد حقيقة السر فيها ، والسر فى هذا الابتلاء : قص جناح العقل ، وكسر سورة الفكر، وإذهاب عجب طاووس النفس ؛ ليتوجه القلب بشراشره تجاه كعبة العبودية ويخضع تحت سرادقات الربوبية ، ويعترف بالقصور ، ويقر بالعجز عن الوصـــول إلى ما فى هاتيك القصور ، وفى ذلك غاية التربية ونهاية المصلحة .

وسادساً : أنه لم يكن للراسخين فى العلم حظ فى المتشابه إلا أن يقولوا : «آمنا به كل من عند ربنا » لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين، بل على جهلة المسلمين،

---

(١) انظر الإتقان: ٢ / ٥ .

(٢) انظر : البرهان للزركشى : ٢ - ٧٤ .

لأنهم جميعاً يقولون : « آمنا به كل من عند ربنا(١) بيد أن الله تعالى قد امتدح الراسخين فى هذا المقام بالتذكر وهو مشعر بأن لهم الحظ الأوفر من معرفة ذلك

وقـــد أجيب عن ذلك : بأن فضل الراسخين الذى اقتضى ذكرهم ههنا وامتداحهم بالتذكر ليس لأنهم ذوو حظ فى معرفة المتشابه ، بل لأنهم اتعظوا فخالفوا هواهم ووقفوا عندما حد لهم مولاهم على قدم العبودية والتسليم فلم يسلكوا مسلك الزائغين ولم يخوضوا مع الخائضين (٢) .

وسابعاً : قالوا إنه لو أريد بقوله تعالى : (والراسخون فى العلم . .) الخ : بيان حظ الراسخين مقابلا لبيان حظ الزائغين : لكان المناسب أن يقال : (وأما الراسخون فيقولون . .) فيؤتى بأما — لتفصيل الحكم على المقابل — وبالفاء فى جوابها .

وقد أجيب : بأن المقابلة المذكورة محققة فى الآية الكريمة وقد حذفت أما والفاء ; استغناء بذكر ما بعدهما من الكلام فى موضع المقابل وذلك جائز ومستشهد عليه فى كتب النحو بنفس هذه الآية الكريمة(٣) .

وقد أبرز الإمام الألوسى فائدة رائعة لترك (أما) التفصيلية و (الفاء) ،

---

(١) أنظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بتحقيق السيد صقر ص ١٠٠ وتفسير القرطبى : ٤ / ١٧ — ١٨ .

(٢) وبالإضافة لما ذكر فقد أبرز صاحب (روح المعانى ٣/٨٦) فائدة قيد الرسوخ فى العلم فى العبارة بأنه : المبالغة فى قصر علم تأويل المتشابه عليه تعالى ، لأنهم إذا لم يعلموه وهم كذلك فغيرهم من باب أولى .

(٣) أنظر : مغنى اللبيب لابن هشام (١ /٥٧) ط صبيح .

وهى : المبالغة فى الاعتناء بشأن الراسخين ، حيث لم يسلك بهم سبيل المعادلة اللفظية لهؤلاء الزائغين ، وصينوا عن أن يذكروا معهم كما يذكر المتقابلان فى الأغلب فى مثل هذه المقامات وقريب من هذا : قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت)(١) حيث لم يقل ، والطاغوت أولياء الذين كفروا ، ولا : الذين آمنوا وليهم الله ، تعظيما لشأنه تعالى ورعاية للاعتناء بشأن المؤمنين(٢) .

وثامناً : قال أصحاب المذهب الثانى : إن مقتضى ظاهر قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » يفيد انحصار الكتاب فى المحكم والمتشابه ، حيث لم يقل : ومنه متشابهات . ومقتضى هذا الحصر : أن يرد ما لا يتضح معناه من التنزيل إلى المحكم فيهتدى العلماء إلى تأويله . وإن القول بعدم معرفة المتشابه أصلا مخرج للخفى الذى يمكن تأويله بالرد إلى المحكم من قسمى المحكم والمتشابه ، وذلك قادح فى انحصار التنزيل فى قسمى المحكم والمتشابه .

وقد أجيب عن ذلك : بأن المذهب الأول لا يلتزم القول بحصر التنزيل فى محكم ومتشابه فإن ثمة غيرهما ولولا ذلك لأشكل قوله تعالى : (لتبين للناس ما نزل إليهم (٣) ، لأن المحكم لا تتوقف معرفته على البيان ، والمتشابه لا يرجى بيانه فلا بد أن يراد بما يبينه الرسول ﷺ : غير القسمين ، فضلا عن أن الآية الكريمة لم يرد فيها طريق من طرق الحصر . وعموما : فإن مذهب أهل السنة يدخل فى المحكم : ما عرف المراد منه بالتأويل(٤) .

---

(١) سورة البقرة / ٢٥٧ .

(٢) أنظر : روح المعانى ٨٦/٣ وحاشية الشهاب على البيضاوى ٦/٣

(٣) سورة النحل / ٤٤ .

(٤) هذا التوفيق من جانبنا : مبنى على الرجوع لتعريف أهل السنة للمحكم =

وتاسعاً : إنه لو لم يقف الراسخون على معرفة المتشابه لما كان المحكم أماً الكتاب بمعنى رجوع المتشابه إليه ، إذ لا رجوع إليه فيما استأثر الله تعالى بعلمه - كعدد الزبانية مثلا -.

وأجيب عن ذلك : بأن إضافة « أم » إلى الكتاب على معنى « في » لا على معنى اللام والمعنى : أن المحكم أم في الكتاب لا أم الكتاب ، وعليه : يكون المحكم أماً وأصلا في فهم العبادات الشرعية واجتناب النواهي وامتثال الأوامر، لا أماً فيما استأثر الله تعالى بعلمه ، وحتى على جعل الإضافة لامية فإنه يلتزم الأمومة للكتاب باعتبار بعضه وهو حق الدلالة مالم يصل إلى حد الاستئثار - وهو الواسطة بين القسمين فأمومة الكتاب ثابتة على كلا المذهبين . وأما عن الأدلة النقلية التي تفيد علم بعض الصحابة - والتابعين كالإمام ابن عباس رضي الله عنهما - ومجاهد ونحوهما بتأويل المتشابه فإنه لا يتعين حمل التأويل فيها على تأويل ما اختص علمه به تعالى ، بل يجوز حمله على تفسير ما يخفى تفسيره من القسم المتردد بين المحكم والمستأثر بعلمه .

وبعد تبيان هذا المذهب بأدلته وما أجيب به عنها ننتقل إلى : —

(المذهب الثالث) ، وهو مذهب كثير من أئمة المحققين(١) ويجمع

= الذي أوردناه في هذا المبحث - وبناء عليه : لا إشكال في انحصار التنزيل في قسمي المحكم والمتشابه .

(١) عزا الشهاب في حاشيته على البيضاوي : (٢ / ٦) هذا المذهب - المجوز للعطف والاستئناف - إلى كثير من أئمة التحقيق وعزاه الزركشي في البرهان (٧٤/٢) إلى كثير من المفسرين ونقله أبو حيان في البحر (٣٨٥/٢)، عن ابن عطية . كما نقله القرطبي في تفسيره (٤ / ١٨) عن شيخه أبي العباس ، ونقله الإمام السيوطي في الاتقان (٣ / ٩ - ١١) عن الخطابي كما أثبته الراغب في مفرداته ص / ٢٥٤ وأثبت ابن كثير نحوه في تفسيره (٢ / ٨).

بين المذهبين السابقين بلا تضاد ولاتناقض وعليه تحمل جميع الروايات المأثورة عن السلف فى التفويض فى علم المتشابه أو الوقوف عليه ، إذ أن مبنى هـذا المذهب : جواز جعل الواو للاستئناف والعطف فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم . .) وذلك بناء على تقسيم المتشابه إلى مستأثر بعلمه وإلى ما يمكن الوقوف عليه ومعرفة تأويله للراسخين فى العلم .

ومن خلال هذا المذهب فقط : يفهم سر الازدواج فيما روى عن حبر الأمة مما يفيد قطع الراسخين عما قبله والاستئناف به فى الآية الكريمة من نحو قراءة : (ويقول الراسخون . .) ، وما يفيد عطف الراسخين على لفظ الجلالة من نحو قوله — بعد قراءة الآية الكريمة — (أنا ممن يعلم تأويله) .

كما أن إشعاعات ترجيح هـذا المذهب الجامع ساطعة مما أثر عن الامام ابن عباس — رضى الله عنهما — من قوله : « أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى » .

فقد قسم هذا الحديث التنزيل إلى أقسام أربعة إثنان من قبيل المحكم وهما : الحلال والحرام ، والتفسير(١) الذى تفسره العرب بمقتضى ظاهر اللغة ، واثنان من قبيل المتشابه وهما : المتشابه الذى يتوصل الراسخون فى العلم إلى فهم المراد منه ، والمتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه .

ولقد أفصح الإمام الراغب الاصفهانى فى مقدمة تفسيره(٢) وفى مفرداته عن

---

(١) لفظ التفسير فى هذا الحديث بمعنى المفسر — بفتح السين المشددة — فهو مصدر أطلق على اسم المفعول .

(٢) نقل صاحب البرهان (٢ : ٧٤) عن الراغب فى مقدمة تفسيره أنه قال: (ذهب كثير من المفسرين إلى أنه يصح أن يكون فى القرآن بعض مالايعلم تأويله إلا الله ....)

تفصيل هذا المذهب ، إذ قال — بعد تبيانه لأقسام المتشابه التي وقفنا عليها : -

« ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب :

ضرب لاسبيل إلى الوقوف عليه : كوقت الساعة ، وخروج دابة الأرض وكيفية الدابة ، ونحو ذلك .

وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلقة .

وضرب متردد بين الأمرين ، يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم ، وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه السلام في على - رضي الله عنه -: « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » وقوله لابن عباس مثل ذلك ، وإذا عرفت هذه الجملة : علم أن الوقوف على قوله : (ومايعلم تأويله إلا الله) ، ووصله بقوله : (والراسخون في العلم) جائز ، ، وأن لكل واحد منهما وجهاً حسبما دل عليه التفصيل المتقدم »(١) اهـ

ونقل صاحب (الإتقان) عن أبي سليمان الخطابي أنه قال : (المتشابه على ضربين : أحدهما ماإذا رد إلى المحكم واعتبر به عرف معناه ، والآخر : مالاسبيل إلى الوقوف على حقيقته ، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ فيطلبون تأويله ولا يبلغون كنهه فيرتابون فيه فيفتتنون(٢) .

كذلك نقل أبو حيان — في البحر — عن ابن عطية المفسر تقرير هذا المذهب الذي يوفق به بين المذهبين السالفين إذ قال :

(إذا تأملت . قرب الخلاف من الاتفاق ، وذلك : أن الكتاب محكم ومتشابه

---

(١) انظر : المفردات : ٢٥٥ .

(٢) انظر : الإتقان بتحقيق محمد أبو الفضل : ٢ : ٩

فالمحكم : المتضح لمن يفهم كلام العرب من غير فكر ولا لبس فيه ، ويستوى فيه الراسخ وغيره .

والمتشابه: منه ما لا يعلمه الا الله كأمر الروح وآماد المغيبات المخبر بوقوعها، وغير ذلك .

ومنه ما يحمل على وجوه فى اللغة فيتأول على الاستقامة ، كقوله فى عيسى : (وروح منه)(١) إلى غير ذلك ، ولا يسمى راسخا الا من يعلم هذا النوع كثيرا بحسب ماقدر له ، والا : فمن لايعلم سوى المحكم فليس براسخ .

فقوله : « إلا الله » مقتض : بديهة العقل أنه تعالى يعلمه على استيفاء نوعيه جميعا ، والراسخون يعلمون النوع الثانى ، والكلام مستقيم على فصاحة العرب ودخلوا بالعطف فى علم التأويل ، كما تقول : « ما قام لنصرى إلا فلان وفلان » وأحدهما نصرك بأن ضارب معك ، والآخر : أعانك بكلام فقط .

وإن جعلنا «والراسخون» مبتدأ مقطوعا عما قبله : فتسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى استوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب(٢) وفى أى شىء رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ؟ وما الرسوخ الا

---

(١) صدر الآية قوله : (ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ...) سورة المائدة : ١٧١ ومعنى قوله « وروح منه » : أنه ذو روح صدر منه لابتوسط ما يجرى مجرى الأصل والمادة له ، وقيل : سمى روحا : لأنه كان يحيى الأموات أو القلوب . « انظر تفسير البيضاوى ١ : ١١٠ » .

(٢) هذا ملحظ رائع للامام أبى حيان الذى سبر غور الدلالة اللغوية وفقه بها أسرار التنزيل ! !

المعرفة بتصاريف الكلام وموارد الأحكام ومواقع المواعظ (١) وإعراب الراسخين يحتمل الوجهين،(٢).

وينبغى بعد عرض هذه الآراء التى أوردناها من خلال تبيان المذاهب الثلاثة فى معرفة المتشابه: كلام فريد سجله صاحب «روح المعانى»(٣) فى بعض صفحات تفسيره المجيد ينبىء عن رسوخه فى العلم ونورانية رأيه الرشيد، إذتناول - رضى الله عنه - بثاقب عرفانه ذروة الذرا ومافوق كوكب الشعرى، فعرض للقسم الأعلى من المتشابه - وهو ما استأثر الحق تعالى بعلمه من جانب لم يتطرق إليه فكر لأنه فوق مستوى الفكر!! ورؤية لا يطمع إليها البصر لأنها لاتنال إلا بالبصيرة!!.

قال - عليه الرضوان - بعد أن بين أن هذا القسم المستأثر بعلمه قد ابتلى به الحق تعالى عباده لقص جناح العقل وكسر سورة النفس وللتحقق بعجز العبودية حيث تتم التربية ....

«هذا إذا أريد بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته: ما لا سبيل لأحد

---

(١) نختلف مع أبى حيان فى قصره الرسوخ على ما ذكر فقد روى الطبرى بإسناده عن أبى الدرداء أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين فى العلم فقال: (من برت يمينه وصدق لسانه واستقام به قلبه وعف بطنه وفرجه فذلك الراسخ فى العلم) (انظر جامع البيان ٣ / ١٨٥) إنه من أوثق مفتاح: (واتقوا الله ويعلمكم الله).

(٢) انظر: البحر المحيط ٢/٣٨٥

(٣) هو الإمام العارف بالله تعالى العلامة المفسر: شهاب الدين السيد محمود الآلوسى النقشبندى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ رضى الله عنه.

منهم إلى معرفته من طريق الفكر ، وأما إذا أريد ما لا سبيل إلى معرفته مطلقا - سواء كانت على الإجمال أو التفصيل بالوحى أو بالإلهام لنبي او ولى - فوجود مثل هذا المخاطب به فى القرآن فى حيز المنع .

ولعل القائل بكون المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه : لا يمنع تعليمه النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الوحى مثلا ، ولا إلقاءه فى روع الولى الكامل مفصلا ، لكن : لا يصل إلى درجة الإحاطة - كعلم الله تعالى - وإن لم يكن مفصلا : فلا أقل من أن يكون مجملا .

ومنع هذا أو ذاك مما لا يكاد يقول به من يعرف رتبة النبي صلى الله عليه وسلم ورتبة أولياء أمته الكاملين ، وإنما المنع من الإحاطة ومن معرفته على سبيل النظر

- وهو الطريق المعتاد والسبيل المسلوك فى معرفة المشكلات واستحصال النظريات - ولتبادر هذا المعنى من : « يعلم »(١) ، إذا أسند إلى الراسخين : منع إسناده إليهم ، ومتى أريد منه العلم لا من طريق الفكر صح الإسناد وجاز العطف .

ولكن : دون توهم هذه الإرادة من ظاهر الكلام خرط القتاد !! فلهذا : شاع القول بعدم العطف وكان القول به أسلم .

ويؤيد ما قلنا : ما ذكره الإمام الشعرانى (٢) قال : « أخبرنى شيخنا على

---

(١) أى فى قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله)

(٢) هو الإمام العارف بالله تعالى ترجمان التصوف والصوفية وإمام العلماء العاملين والورثة المحمديين الفقيه الأصولى المحدث أبو المواهب سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه - له أكثر من ثلاثمائة مصنف فى مختلف العلوم (انظر : معجم المؤلفين ٦/٢١٨) :

الخواص قدس سره أن الله أطلعه على معانى سورة الفاتحة ، فخرج منها مائتى ألف علم وأربعين ألف علم ، وتسعمائة وتسعين علما !! .

وكان يقول : « لا يسمى عالما — أى عند أهل الله تعالى — إلا من عرف كل لفظ جاءت به الشريعة »(١) اه

بهذا البيان النورانى : بدد الإمام الآلوسى كل لبس فى الخلاف بين المذاهب، وبين أن مبنى هذا الخلاف بأسره إنما هو التقييد أو الإطلاق فى طريق المعرفة وأداة الإدراك ، ومن ثم فهى مسألة نسبية لا مطلقة ، فمن قصر طريق المعرفة على الفكر وأداته على العقل تراءى له المتشابه المستأثر بعلمه غلقا لا يرام استكناهه وغيبا لا تطاول سماؤه .

وأما من اتسع أفق إدراكه فأيقن أن ثمة للمعرفة أبوابا علوية ذات مفاتيح قدسية لا تنال إلا بمحض الخصوصية الإصطفائية ، لمن اجتباهم مولاهم من أنبيائه وأوليائه فقلدهم بمقاليد العرفان الثاقب وأيدهم بالوحى الصادق والإلهام الناطق : فإنه لن يحجم عن إيثار الوصل على القطع . والعطف على الاستئناف ، لمعرفته حينئذ بدلالة الرسوخ فى العلم وتحققها لمن أوتى أسرار جوامع الكلم وأفصحت له عن معانيها متشابهات الألفاظ ناطقة بأسرار الأحكام والحكم ! .

وبعد أن وصلنا بزورق البحث إلى شاطىء الحقيقة ، وقد جزنا بمحيط البحث شتى الأمواج المتعاورة والتيارات المتقابلة فى خضم « المتشابه » الذى تشابه القول فى معرفته بين الإمكان والحظر فى مد وجزر .

ننتقل إلى القول فى :-

---

(١) انظر تفسير (روح المعانى) للإمام الآلوسى : ٨٧/٣ .

﴿ حكمة ورود المتشابه فى القرآن الكريم ﴾

اقتضت حكمة الحكيم العليم أن ينزل هذا القرآن العظيم مشتملا على محكم ومتشابه، ليتحقق بذلك سمو كماله من جميع الوجوه ومن شتى الجوانب بما لذلك من حكم وأسرار. ولقد تكشفت لأهل التنزيل بعض تلك الحكم والفوائد فأفصحوا عنها ليذكر بها أولوا الألباب وليجتلى أسرارها من رام كشف النقاب. فرأينا هنالك العديد من جنى الفوائد التى أودعها علماء القرآن مصنفاتهم.

ولقد كان من بديع صنيع الإمام الزركشى — فى البرهان — أنه صنف ما وقف عليه من فوائد إنزال المتشابه فى القرآن الكريم حسب تقسيم المتشابه إلى ما يتوصل إلى معرفته وإلى ما استأثر الله تعالى بعلمه(١). حيث لكل من النوعين مقتضياته، وبهذا التصنيف نأخذ فى إيراد حكم ورود المتشابه.

فأما ما يتعلق بإيراد ما استأثر الله تعالى بعلمه من وجوه الحكم والفوائد فقد ذكر العلماء ذلك.

أولا: ابتلاء الإنسان واختباره بتعبده بما لا يعلم معناه من كلام الله تعالى، وقد مضى بنا تبيان سر هذا الابتلاء فى كلام العارف الآلوسى - عليه الرضوان - إذ قال: «والسر فى هذا الابتلاء قص جناح العقل، وكسر سورة الفكر، وإذهاب عجب طاووس النفس ليتوجه القلب بشراشره تجاه كعبة العبودية، ويخضع تحت سرادقات الربوبية، ويعترف بالقصور، ويقر بالعجز عن الوصول إلى ماق هاتيك القصور، وفى ذلك غاية التربية ونهاية المصلحة»(٢).

كذلك نقل الإمام السيوطى عن بعض العارفين تبيانا رائعا لهذا الوجه يقول فيه:

---

(١) جرى على هذا النسق فى التصنيف الإمام السيوطى ثم الشيخ الزرقانى فى مناهله.

(٢) انظر: روح المعانى ٣/٨٦.

« العقل مبتلى باعتقاد حقية المتشابه ، كابتلاء البدن بأداء العبادة ، كالحكيم إذا صنف كتابا أجمل فيه أحيانا ، ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه ، وكالملك يتخذ علامة يمتازبها من يطلعه على سره .

وقيل : لو لم يبتل العقل الذى هو أشرف البدن : لاستمر العالم فى أبهة العلم على التمرد ، فبذلك(١) : يستأنس إلى التذلل بعز العبودية .

والمتشابه : هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاما واعترافا بقصورها(٢) .

وفى ختم الآية بقوله تعالى : « ومايذكر إلا أولوا الألباب » : تعريض بالزائغين ، ومدح الراسخين ، يعنى : من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه فليس من أولى العقول ، ومن ثم : قال الراسخون : « ربنا لاتزغ قلوبنا .... »(٣) إلى آخر الآية فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللدنى بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفسانى »(٤) .

---

(١) أى بابتلاء العقل بما لا يعلم معناه من المتشابه .

(٢) صاغ صاحب كتاب (المبانى لنظم المعانى) هذا الوجه من وجوه حكمة إيراد المتشابه بقوله :

« أنزله سبحانه اختبارا ليقف المؤمن عنده ويرده إلى عالمه فيعظم به ثوابه ، ويرتاب به المنافق فيستحق العقوبة ولم يضرهم جهلها ، ولوافتقروا إلى علمه لم يطوه عنهم ، كما اختبر قوم طالوت بالماء فقال (إن الله مبتليكم) فكما جاز ترك الإعراض فى هذا وأن لايقال : ما العلة فى هذا؟ فكذلك يؤمر بالمتشابه ولا يقال: لم لم يكشف معانيها ولم يوضحها » .

انظر : « مقدمتان فى علوم القرآن » لصاحب كتاب المبانى : من علماء القرن الخامس الهجرى - وابن عطية ص١٧٩ .

(٣)سورة آل عمران/٨ (٤) انظر: الاتقان بتحقيق محمدأبوالفضل ٣/٢٠٩/٣١

من ذلك التبيان فنستخلص : أن إيراد هذا المتشابه الذى استأثر الحق تعالى بعلمه إنما هو لابتلاء الإنسان وتعبده بما لا يعلم معناه من التنزيل ، وفى الوقت نفسه إثبات لعجزه وقصوره وتربيته بأدب العبودية والتسليم لخالقه وتفويض العلم إليه جل شأنه(١) .

وثانياً : إقامة الحجة على المتحدى بالقرآن من أولئك العرب الذين نزل بلسانهم ولغتهم ومع ذلك عجزوا عن الوقوف على أسرار هاتيك المتشابهات واستقاء معانيها من مبانيها رغم بلاغتهم وحضور بديهتهم ، فذلك دال على أنه معجز حق نزل من لدن حكيم عليم على قلب نبى أمى صادق ذى قدر عظيم(٢) .

وثالثاً : من أقوى وجوه فوائد إيراد المتشابه — بل أقواها عند الإمام الرازى — ما ذكره من أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق .

فمن سمع من العوام — فى أول الأمر — إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه : ظن أن هذا عدم ونفى ، فوقع فى التعطيل . فكان

---

(١) من ثم تشتمل هذه الحكمة على فائدتين : الابتلاء والتعجيز . وقد عد صاحب المناهل إثبات العجز والتجهيل فائدة مستقلة بذاتها مع كونها مستلزمة للابتلاء . انظر : مناهل العرفان ١٧٩/٢ .

(٢) من ثم يعلم أن ورود المتشابه المستأثر بعلمه وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم . وقد أورده الإمام السيوطى ضمن وجوه الاعجاز فى معترك الأقران فى إعجاز القرآن ١٣٦/١ تحت عنوان (الوجه التاسع من وجوه إعجازه انقسامه إلى محكم ومتشابه . وانظر البرهان ٧٦/٢ .

الأصلح : أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح .

فالقسم الأول : ـ وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر : ـ يكون من باب المتشابهات .

والقسم الثانى : ـ وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر ـ هو المحكمات(١) ،اهـ

وواضح أن هذا الوجه يتمثل بجلاء : فى متشابه الصفات وقد تقدم أن التشابه فيها من جهة المعنى والعلم بحقائقها مستأثر به .

ورابعاً : أن فى إيراد المتشابه المستأثر بعلمه رحمة عظمى من الله تعالى بهذا الإنسان الضعيف الذى لا يتحمل عقله ولا تتسع طاقته لإدراك حقائق صفاته تعالى وأسمائه وأفعاله التى أودعها كتابه العظيم ، ولولا وقوع التشابه ـ مثلا ـ فى مواقيت بعض أفعاله من مثل : إقامة الساعة وإنهاء آجال العباد ونحو ذلك لاختل نظام الحياة ومال ميزان التكليف بمعرفة الخلق لنهايتهم ما بين خائف ذاهل من شدة قربها أو خانع مغتر متقاعس عن الاستعداد لها .

وخامساً : أن فى إيراد المتشابه المستأثر بعلمه : إطماعا لذوى المذاهب المختلفة أن يجد كل منهم فيه مايؤيد مذهبه ووجهته . فيستدرجون بإبهام المتشابه لاحتمال آرائهم إلى إمعان النظر فيه ومن ثم : قد يفضى بهم ذلك إلى اعتناق الحق والتخلص من الباطل رغم بقاء المراد من المتشابه مستأثراً به فى علم الله تعالى .

ولولا وقوع التشابه المذكور ، بأن كان التنزيل محكما بالكلية : لما كان مطابقاً

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ٢/٢٩٧ – ٢٩٨ والإتقان ٢/٣٢ ومناهل العرفان ٢/١٧٩ .

إلا لمذهب واحد ، ولكان مبطلا ـ بصريحه ـ لجميع المذاهب المخالفة ، وبذلك يغفل أرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه لأول وهلة(١) من ثم : كان التشابه فى التنزيل مدعاة للهدى المستقيم !!

تلك الفوائد الخمس هى أبرز ما وقفنا عليه من وجوه الحكم فى إيراد ما استأثر الله تعالى بعلمه من المتشابه .

ثم هناك فوائد أخرى لإيراد النوعين الآخرين من المتشابه ـ وهما : ما يتسنى للعلماء إدراكه بالبحث والنظر ، وما يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم ـ فيما ذكره علماء القرآن من فوائد إيراد هذين النوعين :

أولا : إن فى وجود هذا المتشابه حثا للعلماء على البحث فيه الموجب للعلم بغوامضه ، والتعرف على خوافيه ودقائقه لرد متشابهه إلى محكمه ولا ريب أن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب إلى الله تعالى .

ثم إن وجود هذا المتشابه يجعل الوصول إلى الحق أصعب وأشق . وزيادة المشقة توجب المزيد من الثواب لما فيها من الصبر والجهاد ، وقد قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)(٢).

وثانياً : فى التعرف على مدلول هذا المتشابه : ظهور فضل العالم على الجاهل واستدعاء ذلك إلى المزيد من التعرف فترتقى الأنفس الشريفة إلى أوج الفضل:

---

(١) ذكر الإمام الرازى أصل هذا الوجه فى تفسيره (٢٩٧/٢) وما أوردناه هنا فهو بتصرف يتفق مع إيراد ما استأثر الله تعالى بعلمه من المتشابة لا لمطلق المتشابه .

(٢) سورة : آل عمران/١٤٢ . وانظر هذا الوجه المستشهد له فى تفسير الفخر ٢٩٧/٢ والإتقان ٢٢/٣ .

ومن ثم يظهر التفاضل والتفاوت بين العلماء فى معالى الدرجات ، ولو كان القرآن الكريم كله محكما لايحتاج إلى نظر وتأويل : لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره(١) .

وثالثا : إن ورود هذا المتشابه فى التنزيل يضطر الباحث فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية وإلى الدراية بطرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض وبذلك يتخلص من ظلمة التقليد والمحاكاة لأقوال الغير بلافهم كأولئك الذين قالوا : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)(٢) . ويرتقى بالنظر والتعرف إلى ضياء الاستدلال ووهج المعرفة ، ولو كان التنزيل كله محكما لما اضطر إلى تعرف الدلائل العقليه والظل راسفا فى أصفاد التقليد .

ورابعاً : إن اشتمال التنزيل على هذا المتشابه يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة لتعرف المراد منه كعلوم اللغة والنحو والبيان وأصول الفقه وغير ذلك ، ومن ثم : كان الفضل فى ازدهار تلك العلوم والتبحر فى فنونها ومباحثها للقرآن الكريم لورود المتشابه فيه .

وخامساً : تجسيد الإعجاز القرآنى فى الضرب المستحسن عند العرب فى الكلام ، وقد بين صاحب كتاب (المبانى لنظم المعانى)(٣) هذا الوجه بقوله :-

(١) انظر البرهان ٢/٧٥، والإتقان ٢//٣٠-٣١ ، ومعترك الأقران ١/١٥٨

(٢) سورة الزخرف/٢٣ .

(٣) لم يقف المستشرق آرثر جفرى الذى نشر مقدمة كتاب (المبانى لنظم المعانى) على شخصية مؤلفه وقد نشر المقدمة - مع مقدمة ابن عطية المفسر - معزوة إلى الكتاب دون تعرف على المؤلف ، بيد أن هذا المؤلف المجهول قد

(إن الله سبحانه احتج على العرب بالقرآن : إذ كان فخرهم ورياستهم بالبلاغة ، وحسن البيان ، والاختصار ، والإطناب . وكان كلامهم على ضربين ، أحدهما : الواضح الموجز الذى لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهر ، والآخر : على المجاز والكنايات ، والإشارات ، والتلويحات . وهذا الضرب هو المستحلى عندهم ، الغريب من ألفاظهم ، البديع فى كلامهم ، فلما قرعهم الله سبحانه فعجزهم عن المعارضة بمثل سور أو سورة منه : أنزل على الضربين ليصح العجز منهم ، وتتأكد الحجج ولزومها إياهم ، فكأنه قال : عارضوا محمداً — ﷺ — فى أى الضربين شئتم ، فى الواضح أو فى المشكل . ولم يقدروا عليه ، ولو أنزله كله واضحاً محكماً بحيث لا يخفى على أحد سمعه منه لوجد المشركون مقالا وقالوا : فأبا له لم ينزل بالضرب المستحسن عندنا ، والمستحلى فى طباعنا ؟؟ لأن ما وقع فيه الإشارة والكناية والتشبيه والتعريض كان أفصح وأعرب »(١) .

تلك أبرز وجوه الحكم والفوائد التى وقفنا عليها لورود المتشابه غير المستأثر بعلمه . ثم نأتى إلى الكلام فى : ـ

متشابه الصفات

وهذا القسم من المتشابه له أهمية قصوى قد استوجبت من العلماء إفراده بالتصنيف لكثرة الخوض فيه والتخبط فى مسالكه الشائكة ـ من الفرق الضالة ـ على غير هدى .

ـــــ صرح فى المقدمة المذكورة بأنه أخذ فى تأليف كتابه (المبانى . .) سنة خمس وعشرين وأربعمائة . وهى مقدمة حافلة بالعطاء العلمى القرآنى .

(١) أنظر : (مقدمتان فى علوم القرآن) ص : ١٧٧

فكان ممن أفرده بالتصنيف : ابن اللبان المصرى(١) فى كتابه (رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات) . ثم هنالك مصنف منسوب للشيخ الأكبر سيدى محيي الدين ابن عربى الحاتمى رضى الله عنه ، واسمه (رد المتشابه إلى المحكم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية) . بيد أن ثمة شكا فى نسبة هذا الكتاب للشيخ الأكبر)(٢) .

ثم نجد الإمام الزركشى ـ فى البرهان ـ يتناول بحث متشابه الصفات فى نوع مستقل عنون له بـ « النوع السابع والثلاثون : فى حكم الآيات المتشابهات الواردة فى الصفات »(٣) .

وقد تعددت الآراء والاتجاهات فى هذا الضرب من المتشابه الذى وقع التشابه فيه من جهة المعنى وحده ـ كما بين الراغب فى مفرداته ـ من حيث أن صفات الحق تعالى لا تتصور لنا : لعدم تطرق إدراكنا الحسى لها أو لما هو من جنسها ، ورغم ذلك خاصة فيها الزائغون وأسرف فى تناولها المبتدعون ، بينما وقف أهل الحق عندحدود الأدب مع الله تعالى فهم لأماناتهم وعهدهم راعون!!

وقد حصر علماء التنزيل اتجاهات الأقوال فى متشابه الصفات عند أهل السنة فى ثلاثة مذاهب : ـ

---

(١) هو الشيخ محمد بن أحمد بن اللبان (الأشعرى) المصرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ واسم كتابه ـ كما فى كشف الظنون ـ : (رد المتشابه إلى المحكم) وأورده الشيخ الزرقانى باسم(رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات) . انظر كشف الظنون ٨٣٧/١ ومناهل العرفان ١٨٢/٢ .

(٢) أورد ناشر هذا الكتاب الشيخ أبو بكر عبد الرحمن مخيون فى مقدمته احتمال نسبته لابن اللبان مع ترجيح نسبته للشيخ الأكبر .

(٣) انظر البرهان ٧٨/٢

(المذهب الأول) : وهو مذهب جمهور أهل السنة من السلف الصالح وأهل الحديث - ويسمى مذهب (المفوضة) ، فهؤلاء وجهتهم : الإيمان بها مع تفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى والتمسك بتنزيه الاعتقاد عن الشبه والتعطيل ، والإمساك عن الخوض فيها بالتأويل .

ولهذا المذهب استدلال على حقيته بالعقل وبالنقل .

أما الاستدلال العقلي : فقد اختصره الإمام السيوطي مما ذكره الإمام الفخر في تفسيره - بإطناب واستيعاب - وأتى بخلاصته في « الاتقان » فقال : - « صرف اللفظ عن الراجح إلى المرجوح لابد فيه من دليل منفصل ، وهو . إما لفظي أو عقلي .

والأول : لا يمكن اعتباره في المسائل الأصولية : لأنه لايكون قاطعا ، لأنه موقوف على انتفاء الاحتمالات العشرة المعروفة(١) . وانتفاؤها مظنون والموقوف على المظنون مظنون ، والظني لايكتفى به في الأصول .

وأما العقلي : فإنما يفيد صرف اللفظ من ظاهره لكون الظاهر محالا ، وأما إثبات المعنى المراد : فلا يمكن بالعقل ، لأن طريق ذلك : ترجيح مجاز على مجاز وتأويل على تأويل ، وذلك الترجيح لا يمكن إلا بالدليل اللفظي ، والدليل اللفظي في الترجيح ضعيف ، لايفيد إلا الظن ، والظن لا يعول عليه في المسائل الأصولية القطعية .

---

(١) ذكر الفخر في تفسيره (٢/٢٩٦) أن الدلائل اللفظية لا تكون قاطعة البتة ، لأن كل دليل لفظي فإنه موقوف على : نقل اللغات ، ونقل وجوه النحو، والتصريف ، وموقوف على عدم الاشتراك وعدم المجاز ، وعدم التخصيص ، وعدم الإضمار ، وعدم المعارض النقلي والعقلي .

فلهذا : اختار الأئمة المحققون من السلف والخلف ـ بعد إقامة الدليل القاطع على أن حمل اللفظ على ظاهره محـــال ـــ : ترك الخوض فى تعيين التأويل »(١) اهـ .

وأما الاستدلال النقلى لمذهب السلف : فإنه يتضمن العديد من النصوص والآثار التى أوردنا بعضها عند تبيان مذاهب العلماء فى معرفة المتشابه ، ونضيف ههنا ما يلى : ـ

(أ) أخرج ابن مردويه عن السيدة أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها فى قوله : (ثم استوى على العرش)(٢) قالت : « الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به إيمان والجحود به كفر »(٣) .

(ب) وأخرج أبو القاسم اللالكائى(٤) عن جعفر بن عبد الله أنه قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس ، فقال له : يا أبا عبد الله ، (استوى على العرش) كيف استوى ؟؟

قال : فما رأيت مالكا وجد من شىء كوجده من مقالته ، وعلاه الرحضاء يعنى : العرق ـ وأطرق القوم ، قال فسرى عن مالك فقال : « الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وإنى أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج »(٥) .

---

(١) انظر : الاتقان ١٢/٣ : ومفاتيح الغيب للفخر الرازى ٣٩٦/٢ .

(٢) صدر الآية الكريمة : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ..) سورة الأعراف /٥٤

(٣) انظر الدر المنثور للإمام السيوطى : ٩١/٣ وانظر الاتقان ١٣/٣ .

(٤) هو هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائى (ت سنة ٤١٨) صاحب كتاب السنن، وكان من فقهاء الشافعية .

(٥) انظر : الدر المنثور ٩١/٣ والاتقان ١٣/٣

ﺟ — وأخرج الدارمي — في مسنده عن سليمان بن يسار : أن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر — وقد أعد له عراجين النخل — فقال : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر ! فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمي رأسه، فقال : ياأمير المؤمنين حسبك ، قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى »(١) .

د — ونقل الإمام السيوطى عن الحافظ الترمذى أنه قال - بصدد الكلام على حديث الرؤية - « المذهب فى هذا عند أهل العلم من الأئمة، مثل : سفيان الثورى ، ومالك ،وابن المبارك ، وابن عيينة ، ووكيع ، وغيرهم أنهم قالوا :

نروى هذه الأحاديث ، كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف، ولا نفسر ولا نتوهم»(٢) .

(المذهب الثانى) وهو مذهب الخلف من أهل السنة وينسب للإمام أبى الحسن الأشعرى وأصحابه كابن برهان (٣) وغيره (ويسمى مذهب المؤولة) وقد نقل أن إمام الحرمين كان يذهب هذا المذهب ثم رجع عنه(٤) .

وقد نص صاحب (البرهان) على أن لهذا المذهب أصولا سلفية ، حيث قال : « وممن نقل عنه التأويل : على ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهم .

---

(١) انظر : الدر المنثور ٢/٧

(٢) انظر الاتقان ٣/١٣

(٣) هو أبو الفتح أحمد بن على بن برهان الشافعى (ت : سنة ٥٢٠ ﻫ) من علماء الأصول ، له : البسيط والوجيز .

(٤) انظر : الاتقان ٣ / ١٣ ثم انظر تأويله للاستواء بالقهر والغلبة والعلو فى (لمع الأدلة ص ٩٥) .

وقال الغزالى فى كتاب : (التفرقة بين الإسلام والزندقة)(١) : إن الإمام أحمد أول فى ثلاثة مواضع ، وأنكر عليه ذلك بعض المؤرخين .

قلت : وقد حكى ابن الجوزى عن القاضى أبى يعلى : تأويل أحمد فى قوله تعالى: (أو يأتى ربك . .)(٢) قال : وهل هو إلا أمره؟ بدليل قوله : (أو يأتى أمر ربك)(٣) . اه(٤) .

فوجهة هذا المذهب : هى تأويل متشابه الصفات على مايليق بجلال الله تعالى وكماله ، وذلك التأويل : إما بإثبات صفات سمعية غير معلومة على التعيين زائدة على الصفات المعلومة لنا بالتعيين ـ كما نقل عن الإمام الأشعرى رضى الله عنه(٥). وإما : تأويل هذا المتشابه بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين ، وذلك بحمل ما استحال ظاهره من المتشابه على معنى يليق بالله تعالى شرعا وعقلا ولا تأباه اللغة.

وأما حجة أصحاب هذا المذهب فى جنوحهم إلى التأويل: فهى كما قال الزركشى: (وجوب حمل الكلام على خلاف المفهوم من حقيقته لقيام الأدلة على استحالة التشابه والجسمية فى حق البارىء تعالى ، وليس بين المعقول والمنقول تغاير فى الأصول ، بل التغاير : إنما يكون فى الألفاظ ، واستعمال المجاز : لغة العرب(٦) .

---

(١) طبع هذا الكتاب باسم : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة . بمطبعة الترقى بمصر سنة ١٣١٩ هـ (٢) سورة الأنعام/١٥٨

(٣) سورة النحل/٣٣ . (٤) البرهان ٧٩/٢

(٥) صرح العلامة الآلوسى ـ قدس الله سره ـ بأن الامام الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قد التزم أخيرا منهج السلف كما صرح فى(الابانة) الذى هو آخر مصنفاته، فقد تحدث عن الاستواء ـ ص ٢١ ـ قائلا : (وأن الله استوى على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده، استواء منزها عن الممارسة والإستقرار والتمكن والحلول) .

(٦) انظر البرهان للزركشى ٨٠/٢

ويضاف إلى ما قاله صاحب (البرهان) أن المؤولة قد عظم عليهم إبقاء الألفاظ المتضمنة المتشابه فى الصفات فى مقام الاهمال دون دلالة ، مما يوقع فى الحيرة بسبب ترك اللفظ لامفهوم له ، مع إمكان حمل الكلام على مقتضى الشرع والعقل. وفى نطاق دلالة اللغة لحق لذلك التأويل ليتسنى الانتفاع بهداية القرآن المشعة من كل كلمة فيه.

وأما (المذهب الثالث) : فهو مذهب المتوسطين وهو الذى ذكره الامام السيوطى بقوله :

« وتوسط ابن دقيق العيد فقال : إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيدا توقفنا عنه ، وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه.

قال : وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوما من تخاطب العرب قلنا به من غير توقيف كما فى قوله تعالى : (ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله (١)) فنحمله على حق الله وما يجب له »(٢).

تلك هى مذاهب أهل السنة فى متشابه الصفات.

ولا ريب عندنا ـ بعد الوقوف على وجهاتها وما تصفحناه من الأدلة ـ أن منهج السلف (المفوضة) هو المنهج الأمثل ، وذلك بدلالة : إحجام عظام الأئمة من سلفنا الصالح عن التأويل وتنكيلهم بمن رام تتبع المتشابه بالسؤال عنه ، لما علمه أولئك السلف من زيغ قلوب هؤلاء. ومن تحذير الكتاب والسنة منهم ، لما أخرجه الشيخان وغيرهما عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « هو الذى أنزل عليك الكتاب . . . » إلى قوله

---

(١) سورة الزمر/٥٦ .
(٢) انظر الاتقان ١٤/٣ .

« أولوا الألباب » ـ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم (١) .

ثم يترجح لدينا مذهب المفوضة ـ ثانيا ـ : بدلالة رجوع أعيان أئمة مذهب الخلف من التأويل إلى منهج التفويض ، كما ثبت لنا من التزام الإمام الأشعرى بمنهج السلف وهو الموقف الذى صرح به فى آخر مصنفاته ، وهو كتاب « الإبانة » الذى أشاد فى مقدمته بمنهج الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثم طبقه الإمام الأشعرى فى تفويض معنى : (الاستواء) عند تناوله فى كتابه المذكور .

كذلك صرح الثقات كالامام السيوطى وغيره برجوع إمام الحرمين عن مسلك التأويل إلى جادة التفويض . فقال فى (الاتقان) : (وكان إمام الحرمين يذهب إليه(٢) ثم رجع عنه فقال فى الرسالة النظامية . « الذى نرتضيه دينا وندين الله به عقدا : اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها(٣) .

ثم يضاف إلى ذلك ـ ثالثا ـ ماتقدم من دليل العقل وأدلة النقل على أن منهج السلف هو الأمثل والأسلم .

ولئن نقل عن بعض السلف — بصدد متشابه الصفات — مايفيد التأويل(٤)

---

(١) انظر الاتقان : ٢/٣ط الحلبى الثالثة .

(٢) أى إلى مذهب الخلف المؤولة كما ينبىء عنه صدر الكلام قبله .

(٣) انظر : الاتقان : ٢/٦ ط الحلبى الثالثة .

(٤) من أمثلة ذلك ماساقه فى الاتقان (٢/٦ ط الحلبى) من رواية مقاتل والكلبى عن الامام ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه فسر (استوى) بمعنى : استقر ، وقد عقب على ذلك الحافظ السيوطى بقوله : (وهذا — إن صح — يحتاج إلى تأويل ، فإن الاستقرار يشعر بالتجسيم) اهـ

فإن النقل عنهم فى ذلك يعوزه التوثيق ، ولئن وثق : فإن مدافعته لما نقل عنهم بالتزام التفويض تقتضى فيه التأويل .

ثم بعد تبيان رجحان مذهب السلف المفوضة فى تفويض العلم بمتشابه الصفات إلى الله تعالى : نجد هنالك — بالإضافة للإتجاهات الثلاثة التى عرضناها لأهل السنة — اتجاها زائغا لمذهب جـــامح عن الصواب هو مذهب « المشبهة » من الكرامية ومن نحا نحوهم ، الذين أجروا تلك المتشابهات على ظواهرها — بلا تفويض ولا تأويل — فسقطوا فى مهاوى التشبيه والتجسيم ، أولئك هم الذين فى قلوبهم زيغ ، وهم الذين أخبر عنهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى حديث السيدة عائشة السابق — بقوله : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » .

ومن عجيب الأمر أن نجد - على صعيد الفكر الإسلامى - بعض من يتسمون بالسلفية ، ويدعون تبعيتهم للإمام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وهم غارقون فى لجج التشبيه والتجسيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !! وليت أولئك قد قلدوا السلف الصالح فى تفويضهم أو الخلف الصالح فى تأويلهم بيد أنهم كانوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء !!

ولنقف الآن على بعض متشابه الصفات لنتعرف مواقف المذاهب المختلفة منها :

من ذلك أولا صفة (الاستواء) ماذا قال العلماء فى تفسيرها فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (١) وقوله سبحانه : (ثم استوى على العرش (٢)) .

أما السلف المفوضة : فقد تعرفنا موقفهم من خلال ما أوردناه من نحو قول

---

(١) سورة طه / ٥ :

(٢) سورة الأعراف/٥٤ .

السيدة أم سلمة - رضي الله عنها - (الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به إيمان والجحود به كفر) . ومن نحو قول الإمام مالك الذي قدمناه.

وكذلك تتعرفة ماذكره الإمام الأشعري في (الابانة) بعد أن رجع عن التأويل وسلك مسلك أهل التفويض فقال : « وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزها عن الممارسة ، والاستقرار ، والتمكن ، والحلول ، والانتقال ، لايحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لاتزيده قربا إلى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد (١) .

وأما مانسب إلى الإمام ابن عباس - رضي الله عنهما - من أن استوى بمعنى : استقر أو صعد(٢) فإنه مقدوح فيه بتوهين السند ، قال الامام القرطبي : (وأما ماحكي عن ابن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبي والكلبي ضعيف(٣) .

وأما أقوال المؤولة في تفسير الاستواء فقد حكى الامام السيوطي منها ستة وجوه (٤)

---

(١) انظر : الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأشعري : بتحقيق د/ فوقية حسين محمود ، ص٢١ نشر دار الأنصار بالقاهرة .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٥٤/١ ، والبرهان للزركشي ٨٠/٢

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢٥٤/١ .

(٤) جملة ماذكره الامام السيوطي سبعة وجوه منها مانسب إلى الامام ابن عباس وضعفت نسبته - وهو الذي سقناه آنفا من أن استوى بمعنى استقر - ويبقى بعده وجوه ستة .

أحدها : أن استوى بمعنى : استولى(١) وقد رد هذا التأويل بوجهين :

أولهما : أن الله تعالى مستول على الكونين والجنة والنار وأهلهما . فأى فائدة فى تخصيص العرش؟؟.

والآخر : أن الاستيلاء إنما يكون بعد قهر وغلبة ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ولذلك : روى عن ابن الأعرابى أنه سئل عن معنى (استوى) فقال: هو على عرشه كما أخبر ، فقيل له : ياأبا عبدالله ، معناه استولى ؟ ؟ قال اسكت ، لا يقال استولى على الشىء إلا إذا كان له مضاد ، فإذا غلب أحدهما قيل استولى.

وأما ثاني الوجوه : فهو أن استوى بمعنى : صعد ، قاله أبو عبيد ، وهو مردود ، لاشعاره بالجهة ، إذ أنه يوجب هبوطا منه حتى يصعد ، وذلك محال ، تعالى الله تعالى عنه .

وثالثها : ماحكاه أبو عبد الرحمن اسماعيل الحيرى فى تفسيره من أن المعنى : الرحمن علا والعرش استوى له ، فجعل (على) فعلا . لا حرفا ، وقد رد بوجهين:

أولهما : أن (على) هنا حرف باتفاق ، بدليل كتابتها فى مصاحف أهل الشام والعراق والحجاز بالياء ولوكانت فعلا لكتبت بالألف كقوله تعالى (علا فى الأرض)(٢) والآخر : أنه رفع (العرش) ولم يرفعه أحد من القراء .

---

(١) ساق الامام السيوطى هذا الوجه ضمن وجوه المؤولة على طريقة أهل السنة ونسبه الزركشى فى البرهان (٨٠/٢) إلى المعتزلة وعزوه إلى أهل السنة ثابت فى (تأويلات أهل السنة) لأبى منصور الماتريدى (ت سنة ٣٣٣ م). انظر التأويلات ٨٥/١ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٢) سورة القصاص / ٤ .

ورابعها : أنه قد تم الكلام عند قوله : (الرحمن على العرش) ، ثم ابتدأ بقوله (استوى له ما فى السموات وما فى والأرض) . ورد أيضا بوجهين :

الأول : أنه تأويل ركيك يزيل الآية عن نظمها ومرادها .

والثانى : أنه لايتأتى ذلك فى قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) .

وخامسها : ما أرتضا صاحب (البرهان) مما نقل عن الإمام الاشعرى والفراء وجماعة من أهل المعانى — ونقل الامام السيوطى تصويبه عن اسماعيل الحيرى الضرير — من أن معنى (استوى) ههنا : أقبل على خلق العرش وقصد وعمد إلى خلقه (١) كقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) (٢) .

وقد استبعد الامام السيوطى هذا الوجه لتعدية الفعل (استوى) بعلى ، ولو كان كاذكروه لتعدى بإلى ، كما فى قوله سبحانه (ثم استوى إلى السماء) .

بيد أن الامام الزركشى قد ساق دفاع الامام الأشعرى عن هذا الوجه (٣) . إذ قال : ـ ، قال الأشعرى : (على) هنا بمعنى (فى) كما قال تعالى : (على ملك سليمان) (٤) ، ومعناه : أحدث الله فى العرش فعلا سماه استواء ، كما فعل فعلا سماه فضلا ونعمة ، قال تعالى (ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره

---

(١) نقل القرطبى فى تفسيره (١/٢٥٤-٢٥٥) عن الإمام البيهقى تصويب هذا الوجه بقوله : « قوله « استوى » بمعنى أقبل صحيح لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء ، والقصد هو الارادة ، وذلك جائز فى صفات الله تعالى) اه

(٢) سورة فصلت /١١

(٣) لايعزب عنا أن الامام الأشعرى قد عدل عن التأويل برجوعه إلى مذهب السلف كما سبق أن نوهنا .

(٤) من الآية /١٠٢ من سورة البقرة ، وصدرها : (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) .

إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة (١).

فسمى التحبيب والتكريه فضلا ونعمة ، وكذلك قوله : (فأتى الله بنيانهم من القواعد)(٢) أى : فخرب الله بنيانهم ، وقال : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا)(٣) أى : قصدهم ، وكما أن التخريب والتعذيب سماهما إتيانا ، فكذلك أحدث فعلا بالعرش سماه استواء)(٤) .

وأما الوجه السادس : فقد نقله الإمام السيوطى عن الشيخ ابن اللبان مجملا فى (الإتقان) ونحن نورده هنا من مصدره مفصلا لأنه على مستوى عال من الدراية والبصر بدلالة التنزيل ورد متشابهه إلى محكمه ، فقد قال ـ رحمه الله ـ بعد أن أورد أقوال العلماء وتأويل (الاستواء) :

« قد قررنا أن الاستواء مشتق من السواء ، وأصله : العدل ، وحينئذ : فالاستواء المنسوب إلى ربنا تعالى فى كتابه بمعنى اعتدل : أى قام بالعدل ، وأصله من قوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط)(٥) .

فقيامه بالقسط والعدل : هو استواؤه ، ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعزته كل شىء خلقه موزونا بحكمته البالغة للتعرف لخلقه بوحدانيته ، ولذلك : قرنه بقوله : (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

---

(١) سورة الحجرات / ٧ ، ٨

(٢) سورة النحل / ٢٦

(٣) سورة الحشر / ٢

(٤) انظر البرهان للزركشى ٢/٨٢

(٥) سورة آل عمران / ١٨

والاستواء المذكور في كتابه استواءان : استواء سماوي ، واستواء عرشي .

فالأول : معدى بإلى ، قال تعالى : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات)(١) ، وقال : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) ، ومعناه : — والله أعلم — : اعتدل : أي : قام بقسطه وتسويته إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ونبه على أن استواءه هذا هو : قيامه بميزان الحكمة ، وتسويته ، بقوله أولا عن الأرض :« وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين)(٢) وبقوله آخرا : (ذلك تقدير العزيز العليم)(٣) .

وأما الاستواء العرشي فهو : أنه تعالى قام بالقسط متصرفا بوحدانيته في عالمين : عالم الخلق ، وعالم الأمر . وهو عالم التدبير ، (ألا له الخلق والأمر)(٤) .

فكان استواؤه على العرش للتدبير بعد إنتهاء عالم الخلق ، لقوله الله تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من إذنه)(٥) .

وبهذا يفهم سر تعدية الاستواء العرشي بعلى ، لأن التدبير للأمر لابد فيه من استعلاء واستيلاء »(٦) .

---

(١) سورة البقرة / ٢٩

(٢) سورة فصلت / ١٠

(٣) سورة فصلت / ١٢

(٤) سورة الأعراف / ٥٤

(٥) الآية / ٣ من سورة يونس وصدرها : (إن ربكم الله الذي خلق) .

(٦) انظر رد المتشابه إلى المحكم المنسوب للإمام محي الدين بن عربي وهو في الحقيقة لابن اللبان كما اتضح لنا من عزو النقول إليه في الإتقان منسوبا إلى ابن اللبان . وهذا النص فيه ص ٧٤ .

تلك أبرز تأويلات الاستواء عند العلماء . ونختارنا منها : الوجهان الأخيران لموافقتها لدلالة اللغة مع تنزيه الحق تعالى — بمقتضاهما — عما لا يليق بجلاله سبحانه .

ثم : التناول — ثانيا — من المتشابه : (صفة النفس) فى قوله تعالى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب »(١) .

فنجد النفس فى اللغة إطلاقات عديدة ، إذ تطلق على ذات الشىء وحقيقته وهويته ، كما تطلق على الروح وعلى القلب وعلى الدم وعلى الإرادة ، وعلى العين التى تصيب ، وعلى الغيب ، وعلى العقوبة .

وقد استظهر العلامة الآلوسى من كلام بعض العلماء أنها حقيقة فى الإطلاق الأول — بمعنى ذات الشىء — مجاز فيما عداه(٢) .

وقال أبو القاسم السهيلى : النفس عبارة عن حقيقة الوجود دون معنى زائد ، وقد استعمل من لفظه (النفاسة) والشىء النفيس ، فصلحت للتعبير عنه سبحانه وتعالى اهـ(٣) .

من ثم : كان من أبرز تأويلات النفس فى الآية الكريمة ونظائرها : تأويلها بالذات .

وقد اعترض على هذا التأويل بأن التعبير عن النفس بالذات وإن كان سائغا فى اللغة إلا أن تعدى الفعل — فى الآية الكريمة — إليها بفى المفيدة للظرفية

---

(١) سورة المائدة / ١١٦ .

(٢) أنظر روح المعانى ٦٧/٧ .

(٣) أنظر الاتقان بتحقيق محمد أبو الفضل ١٦/٣ .

محال ، لأن الظرفية تستلزم التركيب والتركيب فى ذاته تعالى محال يجل عنه تبارك وتعالى .

ومن ثم : حمل الكلام على المشاكلة (١) — على هذا الوجه — فقال الإمام الآلوسى قدس الله سره : (والتحقيق : أن الآية من المشاكلة ، إلا أنها ليست فى إطلاق النفس ، بل فى لفظ (فى) فإن مفادها بالنظر إلى ما فى نفس عيسى عليه السلام : الارتسام والانتقاش ولا يمكن ذلك نظراً إلى الله تعالى ، وإلى هذا يشير كلام بعض المحققين)(٢) .

وهناك تأويل آخر للنفس فى الآية الكريمة ونظائرها ، وهو أن النفس بمعنى الغيب ، ذكره الزركشى فى (البرهان) فقال : (قيل : النفس ههنا بمعنى : الغيب ، تشبيها له بالنفس ، لأنه مستتر كالنفس)(٣) .

ولهذا الوجه : استحسانه ، لمناسبته لسياق الآية الكريمة : إذ قال تعالى فى ختامها : (إنك أنت علام الغيوب(٤) .

والذى حدا بالخلف إلى هذين التأويلين : إنما هو تمسك المجسمة بها — أى بالآية الكريمة المذكورة — فى إدعائهم الجسمية لله تعالى وحاشاه ، قال الإمام الفخر قدس سره : —

« تمسكت المجسمة بهذه الآية وقالوا : النفس هو الشخص ، وذلك يقتضى كونه — تعالى — جسما . والجواب من وجهين : الأول ، أن النفس عبارة

---

(١) تعرف المشاكلة بأنها : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، وهى فن من فنون البديع فى البلاغة ، وقد يطلق عليها اسم المزاوجة .

(٢) أنظر : روح المعانى ٦٧/٧ .

(٣) أنظر البرهان ٨٣/٢ . (٤) رد المتشابه إلى المحكم صـ ٢٤ .

عن الذات، يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد .

والثاني : أن المراد : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ، ولكنه ذكر هذا الكلام على طريق المطابقة والمشاكلة ، وهو من فصيح الكلام »(١) .

ثم : لنتناول — ثالثا — من المتشابه : (صفة اليد) في نحو قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم »(٢) وقوله سبحانه : « . . . لما خلقت بيدي »(٣) وقوله تعالى « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما »(٤) .

فإن اليد : أصل في الجارحة التي هي : الكف ، أو : من أطراف الأصابع إلى الكتف(٥) ثم تستعار اليد للقوة ، كما في قوله تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيد)(٦) كما تستعار للنعمة كما في قول الشاعر : (فإن له عندي يديا وأنعما)(٧) كذلك يستعار لفظ (اليد) للحوزة والملك كما في قوله تعالى : (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح(٨) .

ولما كان إطلاق اليد — بمعناها الأصلي وهو الجارحة — مستحيلا في حق الله تعالى : فوض جمهور السلف في معناها وأول الخلف ، كما أثر التأويل عن بعض السلف فيها :

---

(١) « تفسير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ٤٧٢/٣ ط : الحسينية .

(٢) سورة الفتح / ١١ .

(٣) سورة (ص) / ٧٥ .

(٤) سورة (يس) / ٧١ .

(٥) أنظر : المفردات / ٥٥٠ ، القاموس المحيط .

(٦) سورة (ص) / ١٧ .

(٧) أنظر : المفردات / ص ٥٥٠ .

(٨) سورة البقرة / ٢٣٧ .

فقد روى عن الإمام مجاهد التابعي أنه قال : اليد هنا — أي : في قوله تعالى : لما خلقت بيدي — صلة وتأكيد : كقوله : (ويبقى وجه ربك)(١) .

وقد تعقبه البغوي بقوله : وهذا تأويل غير قوي ، لأنها لو كانت صلة لكان لإبليس أن يقول : إن كنت خلقته فقد خلقتني ، وكذلك : في القدرة والنعمة(٢)، لا يكون لآدم في الخلق مزية على إبليس !!

وذهب بعض الخلف إلى تأويل اليد — في الآيات المتشابهة — بأنها صفة لله تعالى . فقد نقل صاحبا : (البرهان) و (الإتقان) عن السهيلي أنه قال : —

« اليد في الأصل كالمصدر ، عبارة عن صفة لموصوف ، ولذلك مدح سبحانه وتعالى بالأيدي مقرونة مع الأبصار في قوله : (أولي الأيدي والأبصار)(٣) ، ولم يمدحهم بالجوارح ، لأن المدح إنما يتعلق بالصفات لا بالجواهر !! — قال — وإذا ثبت هذا فصح قول الأشعري: إن اليدين في قوله تعالى : « لما خلقت بيدي» صفة ورد بها الشرع ، ولم يقل : إنها في معنى القدرة — كما قال المتأخرون من أصحابه — ولا بمعنى : النعمة ، ولا قطع بشيء من التأويلات ، تحرزا منه عن مخالفة السلف وقطع بأنها صفة تحرزا عن مذاهب المشبهة »(٤) .

ثم أتبع الإمام السيوطي ذلك بقوله : « والذي يلوح من معنى هذه الصفة :

---

(١) سورة الرحمن / ٢٧.

(٢) أي : ينسحب هذا الاعتراض أيضاً على تأويل اليدين بالقدرة والنعمة (انظر الإبانة ص ١٣١) .

(٣) من قوله تعالى في سورة (ص) / ٤٥ « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار » .

(٤) انظر : البرهان ٨٥/٢ ، والإتقان ١٧/٣ .

أنها قريبة من معنى القدرة ، إلا أنها أخص ، والقدرة أعم ، كالمحبة مع الإرادة والمشيئة ، فإن فى اليد تشريفا لازما »(١) .

ثم نقل عن البغوى تضعيفا آخر لتأويل اليد بمعنى القدرة والقوة والنعمة إذ قال : « وقال البغوى فى قوله (بيدى) : فى تحقيق الله التثنية فى اليد دليل على أنها ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة ، وإنما هما صفتان من صفات ذاته »(٢)

ومن ثم نخلص إلى أن المؤولة قد ذهبوا فى تأويل اليد إلى وجوه عدة

فنهم : من اعتبر ذكر اليد أو اليدين صلة للتأكيد — كما ذهب مجاهد — وقد سبق تعقبه .

ومنهم من تأولها بالقدرة أو القوة أو النعمة كما ذهب إليه المتأخرون من الأشاعرة، وقد انتقد الإمام الأشعرى نفسه ذلك فى رده على المعتزلة الذين سلكوا نفس هذا المسلك(٣) .

ثم هنالك : تأويلها بصفة سمعية غير معلومة لنا على التعيين ، وهو ما ذهب إليه الإمام الأشعرى فيما نقله عنه صاحبا : الاتقان والبرهان ، وقد استظهر من معنى هذه الصفة قربها من معنى صفة القدرة .

ثم بالإضافة لذلك : — أورد الامام السيوطى تأويلا آخر عن الشيخ ابن اللبان رحمه الله تعالى فقال : « وقال ابن اللبان : فإن قلت : فما حقيقة اليدين فى خلق آدم ؟ ؟ .

قلت : الله أعلم بما أراد، ولكن الذى استثمرته من تدبر كتابه : أن «اليدين» استعارة لنور قدرته القائم بصفة فضله ، ولنورها القائم بصفة عدله ، وتنبيه على

(١) و (٢) المصدر السابق . وانظر الإبانة للإمام الأشعرى ص١٣٢ .

(٣) انظر رد الامام الأشعرى على هذا التأويل فى الإبانة ص ١٣٤ — ١٣٧

تخصيص آدم وتكريمه بأن جمع له في خلقه بين فضله وعدله - قال - وصاحبة الفضل : هي اليمين التي ذكرها في قوله : « والسموات مطويات بيمينه »(١) سبحانه وتعالى(٢) .

ثم لقد دلل ابن اللبان لتأويله قائلا : - (ومما يحقق لك أن اسم اليد استعارة لنوره سبحانه قوله تعالى:(وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه)(٣) فاستعار اليدين للقرآن ، ثم نبه على أنه استعارهما لما اشتمل عليه من نور الفضل ونور العدل ، بقوله : (تنزيل من حكيم حميد) فالحكيم : صاحب نور العدل ، والحميد : صاحب نور الفضل . -(٤) . اهـ

وينبغي أن يلاحظ : أن الشيخ ابن اللبان ماقطع بأن تأويله هذا هو مراد الله تعالى من كلامه وإنما هو ثمرة لتدبر أسرار التنزيل ، ولقد اقتضاه أدبه مع الله تعالى أن يصدر كلامه بقوله : (قلت : والله أعلم بما أراد) !!

ثم : فلنتأول - رابعاً - صفة (الحب) في قوله تعالى : (يحبهم ويحبونه)(٥) .
وصفة (الرحمة) في قوله تعالى : (الرحمن الرحيم)(٦)
وصفة (الغضب) في قوله تعالى : (وغضب الله عليهم) (٧)

---

(١) سورة الزمر /٦٧

(٢) انظر الاتقان ١٨/٢ وانظر رد المتشابه إلى المحكم ص ٣١ - ٣٦

(٣) سورة فصلت /٤١-٤٢ .

(٤) انظر : رد المتشابه إلى المحكم ص ٣٢ .

(٥) سورة المائدة /٥٤ .

(٦) من سورة الفاتحة /٣ .

(٧) سورة الفتح /٦

وصفة (الرضا) فى قوله تعالى : (رضى الله عنهم)(١) .

وصفة (العجب) فى قوله تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم)(٢) .

فكل هاتيك الصفات تستلزم بظواهر دلالاتها اللغوية مالايليق بجلال الله تعالى من صفات الحوادث . من ثم : جنح الخلف من أهل السنة إلى تأويلها بما لايستحيل فى حقه سبحانه .

فذهبوا إلى تأويل صفات الحب والرحمة والرضا بإرادته تعالى لإثابة من أحبه ورضى عنه وتفضل عليه بالاحسان .

كما تأولوا صفات الغضب ونحوه من البغض والسخط بإرادته تعالى عقاب من غضب وسخط عليه وأبغضه ، وكذلك تأولوا العجب من الله تعالى بإنكار الشىء وتعظيمه(٣) قال الإمام الباقلانى : « فإن قيل: فما الدليل على أن غضب الله سبحانه ورضاه ورحمته وسخطه وحبه وعداوته وموالاته وبغضه : إنما هو إرادته لإثابة من رضى عنه وأحبه ووالاه ونفعه(٤) ، وأن غضبه وسخطه وبغضه وعداوته : إنما هو لارادة عقاب من غضب عليه وسخط وعادى ، وإيلامه وضرره ؟؟ .

قيل له : الدليل على ذلك : أن الغضب والرضا ونحو ذلك لايخلو إما أن يكون المراد به : إرادته النفع والضرر فقط ، أو يكون المراد به : فوران الطبع وتغيره

---

(١) سورة المائدة /١١٩ .

(٢) سورة الرعد / ٥

(٣) انظر : الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للقاضى الباقلانى ص ٤٠ . وانظر البرهان ٢/٨٨ .

(٤) النفع ههنا / مصدر مضاف إلى مفعوله والفاعل : هو الله تعالى .

عند الغضب ، ورقته وميله وسكونه عند الرضا ، فلما لم يجز أن يكون البارى جلت قدرته ذا طبع يتغير وينفر ، ولا ذا طبع يسكن ويرق ، وأن هذه من صفات المخلوقين ، وهو يتعالى عن جميع ذلك : ثبت أن المراد بغضبه ورضاه ورحمته وسخطه ، إنما هو إرادته وقصده إلى نفع من كان فى معلومه أنه ينفعه ، وضرر من سبق فى علمه وخبره أنه يضره لا غير ذلك)(١) .

كذلك نقل فى الإتقان عن الإمام الفخر الرازى ـ قدس الله سرهما ـ أنه قال:

« جميع الأعراض النفسية ـ أعنى : الرحمة ، والفرح ، والسرور ، والغضب ، والحياء ، والمكر ، والاستهزاء ـ : لها أوائل ولها غايات ، مثاله : الغضب ، فإن أوله غليان دم القلب ، وغايته : إيصال الضرر إلى المغضوب عليه . فلفظ الغضب فى حق الله لا يحمل على أوله الذى هو غليان دم القلب ، بل : على غرضه الذى هو إرادة الإضرار .

وكذلك : الحياء له أول ـ وهو انكسار يحصل فى النفس ـ وله غرض ـ وهو ترك الفعل ـ فلفظ الحيـــاء فى حق الله : يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس)(٢). اهـ

ونقل صاحبا (البرهان) و (الإتقان) عن البغوى روايته عن أبى القاسم النيسابورى عن أبى عبد الله البغدادى أنه قال :

سئل الجنيد(٣) عن هذه الآية فقال : إن الله لا يعجب من شىء ، ولكن الله وافق رسوله فقال : « وإن تعجب فعجب قولهم . » أى : هو كما تقول .

---

(١) انظر : الانصاف للإمام أبى بكر الباقلانى الأشعرى (ت سنة ٤٠٣ هـ) بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى صـ/ ٥٠ ط الخانجى الثانية .

(٢) انظر الإتقان بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٣/ ٢٠ .

(١) هو شيخ الصوفية الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى (ت سنة =

وبعـــد :ـ

فقد تناولنا ماشاء الله تعالى لنا من علم المحكم والمتشابه ، وهو كما تراءى لنا : من أدق المباحث القرآنية التى يرويها الباحث وأغزرها بالمعالجات اللغوية والأصولية والعقدية ولذا لاندعى ـ بعد تفيئنا فى ظلال أفنانه ـ أننا قد استقصينا جوانبه أو أحطنا بمختلف شعبه وشعابه ، كلا ، وإنما نلنا منها بقدر ماسمح المقام لنا وعلى قدر جهدنا ، ويبقى هنالك جانب بارز من المتشابه آثرنا إرجاءه إلى المبحث التالى وهو الحروف المقطعة فى أوائل السور ، أمدنا الله تعالى بتوفيقه بدءا واستمرارا وختاما وأعاننا على فهم أسرار كتابه العظيم بحق صاحب الخلق العظيم من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، عليه من الله "عظيم أفضل الصلوات وأتم التسليم .

=٢٩٨ هـ) أصله من نهاوند ونشأ بالعراق وتفقه على أبى ثور وكان يقول : (من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) رضى الله عنه ونفعنا به ـ انظر ترجمته فى شذرات الذهب ٢٢٨/٢ .

الباب الثاني

في

علم فواتح السور

هو علم جليل، أفرده بعض الأئمة بالتصنيف منهم العلامة ابن أبي الإصبع(١) المصري وقد سمى كتابه (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح(٢)).

ومنهم الإمام: أبو زيد البلخي(٣) الذي صنف كتاب: (الحروف المقطعة في أوائل السور) وقد أفرد الإمام الزركشي لهذا العلم في (البرهان): النوع السابع فعقده لأسرار الفواتح والسور، كما تناوله الإمام السيوطي في النوع الستين من (الاتقان) (٤).

وها نحن أولاء نقفي بحث المحاكم والمتشابه ببحث فواتح السور، لما بينهما من وطيد الإصار ومتين الصلة، وحسبك دليلا على ذلك: أن صاحب الإتقان قد عقد فصلا في نوع (المحكم والمتشابه) لبحث الحروف المقطعة في أوائل السور،

---

(١) هو زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المعروف بابن أبي الإصبع العدواني المصري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ.

(٢) أورده صاحب (كشف الظنون ٧٢٧/١) ونقل عنه الامام السيوطي في الاتقان. وطبع بمصر سنة ١٩٦٠ بتحقيق د/حفني شرف.

(٣) هو أبو القاسم أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ انظر ترجمته في طبقات المفسرين للداودي ٤٢/١.

(٤) أنظر: البرهان ١٥٤/١ و: الاتقان: ٣١٦/٢

لأنها من المتشابه بدليل على ما قيل . لكننا أرجأنا تناولها لموضعها من علم فواتح السور كما صنع صاحب (البرهان) عليه الرضوان .

وإنه لمن رسوخ العلم أن يفرد علماؤنا هذا النوع بالبحث كما أفردوا خواتم السور(١) ، ففي تناول الفواتح والخواتيم إجلاء لأسرار من إعجاز الذكر الحكيم(٢) ، ووقوف على جوانب بالغة الروعة من عظمة الكتاب المجيد .

فلقد استقصى هؤلاء الأئمة سور التنزيل البالغة مائة وأربع عشرة سورة ورصدوا فواتحها ، فوجدوها منحصرة في عشرة أنواع من الكلام لا يخرج عنها مفتتح من السور .

فكان تناول الفواتح وما حوته من أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز من خلال تصنيفها إلى تلك الأنواع التي تعرض لها بالبيان .

النوع الأول : الاستفتاح بالثناء

وينتظم هذا النوع تلك الفواتح التي تنبىء عن الثناء على الله عز وجل ، إما بطريق الإيجاب وإما بطريق السلب ، فإن الثناء قسمان : ـ

أحدهما : إثبات لصفات المدح ،

وثانيهما : نفي وتنزيه من صفات النقص .

وقد جاء الثناء بإثبات صفات بلمدح في مفتتح سبع سور : ـ

---

(١) أفرد الزركشي النوع الثامن في (البرهان) لخواتم السور (١٨٢/١) كما أفردها الإمام السيوطي بالبحث في النوع الحادي والستين من (الاتقان) ٣١٩/٢

(٢) تناول الإمام السيوطي في (معترك الاقران : ٧٤/١) في الوجه الخامس من وجوه إعجاز القرآن الكريم (افتتاح السور وخواتمها) .

جاء منها افتتاح بالتحميد في خمس سور هي : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر .

ومنها : افتتاح بقوله (تبارك) (١) وذلك في سورتي : الفرقان والملك .

كما ورد الثناء على الله تعالى بالتنزيه عن صفات النقص في مفتتح سبع سور أيضا ، وهي :

الإسراء : (سبحان الذي أسرى بعبده) ، والحديد : (سبح لله ما في السموات والأرض) ، والحشر : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) ، والصف : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) ، والجمعة : (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) ، والتغابن : (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) ، والأعلى : (سبح اسم ربك الأعلى) :

فمن عجيب أسرار التنزيل : أن تفتتح منه أربع عشرة سورة بالثناء على الله تعالى : نصفها لثبوت صفات الكمال ، ونصفها لسلب النقائص !!

ثم : من الأسرار التي تراءت لأحد علماء التنزيل وهو العلامة : محمود بن حمزة الكرماني صاحب كتاب : « الغرائب والعجائب ، في تفسير القرآن الكريم »: مانقله عنه صاحبا : (البرهان) و (الإتقان) (٢) من قوله : -

---

(١) قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) تكاثر خيره ، من البركة ، وهي كثرة الخير . أو : تزايد على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة . (أنظر : أنوار التنزيل ٦٨/٢ ط الحلبي الثانية) .

(٢) النص في البرهان (١٦٥/١) منقول عن كتاب : الغرائب والعجائب : وهو الذي أثبتنا لفظه ، وفي الإتقان (٢١٧/٢) منقول عن كتاب :(متشابه القرآن) الكرماني :

وسبح لله: هذه كلمة استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر منها فى (بنى إسرائيل)(١)، لأنه الأصل، ثم الماضى: (سبح لله) . فى الحديد ، والحشر ، والصف ، لأنه أسبق الزمانين ، ثم : المستقبل ، فى الجمعة ، والتغابن ، ثم : بالأمر فى سورة : الأعلى ، استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهى أربع : المصدر ، والماضى ، والمستقبل ، والأمر المخاطب ، فهذه أعجوبة وبرهان . اهـ

النوع الثانى : الاستفتاح بحروف التهجى

وقد افتتح الله سبحانه وتعالى بحروف التهجى تسعا وعشرين سورة فى كتابه العزيز متضمنة من المعانى والأسرار مالا تتحمله العقول والأفكار ، فجاءت ضربا من المتشابه الذى تعددت وجوه الأقاويل فى استكناه حقيقته ، وما زالت تلك الحقيقة فى علم الله تعالى يمن على من يشاء بالإفضاء إليها بقدر ما يشاء ، فكان إيراد تلك الفواتح المتشابهة بحق ومظهراً لعزته سبحانه تنحنى له هامات العقول ، وتخشع دون سدرته الألباب .

ولقد وقف الأئمة من أساطين علماء الأمة إزاء معانى هذه الفواتح المتشابهة فى اتجاهين رئيسيين : -

أولهما : أن هذه الحروف المقطعة أوائل السور من الأسرار المحجوبة والعلوم المستورة التى استأثر الله بعلمها : هذا هو مذهب جمهور السلف الصالح الذى ينتمى إليه جلهم(٢) رضوان الله عليهم أجمعين . وهذا المذهب يستند إلى جملة من

---

(١) أى : فى فاتحة سورة (الإسراء) وتسمى : (بنى إسرائيل)

(٢) إنما قلنا : ينتمى إليه جلهم ، أى معظمهم : لما سيأتى من أن لبعض سادات السلف أقوالا فى معانى هذه الحروف المقطعة ، بل لقد ورد عن بعضهم تارة : مايفيد استئثار الحق تعالى بعلمها ، وتارة : مايفيد العلم بمعناها ، كما سيأتى ، والله أعلم بأسرار كتابه ! !

الآثار المروية والأقوال المأثورة ، فن أبرز ما يؤيد هذا الاتجاه من تلك الآثار والأقوال :ـ

(ا) ما روى عن سيدنا أبي بكر الصديق رضى الله عنه من أنه قال : « لله فى كل كتاب سر وسره فى القرآن أوائل السور »(١) .

(ب) ما روى عن سادتنا الأئمة : عمر وعثمان وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ من أنهم قالوا : « الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر »(٢)

(جـ) ما روى عن سيدنا على كرم الله وجهه من قوله : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى »(٣) .

(د) وما روى عن الإمام ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من قوله عن هذه الحروف : « عجزت العلماء عن إدراكها »(٤) .

(هـ) وما روى عن الشعبي إذ سئل عن هذه الفواتح فقال : « إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور فدعها وسل عما بدا لك »(٥) وسئل مرة

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١/١٥٠ ، والبرهان للزركشى ١/١٧٣ ، والإشارة إليه فى تفسير القرطبى ١/١٥٤ .

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (١/١٥٤) عن أبى الليث السمرقندى ، وذكره الشهاب فى حاشيته ١/١٧٨ .

(٣) انظر : تفسير أبى السعود ١/١٦ وانظر مفاتيح الغيب ١/١٥٠

(٤) انظر : تفسير أبى السعود ١/١٦ وانظر مفاتيح الغيب ١/١٥١

(٥) أخرجه الإمام السيوطى فى الدر المنثور (١/٢٣) عن ابن المنذر بسنده عن داود بن أبى هند .

أخرى عنها فقال «سر الله فلا تطلبوه»(١).

(و) وما روى عن الإمام محمد بن الحنفية ـ رضى الله تعالى عنه ـ إذ سئل عن «كهيعص» فقال للسائل : «لو أخبرت بتفسيرها لمشيت على الماء لايوارى قدمياك»(٢) !!

(ز) ومما يعزز هذا الاتجاه : مارواه الإمام الفخر ـ فى تفسيره ـ عن بعض العارفين قائلا : «وقال بعض العارفين(٣) : العلم بمنزلة البحر : فأجرى منه واد، ثم أجرى من الوادى نهر، ثم أجرى من النهر جدول، ثم أجرى من الجدول ساقية.

فلو أجرى إلى الجدول ذلك الوادى : لغرقه وأفسده، ولو سال البحر إلى الوادى لأفسده، وهو المراد من قوله تعالى : «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها»(٤)، فبحور العلم عند الله تعالى، فأعطى الرسل منها أودية، ثم أعطت الرسل من أوديتهم أنهارا إلى العلماء، ثم أعطت العلماء إلى العامة جداول صغارا على قدر طاقتهم، ثم أجرت العامة سواقى إلى أهاليهم بقدر طاقتهم.

وعلى هذا : ما روى فى الخبر : «للعلماء سر، وللخلفاء سر، وللأنبياء سر،

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١٥١/١

(٢) انظر البحر المحيط لأبى حيان ٣٥/١

(٣) يؤكد إصدار الإمام فخر الدين الرازى رضى الله عنه ـ ههنا ـ عن بعض العارفين : نزعته الصوفية وتفسيره الكبير حافل بأمثال تلك النقول الدالة على أن السادة الصوفية هم بحار العلوم اللدنية ومصاب الفيض الإلهى، وهذا يرهق إدعاء المبطلين الزاعمين أن التصوف دخيل على مبادىء الإسلام وعلومه.

(٤) سورة الرعد / ١٧

وللملائكة سر، ولله — من بعد ذلك كله — سر . فلو أطلع الجهال على سر العلماء : لأبادوهم ، ولو اطلع العلماء على سر الخلفاء : لنابذوهم ، ولو أطلع الخلفاء على سر الأنبياء : لخالفوهم ، ولو أطلع الأنبياء على سر الملائكة : لاتهموهم(١) ، ولو أطلع الملائكة على سر الله تعالى : لطاحوا حائرين ، وبادوا بائرين .

والسبب فى ذلك : أن العقول الضعيفة لاتحتمل الأسرار القوية ، كما لا يحتمل نور الشمس أبصار الخفافيش ، فلما زيدت الأنبياء فى عقولهم : قدروا على احتمال أسرار النبوة ، ولما زيدت العلماء فى عقولهم : قدروا على احتمال أسرار ما عجزت العامة عنه .

وكذلك : علماء الباطن — وهم الحكماء — زيد فى عقولهم ، فقدروا على احتمال ما عجزت عنه علماء الظاهر ».(٢) .

ومن ذلك كله يتضح : أن مذهب أكثر السلف الصالح - رضوان الله عليهم - فى هذه الفواتح المقطعة فى أوائل السور : أنها من قبيل المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه .

بيد أنه قد وقع التشابه لدى العلماء فى مدلول هذا الاستئثار : ففريق من العلماء يرى : أن هذه الفواتح لا يعلم مدلولاتها أحد غير الله تعالى على الإطلاق .

---

(١) لا يؤخذ من ذلك : تفضيل الملائكة على الأنبياء ، فإن المزية لا تقتضى الأفضلية ، وليس من المحال أن يكون لدى المفضول سر لايعلمه الأفضل ، بدليل قول الكليم للخضر - عليهما السلام — « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » ؟؟ سورة الكهف / ٦٦ والكليم أفضل من الخضر يقين .

(٢) أنظر : تفسير الإمام الفخر (مفاتيح الغيب) ١/١٥٠ — ١٥١

ومن ثم : يكون الاستئثار بعلمها مطلقا ، وإلى هذا جنح كثرة من العلماء . وقد نقل القرطبي هذا الاتجاه عن أبي بكر الأنباري الذي روى بسنده عن الربيع ابن خيثم(١) أنه قال : « إن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، فاستأثر منه بعلم ماشاء ، وأطلعكم على ما شاء : فأما ما استأثر به لنفسه : فلستم بنائليه ، فلاتسألوا عنه ، وأما الذي أطلعكم عليه : فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون » .

قال أبو بكر(٢) : فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم ، اختيارا من الله عز وجل . فمن آمن بها : أثيب وسعد ، ومن كفر وشك: أثم وبعد(٣) . اهـ

وكذلك مال أبو حيان — في البحر — إلى هذا الرأي الذي يرى أصحابه أن هذه الحروف قد انفرد الحق تعالى بالوقوف على مدلولاتها ، ونقله عن طائفة من السلف وغيرهم فقال : « والذي أذهب إليه : أن هذه الحروف التي في فواتح السور : هو المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وسائر كلامه محكم ، وإلى هذا ذهب أبو محمد : علي بن أحمد اليزيدي وهو قول الشعبي ، والثوري ، وجماعة من المحدثين . قالوا : هي سر الله في القرآن ، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه،

---

(١) هو تابعي جليل من أئمة القراء روى القراءة عن الإمام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقال له الإمام ابن مسعود يوما (لو رآك محمد ﷺ لأحبك وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين) انظر طبقات ابن الجزري ص ٢٨٣ .

(٢) المراد : أبو بكر الأنباري (محمد بن القاسم) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ أحد أئمة علوم اللغة والتفسير : أنظر معجم المؤلفين ١٤٣/٦ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي : ١٥٤/١ .

ولا يجب أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ، وتمر كما جاءت »(١) .

وثمة فريق آخر من العلماء يرى : أن هذه الفواتح المتشابهات : سر استأثر الحق تعالى بعلمه لنفسه ولمن اصطفى من خاصة عباده دون عامتهم ، ومن ثم : يكون الاستئثار بعلم أسرار الفواتح نسبياً لا مطلقاً ، وهذا الاتجاه هو مرتضى الكثير من السلف والمحققين .

وقد نقل العلامة البيضاوى هذا المتجه فى تفسيره ، إذا قال : « وقيل إنه — أى معنى الفواتح المقطعة — سر استأثر(٢) الله بعلمه ، وقد روى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه . ولعلهم أرادوا (٣) : أنها أسرار

---

(١) انظر البحر المحيط ٣٥/١ وانظر هذا الاتجاه للشعبى والثورى وجماعة من المحدثين فى تفسير ابن عطية (ت سنة ٥٤١ هـ) ١٣٨/١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

(٢) ذكر العلامة الشهاب فى حاشيته على البيضاوى فى هذا الموضع (١٧٨/١) أنه قد وقع فى بعض النسخ : (استأثره الله بعلمه) بتعديته الضمير ، وذكر أنه حل (استأثره) على : خصه ، فعداه تعديته ، والضمير : الرسول ﷺ ، والباء داخلة على المقصور . وقيل : إنه يقال آثره الله بكذا أى : أكرمه ، وهذا استفعال منه ، والضمير للرسول ﷺ أيضاً ، أى أكرمه بعلمه دون غيره ، وهذا القول ارتضاه كثير من السلف والمحققين . ا هـ .

(٣) ذكر الشهاب أن ضمير (أرادوا) : الخلفاء ، أو : لهم والذاهبين إلى هذا القول — ثم قال — « وإنما أول بما ذكر : اقتداء بالإمام ، وانتصاراً لمذهب الشافعى رضى الله عنه فى المتشابه وأن الله والراسخين يعلمونه — كما سيأتى تحقيقه فى « آل عمران » — والذى اختص الله تعالى به من علم الغيب : هو =

بين الله تعالى ورسوله ، ورموز لم يقصد بهـا إفهام غيره ، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد ، اهـ .

ولو استعرضنا ما مر بنا من أقوال أئمة السلف من الخلفاء الراشدين وغيرهم رضوان الله عليهم — لوجدناها لا تتعارض مع هذا الاتجاه الأخير القائل بتسمية الاستئثار وأن لخاصة الله تعالى إطلاع على أسرار هذه الفواتح ، فقول الإمام الصديق الأكبر — رضى الله تعالى عنه ، لله فى كل كتاب سر ، وسره فى القرآن أوائل السور ، لم يقصر العلم بهذه الأوائل على الحق تعالى ، غاية ما هنالك أنها أسرار ، ويؤثر عن العارفين أنهم قالوا : « صدور الأحرار قبور الأسرار »!!

كذلك قول سادتنا : عمر وعثمان وابن مسعود — رضى الله عنهم — إن « الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر » يوحى بالعلم بأسرارها مع كتمان هذه الأسرار ، وأن هذا العلم ليس مقصوراً على الحق تعالى : إذ لا يستعمل لفظ الكتمان — عادة — مسندا إليه تعالى .

وكذلك قول حبر الأمة — رضى الله عنه — « عجزت العلماء عن إدراكها » ينصرف إلى علماء الظاهر الذين لا تقوى عقولهم على احتمال تلك الأسرار ، وذلك ما أفصح عنه الإمام الفخر — فيما أوردناه عنه — من قوله : « فلما زيد فى الأنبياء فى عقولهم : قدروا على احتمال أسرار النبوة ، ولما زيدت العلماء فى عقولهم : قدروا على احتمال أسرار ما عجزت العامة عنه ، وكذلك علماء الباطن — وهم الحكماء — زيد فى عقولهم فقدروا على احتمال ما عجزت عنه علماء الظاهر » اهـ .

= عليه تفصيلا ذاتا وزمانا من غير واسطة أصلا : فلا ينافيه علم بعض الأولياء والأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — له بواسطة ذلك أو إلهام من الله ، اهـ — انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ١٧٨/١

وناهيك بقول الإمام محمد بن الحنفية — عليه رضوان الله — على إثر سؤاله عن « كهيعص » : « لو أخبرت بتفسيرها : لمشيت على الماء لا يوارى قدميك » دليلا على علمه بمعناها ! !

إنه سر الله تعالى المودع فى كلامه العزيز وهو مضنون به على غير أهله . والقول ما قاله شيخنا الألوسى — قدس الله سره — فى هذا المقام عن سر الفواتح : « فلا يعرفه بعد رسول الله ﷺ إلا الأولياء الورثة ، فهم يعرفونه من تلك الحضرة .

وقد تنطق لهم الحروف عما فيها كما كانت تنطق لمن سبح بكفه الحصى وكلمه الضب والظبى ﷺ كما صح ذلك من رواية أجدادنا أهل البيت رضى الله عنهم .

بل متى ذاق العبد ثمرة شجرة قرب النوافل : علمها وغيرها بعلم الله الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء »(١) .

ويؤيد ذلك : ما رواه الديلمى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به : لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل »(٢) .

بهذه الدلائل الساطعة المشعة بأنوار الحقيقة — وبالإضافة لما سقناه من حكمة ورود المتشابه فى بابه : — لا يبقى مجال للاحتجاج على اعتبار الحروف المقطعة أوائل السور من قبيل المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه — استئثاراً مطلقاً أو نسبياً — بزعم أن فى إرادها كذلك يتنافى مع كون القرآن كله هدى وبيانا ومتحدى به وذلك لا يتحقق إلا بالوقوف على معانيه .

---

(١) أنظر تفسير (روح المعانى) للإمام الألوسى ١/١٠٠ .

(٢) أنظر تخريجه فى الجامع الكبير للإمام السيوطى ١/ ٢٧٠ .

فإنه الكاف فى كونه هدى وبيانا متحدى به ومعجزا : أن يطلع الناس على بعض منه ، بل يكنى فى البعض منه أن يطلع عليه البعض(١) !! وهل المتشابه بأسره إلا القليل الذى عبر عنه التنزيل بقوله : « وأخر متشابهات » بينما قضى المحكمات بأنهن « أم الكتاب » ؟ ؟ .

الاتجاه الثانى للعلماء فى بيان معانى الحروف المقطعة : ـ

وهو مذهب كثير من السلف والخلف وأهل العربية ، وقد عزاه ابن عطية وأبو حيان إلى الجمهور كما عزاه القرطبى إلى جمع من العلماء كبير .

وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن المراد من هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور معلوم غير مستأثر به ، ونص عبارة ابن عطية التى نقلها ورددها فى تفسيره كل من أبى حيان والقرطبى : « وقال الجمهور من العلماء : بل يجب أن نتكلم فيها ـ أى الحروف المقطعة ـ ونلتمس الفوائد التى تحتها والمعانى التى تتخرج عليها(٢) .

وقد سلك جمهور العلماء هذا الاتجاه بحشد من الوجوه والآراء الحافلة بالثراء العلمى فى جانبى المعقول والمنقول بما يحقق عظيم الإفادة لمبتغى الوقوف على شىء من هداية هذه الفواتح ، والتعرف على مدلولاتها ، وحكمة إيرادها ، ورفع أستار الإبهام عن المراد منها .

---

(١) من محاضرات فى التفسير أملاها علينا أستاذنا الشيخ محمد على أحمدين رحمه الله ورضى عنه .

(٢) أنظر تفسير (المحرر الوجيز) لابن عطية ١٣٨/١ ، و (البحر المحيط) لأبى حيان ٣٥/١ و (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى ١٥٥/١ وفيه بدلا من « وقال الجمهور » عبارة « وقال جمع من العلماء كبير » وساق باقى العبارة بنصها .

وفيما يلي أبرز ما أدلى به جمهور العلماء من وجوه المعاني لتلك الفواتح :

« الوجه الأول » أن هذه الحروف الفواتح أسماء لله تعالى افتتح بها بعض سور كتابه الكريم . قال بذلك : الإمام ابن عباس رضي الله عنهما ، كما أثر عن سيدنا علي كرم الله وجهه والإمام ابن مسعود والشعبي من الأقوال ما يفيد ذلك .

فلقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي ـ في الأسماء والصفات ـ عن الامام ابن عباس رضي الله عنهما ـ بسند صحيح ـ أنه قال في قوله تعالى : (الم) و (المص) و (الر) و (المر) و (كهيعص) و (طه) و (طسم) و (حسن) و (يس) و (ص) و (حم) و (ق) و (ن) قال « هو أقسمه الله ، وهو من أسماء الله » .

وأخرج ابن مردوية عن حبر الأمة أيضا أنه قال : « فواتح السور أسماء من أسماء الله »(١) .

كما يدل على هذا الوجه أيضا : ما روى عن سيدنا علي كرم الله وجهه من أنه كان يقول : « يا » كهيعص « يا » حمعسق «(٢) .

وأخرج ابن جريج كذلك . عن الامام ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ في قوله تعالى « الم » أنه قال : « هو اسم الله الأعظم »(٣) .

---

(١) أنظر : الدر المنثور ٢٢/١ .

(٢) ذكره البيضاوي وخرجه الشهاب ـ في حاشيته (١٧٧/١) ـ عن ابن ماجة في تفسيره من طريق نافع بن أبي نعيم القارىء عن السيدة فاطمة بنت سيدنا علي بن أبي طالب أنها سمعته يقول « يا كهيعص أغفرلي » وقد ذكره الامام الفخر أيضاً في تفسيره : ١٥٢/١

(٣) أنظر الدر المنثور ٢٢/١

كذلك روى الإمام الطبرى بسنده عن الشعبى أنه قال : « فواتح السور من أسماء الله »(١) ، ومن ثم يعلم : أن هذه الأسماء إما مقسم بها وإما منادى بها والمعنى هنا كما قدره الشهاب فى حاشيته : يا « الم » وما بعده مستأنف .

وقد تعقب القاضى البيضاوى هذا الوجه بتأويل ما ورد من الآثار مثبتا له ، كتعقبه لقول سيدنا على كرم الله وجهه « يا كهيعص ، يا حمعسق » بتقدير مضاف إذ قال : « ولعله أراد : يا منزلهما » وقد علل الشهاب هذا التأويل بعدم ظهور معنى مناسب لهـــذين الإسمين كسائر أسمائه وبأن أسماءه تعالى توقيفية(٢) .

وردنا على ذلك : أن عدم ظهور المعنى لا يقدح فى إثبات الاسم له تعالى فليس ثمة ما يحصر أسماءه سبحانه فيما علم لنا منها ، ثم إن ورود تلك الآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم : هو التوقيف بعينه ، فإن الصحابة لم يدلوا بتلك الأقوال باجتهادهم ، إذ لا مدخل للاجتهاد فيما يتوقف فى معرفته على النقل من الوحى المعصوم .

« الوجه الثانى » : أنها أبعاض أسماء الله تعالى ، بعضها يعلم كيفية تركيبه منها وبعضها لا يعلم ، ويدل لهذا الوجه (أولا) : ما أخرجه الحافظ السيوطى - من طريق عكرمة - عن الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : « الر وحم و ن » حروف الرحمن مفرقة(٣) .

---

(١) جامع البيان ٨٧/١

(٢) انظر حاشية الشهاب ١٧٧ - ١٧٨

(٣) انظر : الاتقان ٢١/٢

ونقل الفخر وأبو حيان عن الإمام سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : « قوله : الر حم ن : مجموعها هو اسم الرحمن ولكنا لا نقدر على كيفية تركيبها في الباقي (١) .

ثم يمثل لذلك (ثانيا) : ما أخرجه ابن شيبة ـ في تفسيره ـ وابن المنذر وغيره عن عامر الشعبي أنه سئل عن فواتح السور نحو : « الم » و « الر » قال : هي أسماء من أسماء الله مقطعة الهجاء فإذا وصلتها كانت اسما من أسماء الله »(٢) .

وأخرج ابن جريج وابن أبي حاتم عن الإمام ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال في قوله « الم » ، و « حم » و « طس » : هي اسم الله الأعظم(٣) .

كذلك روى الأئمة ابن عطية والقرطبي وأبو حيان في تفاسيرهم عن سيدنا على وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالا : « الحروف المقطعة في القرآن : هي اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف كيفية تأليفه منها »(٤) .

« الوجه الثالث » : أن هذه الحروف مفاتيح لأسمائه تعالى وصفاته الحسنى ، فكل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه عز وجل أوصفة من صفاته .

فقد أخرج الإمام السيوطي عن ابن حميد عن الربيع بن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في قوله تعالى « الم » : « الف : مفتاح اسمه : (الله) ولام : مفتاح

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١٥٢/١ والبحر المحيط ٣٤/١

(٢) انظر : الدر المنثور ٢٢/١

(٣) نفس المصدر .

(٤) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١٣٨/١ والجامع لاحكام القرآن للقرطبي ١٥٥/١ والبحر المحيط لأبي حيان ٣٥/١

اسمه : (لطيف) ، و ميم : مفتاح اسمه : (مجيد) »(١) - وقال - « فالألف : آلاء الله ، واللام : لطف الله ، والميم : مجد الله »(٢) .

وقد ذكر الإمام الفخر هذا الوجه منقسما فى الوجهين - الخامس والسابع - حسب تصنيفه وعده للوجوه ، لكن باعتبار مطلق الدلالة لكل حرف من الفواتح على اسم أو أكثر أو صفة من صفات الذات أو الأفعال لله تعالى : لا باعتبار كونها مفاتيح يفتتح بكل حرف منها اسم أو صفة لله تعالى .

ففى الوجه الخامس قال : « إن كل واحد منها دال على اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته ، قال ابن عباس رضى الله عنهما فى (الم) : « الألف : إشارة إلى أنه تعالى : أحد ، أول ، آخر ، أزلى ، أبدى . واللام : إشارة إلى أنه لطيف ، والميم : إشارة إلى أنه ملك ، مجيد ، منان .

وقال فى « كهيعص » : إنه ثناء من الله تعالى على نفسه ، « الكاف : يدل على كونه كافيا ، والهاء : يدل على كونه هاديا ، والعين : يدل على العالم ، والصاد : على الصادق . وذكر ابن جرير عن ابن عباس : أنه حمل الكاف : على الكبير والكريم ، والياء : على أنه مجير ، والعين : على العزيز والعدل »(٣) .

ثم استدرك الفخر أنه قد تناول فى هذا الوجه : وجهين للإمام ابن عباس رضى الله عنهما ، فى تفسير (كهيعص) فى أحدهما إطلاق وفى الآخر تقييد فى الدلالة ، ففرق بينهما قائلا : « والفرق بين هذين الوجهين : أنه فى الأول : خصص كل واحد من هذه الحروف باسم معين ، وفى الثانى : ليس كذلك »(٤) .

---

(١) انظر : الدر المنثور ٢٣/١

(٢) انظر : الدر المنثور ٢٣/١

(٣ ، ٤) انظر : مفاتح الغيب ١٥٢/١

ثم قال في الوجه السابع — حسب تصنيفه —: «كل واحد منها — أي من حروف الفواتح — يدل على صفات الأفعال، فالألف: آلاؤه، واللام: لطفه، والميم: مجده.

قال محمد بن كعب القرظي، وقال الربيع بن أنس: ما منها حرف إلا في ذكر آلائه ونعمه»(١).

• الوجه الرابع •: أنها حروف يدل بعضها على أسماء الذات، وبعضها على أسماء الصفات أو الأفعال، فقد روى عن الإمام ابن عباس — رضي الله عنهما أنه قال في تفسير (ألم): «أنا الله أعلم»(٢).

كما روى عنه أنه قال في قوله تعالى «الر»: أنا الله أرى(٣).

وفي قوله تعالى: «المص»: أنا الله أفصل(٤). اهـ

فالألف في (ألم) تؤدى عن معنى (أنا) واللام عن اسم الله والميم: تؤدى عن معنى أعلم.

• الوجه الخامس •: أنها حروف يدل بعضها على أسماء الله تعالى، وبعضها يدل على أسماء غير الله، ويستند هذا الوجه إلى ما روى عن الإمام ابن عباس

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١/١٥٢

(٢) أخرجه الطبري عن الإمام ابن عباس — رضي الله عنهما — من طريق أبي الضحى في رواية، وفي أخرى: من طريق سعيد ابن جبير. انظر جامع البيان ١/٨٨ وانظر الاتقان ٢/٢١

(٣)، (٤) أخرجه الإمام السيوطي عن أبي حاتم وغيره من طريق أبي الضحى. انظر: الاتقان ٢/٢١ ومفاتيح الغيب ١/١٥٢ وتفسير القرطبي ١/١٥٥

والضحاك ــ رضي الله عنهما ــ من قولهما في تفسير « الم » : الألف من « الله » واللام من « جبريل » والميم من « محمد » أي : أنزل الله الكتاب على لسان جبريل إلى محمد ﷺ (١) .

هذا : وترجع الوجوه الثلاثة الأخيرة إلى ما هو معهود في لغة الضاد من الإكتفاء ببعض الكلمة عن كلها ، فهو معهود في العربية .

ومن ثم : اختار أبو إسحق الزجاج أن هذه الحروف المقطعة دالة على كلمات أخذت منها وحذفت بقيتها .

وقد نقل القرطبي هذا الاختيار فقال : « واختار هذا القول : الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التي الحروف منها كقوله :

﴿ فقلت لها قفي فقالت قاف ﴾ (٢) :

أراد : قالت : وقفت ، وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شرا فشر ، وأراد : إلا أن تشاء ، وقال آخر : ــ

نادوهم ألا الجموا ألاتا قالوا جميعاً كلهم ألافا

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ١/١٤٠ ومفاتيح الغيب ١/١٥٧ والجامع لأحكام القرآن ١/١٥٥

(٢) هذا الرجز للوليد بن عقبة ، وبعده : لاتحسبي أنا نسينا الإيجاف . والبيت في الأغاني ٥/١٣١ وأورده الطبري في تفسيره : ١/٩٠ وصدره فيه : (فقلت لها قفي قالت أنا قاف)

أراد : ألا تركبون ؟؟ قالوا : ألا فاركبوا(١) اهـ

ونقل ذلك صاحب (الاتقان) ثم قال : « وهذا القول اختاره الزجاج وقال : العرب تنطق بالحرف الواحد تدل به على الكلمة التى هو منها »(٢) .

« الوجه السادس » : أن هذه الحروف الفواتح أسماء للقرآن الكريم ، وهذا الوجه مروى عن الأئمة : مجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، والكلبي ، والسدى وغيرهم .

فقد أخرج ابن جرير بإسناده عن كل من الثلاثة الأول أنه قال : « الم : اسم من أسماء القرآن »(٣) وعزاه الفخر إلى قتادة والكلبي والسدى(٤) .

كما أخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة قوله : « كل هجاء فى القرآن فهو اسم من أسماء القرآن »(٥) .

من ثم : يكون « الم » و « ص » و « ق » : كلها أسماء للقرآن الكريم مثل الفرقان والذكر والتنزيل(٦) .

وحينما نقول : إن هذه الفواتح أسماء للقرآن ، فإن المراد بالقرآن حينئذ : مجموعه وليس القدر المشترك، وبهذا يندفع الاعتراض المترتب على إرادة الأخير،

---

(١) انظر تفسير القرطبى ١/١٥٥ — ١٥٦

(٢) انظر الاتقان ٣/٢٤

(٣) انظر جامع البيان ١/٨٧

(٤) انظر مفاتيح الغيب ١/١٥٢

(٥) انظر الاتقان ٣/٢٥

(٦) انظر المحرر الوجيز ١/١٢٩ والمصدر السابق

بأن فيه اتحاد الاسم والمسمى . كذلك : يندفع الاعتراض على هذا الوجه لما فيه من تعدد الاسم بتعدد تلك الفواتح : بأن تعدد الاسم دليل على شرف المسمى(١) .

وبعد دفع هذين الاعتراضين : يترجح هذا الوجه وتتأكد صحته : لاعتماده على تلك النقول الواردة عن السلف ، ومن ثم قيل : ان هذا الوجه أرجح مما ذكر الفخر أنه قول أكثر المتكلمين وأنه المختار عند أكثر المحققين(٢) : من كونها أسماء للسور ، لعدم نقل الأخير عن أحد من السلف(٣) . ولعله أراد بالسلف كبار الصحابة أو لم يبلغه نقله عن بعض التابعين كما سيأتي بيانه ، ثم يترجح كون هذه الفواتح أسماء للقرآن الكريم : بأنه قد أخبر عنها بالكتاب فقال عز من قائل « الم . ذلك الكتاب .. »(٤) ، « الر . كتاب أحكمت آياته .. »(٥) فإن المتبادر من ذكر الكتاب : إرادة جميعه ، وأنه عين المبتدأ ، وإن احتمل خلافه(٦) .

« الوجه السابع » : أن هذه الحروف الفواتح أسماء للسور المصدرة بها ،

---

(١) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ١/١٧٧

(٢) انظر مفاتيح الغيب ١/١٥٢ ، ١٥٤

(٣) انظر حاشية الشهاب ١/١٧٧ وقد جاء فعل القول فيه مبنيا للمجهول فلم يعين القائل .

(٤) سورة البقرة : ١ — ٢

(٥) سورة (هود) / ١

(٦) انظر حاشية الشهاب ١/١٧٧

وقد أخرج ابن جرير هذا الوجه عن زيد بن أسلم(١) ونسبه الزمخشري إلى أكثر العلماء . كما عزاه الفخر إلى أكثر المتكلمين — ومراده المتكلمين في التفسير كما وضحه الشهاب — وذكر الفخر أنه مختار الخليل وسيبويه ، ثم ذكر أن هذا الوجه هو المختار عند أكثر المحققين(٢)

وقد بين البيضاوي وجه تسمية السور بهذه الحروف فقال : «سميت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب ، فلو لم تكن وحيا من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها ، ومن ثم يكون في التسمية بهـــا إيماء إلى الاعجاز والتحدي على سبيل الإيقاظ ، فلولا أنه وحي من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ، وهذا التوجيه سار على كونها أسماء للقرآن أيضاً(٣) .

وقد احتج القفال لصحة هذا الوجه بأنه جار على مألوف العرب في كلامهم ، فقد سمت العرب بهذه الحروف أشياء : فسمت بلام : والد حارثة بن لام الطائي . وقالوا للنحاس «صاد» . وللنقد : «عين» ، وللسحاب : «غين» ، كما قالوا : جبل «قاف» ، وسموا الحوت نونا(٤) وقد ساق العلماء عدة اعتراضات على هذا الوجه : —

أحدها : أن سورا كثيرة سميت بألم وحم مما أوقع في الاشتباه بهذا الاشتراك

---

(١) انظر جامع البيان ٨٧/١

(٢) انظر الكشاف ٨٣/١ مفاتيح الغيب ١٥٢/١ ، ١٥٤ وحاشيـــة الشهاب ١٦٩/١ والاتقان ٢٥/٣

(٣) انظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ١٦٩/١ ومفاتيح الغيب ١٥٢/١ وتفسير أبي السعود ١٦/١

(٤) انظر مفاتيح الغيب ١٥٢/١

بينما المقصود من التسمية بالعلم إزالة الاشتباه ، فلم يحصل هذا المقصود من التسمية بهذه الحروف .

وقد أجيب : بأن المقصود من التسمية — وهو رفع الاشتباه — حاصل بتمييز كل اسم منها بعلامة أخرى كأن يقال (هذه الم ذلك الكتاب) وتلك : (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ، ثم إن هذا الاشتراك حاصل فى أكثر الأعلام فثمة آلاف يتسمون محمد ولم ينافِ الاشتراك فيه العلمية ، ولا يبعد أن يوجد مع هذا الاشتراك فى الاسم حكمة أخرى خفية .

وثانيها : أنها لو كانت أسماء لوردت ولاشتهرت السور بها ولبلغ ذلك مبلغ التواتر لتوفر الدواعى على نقلها لكونها ليست على قوانين أسماء العرب .

وأجيب عنه : بأن ورودها حاصل بنحو ما ورد عنه ﷺ من قوله : « يس قلب القرآن »(١) و « من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة غفر له »(٢) وإذا ثبت فى البعض ثبت فى الجميع إذ لا فارق مع أن شهرة أحد العلمين لا تضر علمية الآخر .

ثم إن تسمية السورة باسم معين ليس مما يعلم من الدين بالضرورة حتى يطالب بلوغ شهرته حد التواتر(٣) .

---

(١) من حديث شريف خرجه الحافظ السيوطى عن الإمام أحمد والطبرانى بسند صحيح فى الدر المنثور ١/٢٠

(٢) رواه النسائى عن أبى هريرة وخرجه الإمام النبهانى فى الفتح الكبير ٣/٣٢٦ ورواه الترمذى فى كتاب الفضائل من سننه ٥/١٦٣

(٣) انظر : مفاتيح الغيب ١/١٥٥ وروح المعانى ١/١٠٠.

وثالثاً : إن التسمية بمجموع ثلاثة أسماء أو أربعة أو خمسة خروج عن مألوف العرب فى كلامهم ، إذ لم يتجاوز مجموع ماسموا به اسمين كبعلبك .

وأجيب : بأن التسمية بثلاثة أسماء إنما تمتنع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً أما إذا نثر نثر الأعداد فذلك جائز ، لنص سيبويه على جواز التسمية بالجملة والبيت من الشعر والتسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم(١) .

ورابعاً : أن التسمية بهذه الحروف يؤدى إلى اتحاد الاسم والمسمى . حيث يكون الاسم هنا جزءاً من الكل - وهو السورة - ولا مغايرة بين الجزء والكل .

وأجيب : بأن التسمية بهذه الحروف لاتصير الاسم والمسمى واحداً ، لأنها تسمية مؤلف بمفرد والمؤلف غير المفرد ، ثم إن مغايرة الكل لجزئه لا تستلزم مغايرته لكل جزء منه(٢) .

وخامساً : أن هذه الحروف - باعتبارها جزءاً من السورة - متقدمة عليها لأن جزء الشيء متقدم على كله بالرتبة ، وباعتبارها اسماً للسورة متأخرة عنها لأن الاسم متأخر عن المسمى فيلزم من ذلك تقدم هذه الحروف وتأخرها معاً وهو محال .

وأجيب : بأن تقدمها باعتبارها جزءاً إنما هو لذاتها وتأخرها باعتبارها اسماً إنما هو بحسب وصفها وتأخر ما هو متقدم باعتبار آخر غير مستحيل(٣) .

« الوجه الثامن » : أن هذه الحروف الفواتح قد وردت مسرورة على نمط التعديد : للدلالة على إعجاز القرآن الكريم ، ولإقامة الحجة على العرب ، وذلك :

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١/١٥٥ وروح المعانى ١/١٠٠

(٢) انظر حاشية الشهاب ١/١٧٦

(٣) انظر روح المعانى ١/١٠٠

أولا : بالإيقاظ والتنبيه لمن تحدى بالقرآن على أن هذا المتلو عليهم : كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم — وهو حروف المعجم — فلولا أنه خارج عن طوق البشر ، نازل من عند خلاق القوى والقدر : لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم عن الاتيان بمثله . فلما عجزوا عن معارضته — بمثل أقصر سورة منه — دل ذلك على أنه من عند الله تعالى ، لا من البشر(١) .

وثانياً : بالتنبيه على أنها : — لاستقلالها بوجه من الإغراب فى الافتتاح : من حيث صدورها منطوقاً بأسمائها من النبى الأمى الذى لم يخالط أحداً عن قرأ وخط — : تقدمة من دلائل الاعجاز ، وإشارة إلى تمكنه بما يعد منه معجزاً(٢) .

وقد اعتد الزمخشرى كلا من شطرى هذا الوجه : وجها مستقلا(٣) .

وتبعه البيضاوى فى صنيعه ، وتعقبه الشهاب بقوله : « وما ذكر من الوجهين يشتركان فى الإشارة إلى إمارة الاعجاز ، ويفترقان بأن الأول : بالنظر إلى حال الكلام المنزل ، والثانى : بالنظر إلى حال المتكلم به »(٤) .

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشرى ٩٥/١ ومفاتيح الغيب للفخر الرازى ١٥٣/١

(٢) انظر حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف ٩٩/١ — ١٠٠ وانظر حاشية الشهاب ١٦١/١

(٣) ذكر الزمخشرى فى معانى هذه الفواتح وجوها ثلاثة : أولها : أنها أسماء السور وثانيها أنها أسماء حروف وردت للإيقاظ .. وثالثها : أنها مقدمة لدلائل الاعجاز . انظر الكشاف ٨٢/١

(٤) انظر حاشية الشهاب ١٥٩/١

كذلك أتى الإمام الفخر بالشطر الأول من هذا الوجه وجهاً مستقلاً وذكر أنه: قاله المبرد واختاره جمع عظيم من المحققين(١).

وثالثاً: ما نقله القرطبي عن قطرب من قوله: «كانوا ينفرون عند استماع القرآن، فلما سمعوا: «الم» و«المص»: استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم».

ثم أتبعه القرطبي بقوله: «وقال قوم: روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه»(٢) نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة»(٣).

«الوجه التاسع»: أنها حروف أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، ولأنها مبانى كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومبانى أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وأصول كلام الأمم، بها يتعارفون ويذكرون الله ويوحدونه.

وقد اقتصر في إيراده على ذكر بعض الحروف — وإن كان المراد هو الكل — من باب الإكتفاء بذكر الجزء عن الكل كما تقول: قرأت (الحمد)، وتريد السورة بالكلية، فكأنه تعالى قال: أقسم بهذه الحروف على أن هذا الكتاب هو ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١/١٥٣.

(٢) سورة فصلت/٢٦.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١/١٥٥.

وهذا القول للأخفش : عزاه إليه الفخر(١) . وأورده البيضاوى(٢) والزركشى(٣) .

« الوجه العاشر » : أنها حروف دالة على معرفة المدد والآجال وذلك بحساب (الجمل)(٤) فيكون إيراد هذه الفواتح للاشارة بها إلى مدة الملة أو الأمم أو الدنيا .

وهذا الوجه معزو إلى أبي العالية رضى الله عنه وأخذ به بعض العلماء كالسهيلى وغيره(٥) واستدل عليه بما أخرجه البخارى فى تاريخه والطبرى فى تفسيره بسنده عن الإمام ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — عن جابر بن عبد الله بن رباب قال :-

مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة « الم . ذلك الكتاب لاريب فيه ... » فأتى أخاه حيي بن أخطب فى رجال من يهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله عز وجل عليه :

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٥٣/١

(٢) انظر أنوار التنزيل بحاشيه الشهاب ١٧٢/١

(٣) انظر البرهان ١٧٢/١

(٤) حساب الجمل — بضم الجيم وفتح الميم مع التشديد أو التخفيف — هو حساب حروف المعجم ويعرف بحساب (أبي جاد) وهو كبير وصغير كما هو معروف عند أهله ، وقد نقل عن أبي منصور الجواليقى أنه عربى صحيح (انظر حاشية الشهاب ١٧٣/١) .

(٥) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١٣٩/١ وحاشية الشهاب ١٧٣/١ والاتقان ٢٦/٣ .

« الم . ذلك الكتاب .. » فقالوا : أنت سمعته ؟؛ قال : نعم! فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك : « الم . ذلك الكتاب .. » ؟؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : بلى . فقالوا : أجاءك جبريل بهذا من عند الله ؟؟ قال : نعم قالوا : لقد بعث الله ـ جل ثناؤه ـ قبلك أنبياء ، ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه ، ولا أجل أمته غيرك ، ـ فقال حيي بن أخطب ، وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة واللام ثلاثون ، والميم : أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، ـ قال ـ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم، قال : ماذا؟؟ قال : « المص » . قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام : ثلاثون ، والميم : أربعون ، والصاد : تسعون . فهذه مائة وإحدى وستون سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : « الر » . قال : هذه أثقل وأطول ، الألف : واحدة ، واللام : ثلاثون ، والراء : مائتان . فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة ، فقال : هل مع هذا غيره يا محمد ؟؟ قال : نعم « المر » ، قال : فهذه أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء : مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ، ثم قاموا عنه ، فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد : إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة ، ومائتان وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون ، فقالوا : لقد تشابه علينا أمره ، ويزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم : « وهو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. » (١)

---

(١) سورة آل عمران / ٧ .

وعلى الرغم من تعقب كثير من العلماء لهذا الوجه بالرفض ، كابن حجر الذى نقل فى « الاتقان » قوله : « وهذا باطل لا يعتمد عليه ، فقد ثبت عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ الزجر عن عد « أبى جاد » ، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر ، وليس ذلك ببعيد ، فإنه لا أصل له فى الشريعة »(١) وكذلك ابن كثير رفض هذا الوجه لضعف الحديث المروى فيه لكونه من طريق ابن السائب الكلبى من جهة ، ولاقتضاء هذا المسلك ـ من جهة أخرى ـ أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر مع تكرارها ، وهذا لم يكن ، وذلك ـ فى تقديره ـ لعدم صحته .

أقول : وعلى الرغم من ذلك فإن الرفض عندنا مستبعد طالما كان الوجه مرتضى عند أحد سادة التابعين كأبى العالية أو الربيع بن أنس ـ رضى الله عنهما(٢) وقد أيده الألوسى بما روى من أن سيدنا عليا كرم الله وجهه قد استخرج وقعة معاوية من (حمعسق) .

وقد ارتضى هذا الوجه بعض أئمة المفسرين كالإمام الطبرى والإمام الواحدى وغيرهما(٣) .

« الوجه الحادى عشر » : أن هذه الحروف أمارة كان الله قد جعلها الله لأهل الكتاب أنه ـ ينزل على رسوله سيدنا محمد ﷺ كتابا فى أول سور منه حروف مقطعة .

---

(١) أنظر الاتقان ٢٦/٣ .

(٢) نقل الطبرى فى تفسيره (٦٣/١ ط الحلبى) هذا الوجه عن الربيع بن أنس .

(٣) أنظر المصدر السابق وتفسير البسيط للإمام الواحدى (مخطوط بدار الكتب) ٤٨/١ .

وهذا الوجه قد نقله عن بعض العلماء كل من المفسرين : عبد الحق بن عطية وأبي حيان الأندلسي ، كما أثبته الحافظ السيوطي في (الاتقان)(١) .

« الوجه الثاني عشر » : أنها حروف مزيدة للتنبيه دالة على إنقطاع كلام واستئناف آخر ، كما يقال في أول الإنشاد لشهير القصائد : « بل » و « لا بل » ، ذكره الإمام الطبري والفخر وابن عطية (٢) .

وقد استق ابن عطية هذا الوجه مما روي عن الإمام مجاهد ـ رضي الله عنه ـ من قوله « هي فواتح السور »(٣) ثم قال : « ونحا هذا النحو : أبو عبيدة والأخفش » .

وقد استشهد الفخر لهذا الوجه بما نقله عن أحمد بن يحيى ـ المعروف بثعلب ـ من قوله : « إن العرب إذا استأنفت كلاما فمن شأنهم أن يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه فيجعلونه تنبيهاً للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد »(٤) .

كذلك أثبت البيضاوي هذا الوجه وعزاه إلى قطرب(٥) ، وتعقبه الشهاب

---

(١) أنظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/١٢٩ والبحر المحيط ١/٣٤ . والاتقان ٣/٢٨ .

(٢) أنظر : جامع البيان ١/٨٩ — ٩٠ ، مفاتيح الغيب ١/١٥٣ ، المحرر الوجيز ١/١٣٩ .

(٣) أنظر المصدر السابق ، ثم أنظر ـ لتأصيل هذه الرواية ـ أربع روايات متناظرة في تفسير الطبري ١/٨٧ .

(٤) أنظر مفاتيح الغيب ١/١٥٢ .

(٥) هو عالم العربية الكبير محمد بن المستنير تلميذ سيبويه الذي لقبه بقطرب لما كان يبكر إليه فيقول له ما أنت إلا قطرب ليل . والقطرب : اسم دويبة لا تزال تمشي ليلا وتسكن نهارا . أنظر حاشية الشهاب ١/١٧١ .

بأنه لم يعهد الاستئناف فى لغة العرب بمثل هذه الحروف ، وبأن البسملة مغنية عنه مع أنه لا يتأتى على القول بأنها آية من كل سورة(١) .

« الوجه الثالث عشر » : ذكره الإمام فخر الدين الرازى - رضى الله تعالى عنه - فقال : -

« الألف : إشارة إلى مالا بد منه من الاستقامة فى أول الأمر ، وهو رعاية الشريعة ، قال تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا »(٢) .

واللام : إشارة إلى الإنحناء الحاصل عند المجاهدات ، وهو رعاية الطريقة : قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ... » (٣) .

والميم : إشارة إلى أن يصير العبد فى مقام المحبة : كالدائرة التى تكون نهايتها عين بدايتها ، وبدايتها عين نهايتها ، وذلك : إنما يكون بالفناء فى الله تعالى بالكلية وهو مقام الحقيقة ، قال تعالى : «قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون »(٤) اه (٥)

تلك أبرز ما وقفنا عليه من وجوه معانى الحروف الفواتح عند أهل الأثر والرواية ولدى أهل الرأى والدراية ، وهى كما تراءى لنا - حافلة بالإفادة والإجادة ، وإن كانت أقوال أئمة السلف - الواردة فيما سلف - قد حازت الحسنى وزيادة ، بما أبانت عنه بما يليق بجلال معانى كلمات الله ، ولم لا وهم أعرف الأمة بالله تبارك وتعالى .

---

(١) أنظر المصدر السابق .

(٢) سورة فصلت / ٣٠ (٣) سورة العنكبوت / ٦٩

(٤) سورة الأنعام / ٩١ .

(٥) أنظر مفاتيح الغيب للإمام الرازى ١/١٥٤ ط : الحسينية ، وأنظر روح المعانى ١/١٠٢ .

ولو طرح أمامنا السؤال الخامس : أى هذه الأقوال جميعاً أرجح ؟؟ وأى هاتيك الوجوه أصح ؟؟

لكان الجواب : أنا لا نقدم على قول السلف قولا ، لما قدمنا ، بيدأن أقوال السلف فى هذا المقام تحتاج إلى تبصر بمراميها ، وإمعان بصر القلب فيها ، فإنها قد دلت على أن المراد بهذه الحروف الفواتح إنما هو سر الله تعالى فى كتابه العزيز وهذا السر قد استأثر الله تعالى بعلمه وهذا الاستئثار - كما قدمنا - منه ما هو مطلق ومنه ما هو نسبى ، ولا ريب أن عظمة الألوهية تقتضى النوعين معاً ، إذ ثمة من الأسرار الإلهية فى الكلام القديم مالا يتناهى ولا يصل إلى دركه المخلوق المحدث ، وذلك ما صرح به أحد الصوفية العارفين بالله تعالى وهو سيدى سهل بن عبد الله التسترى - رضى الله عنه - إذ قال : -

لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله فى آية من كتابه ، لأنه كلام الله ، وكلامه صفته ، وكما أن ليس لكلام الله نهاية: فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه ، وكلام الله غير مخلوق ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة »(١) .

فثمة إذاً فى كل فاتحة سورة - مما بدىء بحروف التهجى - أسرار لا يعلمها إلا الله تعالى شأنه وثمة أيضاً فى كل من هذه الفواتح أسرار أخرى سترت معانيها عن

---

(١) أنظر : مقدمة تفسير البسيط للواحدى ص ٩ وانظر : البرهان للزركشى ٩/١ ويؤيد هذا المفاد أيضاً ما روى عن الإمام الجليل الشريف القرشى سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله تعالى عنه من أنه كان يقول: « جميع المعبرين،المؤولين والمتكلمين فى علم التوحيد والتفسير : لم يصلوا إلى عشر معشار معرفة كنه إدراك معرفة معنى حرف واحد من حروف القرآن العظيم » أنظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٤٢/١ ط الشرفية .

عامة الخلق ، بينما انكشفت لأكرم الخلق على الله وهو الرسول الأعظم ﷺ وورثها عنه خاصة الخاصة من صحابته وتابعيه وكمل أولياء أمته المرضيين .
جعلنا الله تعالى منهم رفقاء زمرتهم فى الدنيا ويوم الدين بجاه سيد الأولين والآخرين .

وبمقتضى إطلاع أولئك الخاصة على تلك الأسرار نطقوا بما شاهدوا من أنوارها بتلك الأقوال والعبارات ففاضت بحار المعانى فى حياض صدورهم وانطلقت منها إشعاعات مبثة لأهل العرفان عن تحققهم بحمل كنوز الأسرار ، ومن ثم روى الإمام القرطبى — فى تفسيره — عن الإمام العارف بالله تعالى سيدى محمد بن على الترمذى — المعروف بالحكيم الترمذى — أنه قال : —

«إن الله تعالى أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أول السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ولى ، ثم بين ذلك فى جميع السورة ليفقه الناس»(١) .

ثم هنالك — من معانى الفواتح — بعد تلك الأسرار ما أتيح علمه للعلماء وسنح ظهوره للألباء والبلغاء فقيدوه فى صحائفهم وأبرزوا وجهه الوجوه .

ولست أرى — كما ارتأى البعض — رفض شيء مما ذكرت من تلك الوجوه كما فعل البعض بل إنى لا أرى بأساً من الجمع بين هذه الأقوال التى ذكرناها جميعاً والإفادة من مضامينها المتعددة المتضافرة فى العطاء والثراء طالما لا تنافى بينها ، ولا ارتكاب لمحذور فى تقبلها ، وأرى من ضيق الأفق والعطن نبذ شيء منها بلا مبرر !!

ولنا فى مضمار هذا الجمع واتساع الأفق له : قدوة حسنة من السلف ومن الخلف :

---

(١) أنظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٥٦/١ .

فأما من السلف : فالإمامان الجليلان : أبو العالية الرياحي والربيع بن أنس رضي الله عنهما .

فلقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه أنه قال : « هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجالهم . فالألف : مفتاح اسمه « الله » واللام : مفتاح اسمه اللطيف والميم مفتاح اسمه : « مجيد » . فالألف : آلاء الله ، واللام : لطف الله ، والميم : مجد الله ، فالألف : سنة ، واللام ثلاثون ، والميم : أربعون »(١) .

كما أخرج الإمام الطبري — بسنده — عن الربيع بن أنس رضي الله عنه أنه قال في قول الله تعالى ذكره « الم » : « هذه الأحرف من التسعة والعشرين حرفا ، دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجالهم »(٢) .

ثم نجد من أئمة الخلف : الإمام الطبري الذي يعقب على جميع الأقوال التي حكاها العلماء في معنى الحروف الفواتح في تفسيره بقوله : « والصواب من القول عندي في تأويل مفاتيح السور — التي هي حروف المعجم — : أن الله — جل

---

(١) خرجه الحافظ السيوطي عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية انظر الدر المنثور ٢٣/١

(٢) انظر تفسير الطبري ٨٨/١

ثناؤه - جعلها حروفاً مقطعة ، ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف لأنه - عز ذكره - : أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منه على معان كثيرة لا على معنى واحد - كما قال الربيع بن أنس - وإن كان الربيع قد اقتصر به على معان ثلاثة دون مازاد عليها .

والصواب في تأويل ذلك عندي: أن كل حرف منه يحوى ماقاله الربيع وماقاله سائر المفسرين غيره فيه سوى ماذكرت من القول عمن ذكرت عنه من أهل العربية، أنه كان يوجه تأويل ذلك إلى أنه حروف هجاء استغنى بذكر ماذكر منه في مفاتيح السور عن ذكر تتمة الثمانية والعشرين حرفاً من حروف المعجم ، بتأويل أن هذه الحروف : ذلك الكتاب مجموعه لاريب فيه ، فإنه قول خطأ فاسد لخروجه عن أقوال جميع الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الخالفين(١) من أهل التفسير والتأويل »(٢) .

وفي نفس هذا الاتجاه : نجد من علماء الخلف الإمام أبو الحسن الواحدي - الذي تربع على عرش إمامة المفسرين في القرن الخامس الهجري - يقول في تفسيره « البسيط » في شأن هذه الفواتح المقطعة : « وقد ذكرت عيون أقاويل أهل التأويل وليس يبعد أن يقال : إن جميع ماذكر من هذه التأويلات كلها مرادة بهذه الحروف ، مودعة فيها ، ولاتنافي في هذه الأقوال، لأنه ليس كون هذه الحروف مفاتيح أسماء الله تعالى بمانع أن تكون مما أقسم الله بها ، ولا أن يشير بها إلى مدة قوم وآجال أناس ، عرف الله نبيه - عليه السلام - ذلك على الخصوص »(٣)

---

(١) يعني بهم : الخلف الذين خلفوا الصحابة والتابعين وتابعيهم .

(٢) انظر : جامع البيان ٩٣/١ - ٩٤

(٣) انظر تفسير البسيط للواحدي (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢ تفسير) الجزء الأول : لوحة رقم ٣٤ .

ثم بعد القول الفصل فى معانى الحروف الفواتح التى اثرت عجل على بعض المباحث المتعلقة بتلك الحروف وما أسفرت عنه من فوائد ، فمن ذلك :

« أولا » : أن هذه الألفاظ التى يتهجى(١) بها مثل « الم » و « طس » و « ق » .. الخ . أسماء مسمياتها الحروف التى ركبت منها . فالميم مثلا : لفظة مفردة دالة بالتواطؤ على معنى مستقل بنفسه من غير دلالة على الزمان المعين لذلك ، وذلك المعنى هو الحرف الأول من (مفح) ، ودليل إسمية هذه الألفاظ : دخولها فى حد الاسم اصطلاحا وأنه يعتريها خواص الاسمية من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ، ثم إن أساطين النقاد كالخليل وأبى على الفارسى وغيرهما قد نصوا على إسميتها .

ولا يعترض على ذلك بما رواه الترمذى عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول « الم » حرف ، ولكن أقول : الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » (٢) .

فقد أجيب أنه سماه حرفا باسم مدلوله على طريق المجاز اللزومى(٣) وقيل إن المراد فى الحديث الشريف : هو المعنى اللغوى للحرف ، لا الاصطلاحى بعد نزول القرآن الكريم .

---

(١) يطلق التهجى على تعداد أسماء الحروف الدالة عليها كما يطلق على تعداد الحروف بأنفسها وهو التقطيع ، والأول هو المراد هنا . انظر حاشية الشهاب ١ / ١٥٤ .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب « فضائل القرآن » من سننه (٥ ; ١٧٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب ١ / ١٥٠ ، وتفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١ / ١٥٣ - ١٥٦

ومن ثم نخلص إلى القول بأن هذه الحروف المقطعة أوائل السور : أسماء بالمعنى الاصطلاحي وحروف بالمعنى اللغوي السابق على الاصطلاحي : وجملة هذه الأسماء في أول السور ثمانية وسبعون حرفا وردت في تسع وعشرين سورة وجملتها من غير تكرار : أربعة عشر حرفا فيجمعها قولك « نص حكيم قاطع له سر » .

« ثانيا » : قال الزمخشري في تفسيره : « وقد روعيت في هذه التسمية(١) لطيفة ، وهي : أن المسميات لما كانت ألفاظا كأساميها ـ وهي حروف وحدان ـ والأسامي عدد حروفها مرتق إلى الثلاثة : اتجه لهم طريق أن يدلوا في التسمية على المسمى فلم يغفلوها ، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى ، إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماها(٢) ، لأنه لا يكون إلا ساكنا »(٣) .

« ثالثا » : هذه الفواتح جاءت مختلفة الأعداد ولم ترد على وتيرة واحدة ، فوردت « ص » و « ق » و « ن » على حرف ، وجاءت : « طه » و « طس » و « يس » و « حم » على حرفين ، وجاءت : « الم » و « الر » و « طسم » على ثلاثة أحرف .

وجاءت : « المص » و « المر » على أربعة أحرف . ثم جاءت « كهيعص » و « حم عسق » على خمسة أحرف .

---

(١) أي في تسمية الحروف بهذه الأسماء الدالة عليها .

(٢) ذكر الشهاب في حاشيته (١ /١٥٧) أن استثناء الألف جار على ما إذا لم تكن الألف موضوعة في الأصل للهمزة واستعمالها في المدة على التوسع ـ كما نقل عن ابن جني ـ لأنها قد تصير مدة ، وإلا : فإنها حينئذ وعلى القول ـ الذي ذهب إليه بعض أهل اللغة ـ بأنها مشتركة بينهما ، لا داعي لاستثنائها . بتصرف .

(٣) انظر : الكشاف ٧٧/١ ط الحلبي . وانظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ١٥٧/١ .

والحكمة فى عدم ورود هذه الفواتح على طريقة واحدة ـ مع أن ما قصد بها من إعادة التنبيه وتجديده حاصل بذلك ـ أن هذا على عادة افتنان العرب فى أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة . وفى ذلك إيذان بأن المتحدى به مركب من كلماتهم التى أصولها كلمات مفردة ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة(١) .

وإنما جاء اختلاف هذه الفواتح ـ فى أعداد حروفها ـ على هـــذه الكيفية المخصوصة ، فرادى وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، لما أن أبنية كلام العرب جاءت على هذا النمط ولم تتجاوز خمسة أحرف(٢)

، رابعاً ـ من أسرار هذه الفواتح المقطعة : أنه تعالى أورد فيها أربعة عشر إسماً ـ هى نصف أسامى حروف المعجم(٣) ـ فى تسع وعشرين سورة بعددها ـ إذا عد فيها الألف الأصلية ـ وقد ذكرها مشتملة على أنصاف أنواعها : ـ

فذكر من المهموسة ـ وهى ما يضعف الاعتماد على مخرجه ويجمعها : « ستشحثك خصفه » ـ : نصفها ، وهى : الحاء ، والهاء ، والصاد ، والسين ، والكاف .

---

(١) أنظر : الكشاف ٧٧/١ ط الحلبي ، وانظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١٥٧/١ .

(٢) ، (٣) أنظر الكشاف وحاشية الشريف الجرجانى عليه ١٠٤/١ وانظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١٦٨/١ .

(٣) عد الزمخشرى حروف المعجم ثمانية وعشرين بناء على أن الألف اسم يتناول المدة والهمزة كذلك نقل الشهاب فى حاشية (١٦٢/١) عن أبى العباس أنه كان يعدها ثمانية وعشرين حرفاً أولها الباء الموحدة ، ويدع الألف من أولها ويقول : هى همزة لا تثبت على صورة واحدة وليس لها صورة مستقرة .

ومن البواق المجهورة : نصفها وهو تسعة أحرف ويجمعها : «لن يقطع أمر».

ومن الشديدة : ـ وهي التي يمتنع جريان الصوت فيها كما ذكر سيبويه وهي مجموعة في « أجدت طبقك » ـ ذكر منها أربعة تجتمع في « أقطك ».

ومن البواق الرخـــوة : نصفها أيضا وهو عشرة يجمعها : « حس على نصره »(١) .

ومن المطبقة ـ وهي التي يطبق بعض اللسان عند خروجها على ما يحاذيه من الحنك الأعلى وهي الصاد والضاد والطاء والظاء ـ ذكر نصفها وهو الصاد والطاء(٢) .

ومن البواق المنفتحة : نصفها وهو : الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون (٣) .

ومن حروف القلقلة : ـ وهي التي تضطرب عند خروجها ، ويجمعها «قطب جد» ـ ذكر نصفها الأقل ، لقلتها وهو : القاف والطاء .

ومن الينتين (٤) : ـ الواو والياء ـ وردت الياء ، لأنها أخف وأكثر من أختها .

ومن المستعلية : ـ وهي التي يرتفع اللسان عند النطق بها إلى الحنك الأعلى . وهي سبعة : القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والظاء ـ ذكر منها نصفها الأقل ، وهو الصاد والقاف والطاء .

---

(١) ، (٢) أنظر حاشية الشهاب ١٦٤/١ .

(٣) أنظر : الكشاف ١٠٢/١ .

(٤) حروف اللين ثلاثة هي : الواو والياء والألف وسميت كذلك لأنها تخرج بلين وعدم كلفة على اللسان ، وقد أسقط منها ـ هنا ـ الألف لما مر مما نقله الشهاب عن أبي العباس من عدم عدها مع الحروف .

ومن البواقي المنخفضة : نصفها الأكثر وهو الهمزة واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون (١) .

ومن حروف البدل : ـ وهي أحد عشر على ما ذكره سيبويه (٢) واختاره ابن جني ، ويجمعها : « أجد طويت منها » ـ ذكر ستة مجموعة في : « اهطمين » .

ومما يدغم في مثله ولايدغم في المقارب : ـ وهي خمسة عشر : الهمزة والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزاي والواو ـ ذكر نصفها الأقل .

ومما يدغم في مثله وفي مقاربه : ـ وهي الثلاثة عشر حرفا الباقية ـ ذكر نصفها الأكثر وهو : الحاء والقاف والكاف والراء والسين واللام والنون .

ومن الأربعة التي لا تدغم فيما قاربهـــا ويدغم فيها مقاربها : ـ وهي الميم والسين والزاي والفاء ـ ورد نصفها الأول .

وأما الحروف الذلقية : ـ وهي الستة التي يعتمد عليها بذلق اللسان وهي المجموعة في : « رب منفل » .

والحروف الحلقية ـ وهي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء ـ : فإنها لما كانت كثيرة الوقوع في الكلام : ورد ثلثاها في الفواتح المقطعة .

وقد عقب القاضي البيضاوي على ما ذكر قوله : « ولو استقريت الكلام

---

(١) أنظر : الإتقان ٢٨/٣ .

(٢) أورد البيضاوي زيادة على ما ذكره سيبويه سبعة حروف أخرى للإبدال ورد منها في التنزيل ثلاثة فوق الستة المذكورة والثلاثة هي اللام والصاد والعين . أنظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ١٦٦/١ .

وتراكيبها : جدت الحروف المتروكة من كل جنس مكنوزة بالمذكورة »(١) .
من ثم يكون ذكر النصف من كل جنس أمر غائى ، فلا يستدرك على ما ذكر بابطال حكمته الرائعة .

وتأمل فيما أورده صاحب «البرهان» عن القاضى أبى بكر بن العربى من قوله :

« إنما جاءت على نصف حروف المعجم ، كأنه قيل : من زعم أن القرآن ليس بآية — أى بمعجزة — : فليأخذ الشطر الباقى ويركب عليه لفظا ، معارضة للقرآن !!
وقد علم ذلك بعض أرباب الحقائق »(٢)

« خامساً » من أسرار الاستفتاح بـ : « الم » : أن الألف إذا بدىء بها أولا كانت همزة — وهى أول المخارج من أقصى الصدر — واللام : من وسط مخارج الحروف — وهى أشد الحروف اعتماداً على اللسان — والميم : آخر الحروف ، ومخرجها من الفم . وهذه الثلاثة : هى أصل مخرج الحروف وهى الحلق واللسان والشفتين التى يتفرع منها ستة عشر مخرجا ليصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدار كلام الخلق أجمعين : مع تضمنها لسر عجيب وهو : —

أن ثمة دلالة رمزية باهرة لتلك الحروف الفواتح بمخارجها على المعانى التى استفتحت بها فى السورة القرآنية ، حيث أن الالف باعتبارها أول المخارج دالة على البداية واللام دالة بمخرجها على النهاية ، وقد استقرأ علماء التنزيل مضامين السور المفتتحة بـ « الم » فوجدوا أن كل سورة مفتتحة بها مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه ، مشتملة على خلق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية من

---

(١) انظر أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ١ / ١٦٤ - ١٦٨ .

(٢) انظر البرهان للزركشى ١ / ١٦٨

الشرائع والاوامر ، وتأمل ذلك في سور : البقرة ، وآل عمران ، وتنزيل السجدة وسورة الروم (١) !!

وللإمام الفخر ملحظ فريد آخر اذ يقول :

« الألف من أقصى الحلق ، وهو أول مخارج الحروف — واللام : من طرف اللسان — وهو وسط المخارج — والميم من الشفة — وهو آخر المخارج فهذه إشارة إلى أنه لابد وأن يكون أول ذكر العبد ووسطه وآخره ليس إلا الله تعالى على ماقال : « ففروا إلى الله(٢) » (٣).

« سادساً » : ومن أسرار الاستفتاح بالحروف المفردة مثل (ق) و (ص) و (ن) : — ما أفصح عنه علماء التنزيل من وجود وطيد العلائق والوشائج — اللفظية والمعنوية — بين هذه الفواتح وبين سورها ، فقد أبان كل من الامام الزركشي (ت سنة ٧٩٤) وابن القيم (ت ٧٥١ هـ) — وهما من علماء القرن الثامن — طرفاً من هذه الأسرار ، وسبقهما الإمام السهيلي (ت ٥٨١ هـ) إلى إبراز طائفة من تلك الأسرار في مصنفاته التي صرح الزركشي بالاقتباس منها في هذا الصدد(٤) يقول الامام الزركشي : —

وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة ، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف .

---

(١) انظر البرهان للزركشي ١٦٨/١

(٢) سورة الذاريات / ٥٠

(٣) انظر مفاتيح الغيب ١٥٤/١

(٤) أنظر إصدار الزركشي عن أبي القاسم السهيلي في أسرار الفواتح في كتاب البرهان ١ / ١٧٠ .

فمن ذلك : « ق والقرآن المجيد » فإن السورة مبنية على الكلمات القافية ، من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق ، وتكرار القول ومراجعته مرارا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين ، وقول العتيد ، وذكر الرقيب ، وذكر السابق ، والقرين ، والالقاء فى جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب ، والقرن ، والتنقيب فى البلاد ، وذكر القتل(١) مرتين ، وتشقق الأرض وإلقاء الرواسى فيها ، وبسوق النخل ، والرزق ، وذكر القوم ، وخوف الوعيد ، وغير ذلك

وسر آخر : وهو أن كل معانى السورة مناسب لما فى حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة(ص)من الخصومات المتعددة .

فأولها : خصومة الكفار مع النبى ﷺ . وقولهم : « أجعل الآلهة إلها واحدا .. »(٢) ؟؟ إلى آخر كلامهم .

ثم : اختصام الخصمين عند داود .

ثم تخاصم أهل النار .

---

(١) هكذا فى الأصل ولكن القتل لم يرد فى السورة الكريمة . لذا رجح عندى أن اللفظة مصحفة عن لفظة (القبل) فهى التى ذكرت مرتين فى قوله تعالى (.. وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب)وذلك فى آية واحدة (رقم ٣٩) وقد ذكرت فى نفس السورة فى آية أخرى (١٢) فى قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) .

(٢) سورة (ص) /٤ .

ثم اختصام الملأ الأعلى فى العلم، وهو الدرجات والكفارات .

ثم تخاصم إبليس ، واعتراضه على ربه ، وأمره بالسجود .

ثم : اختصامه ثانياً فى شأن بنيه(١) وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الاخلاص منهم . وكذلك سورة : « ن والقلم » ، فإن فواصلها كلها على هذا الوزن ، مع ما تضمنت من الألفاظ النونية »(٢) .

وبهذه المناسبة : ننوه بخطورة ما تردد حديثاً من نظرية « الإعجاز العددى للقرآن الكريم » التى أثبتها بعض المعاصرين فى كتبهم كالدكتور رشاد خليفة وعبد الرازق نوفل ، حيث ذهب الأول إلى أن الرقم (١٩) الوارد فى قوله تعالى « عليها تسعة عشر »(٣) هو ومضاعفاته مناط حقائق عددية مطردة فى القرآن الكريم ، فهو حاصل عد (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وكلمة (اسم) تتكرر فى القرآن الكريم (١٩) مرة ، ولفظ الجلالة : (الله) متكرر فى القرآن الكريم عدد : (٦٩٨) مرة = ١٩ × ١٤٢ ، ولفظ الرحمن تكرر (٥٧) مرة = ١٩ × ٣ وكذلك لفظ الرحيم تكرر ١١٤ مرة وهذا = ١٩ × ٦ !!

ومكمن الخطورة فى هذه النظرية : أن هذا النظام الحسابى الدقيق عرضة للإنهيار كله بتغيير كلمة واحدة !!

---

(١) أى بنى آدم الذين وقع تخاصم إبليس مع الله تعالى بسبب أبيهم آدم عليه السلام .

(٢) أنظر البرهان للزركشى ١/ ١٧٠ وانظر بدائع الفوائد لابن القيم ٣/ ١٧٣ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ١/ ١٨١ — ١٨٢ .

(٣) سورة المدثر / ٣٠

ولقد تعقب الدكتور محمد عبد الجليل(١) — بالفعل — هذه النظرية وأثبت خطأها فى تعداد كلمة «الرحمن» إذ أثبت بالاستقراء التام أنها وردت فى التنزيل (١١٥) مرة وليس (١١٤) مرة كما ذهب صاحب النظرية(٢).

وسابعاً: إنما كتبت هذه الحروف الفواتح فى المصاحف الشريفة على صورة الحروف أنفسها لا على صورة أسمائها: لأن الكلمة لما كانت مركبة من ذوات الحروف لا من أسمائها وذلك يقتضى كثرة وقوع صور الحروف فى الخط واعتياد الكاتب بها دون صور أساميها: كتبت الحروف على صورتها أنفسها.

ويضم إلى ذلك: أن العادة استمرت بأنه متى تهجيت الكلمة، ومتى قيل للكاتب: اكتب كذا وكذا.. أن يلفظ بالأسماء وتقع الكتابة بالحروف أنفسها، ومن ثم: عمل على تلك الشاكلة المألوفة فى كتابة هذه الفواتح.

ويضاف إلى ذلك إنه اختير فى كتابة الفواتح.

ما هو أخف وأخصر مع الأمن من وقوع اللبس فيها، فإن شهرة أمرها على ألسن الأسود والأحمر: آمنه من الإلباس.

ثم إن الخط المصحفى قد اتفقت فيه ألفاظ كثيرة خارجة عن القياس الخطى والهجائى دونما ضير أو نقصان لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف (٣).

---

(١) هو الدكتور محمد بدوى عبد الجليل مدرس البلاغة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية.

(٢) انظر: براعة الاستهلال فى فواتح القصائد والسور للدكتور محمد عبد الجليل ص ١٣٦ — ١٨٣

(٣) انظر: الكشاف للزمخشرى ١/٩٣ — ٩٥ وانظر البرهان للزركشى ١/١٧٢

النوع الثالث من أنواع استفتاح السور : الاستفتاح بالنداء

وقد جاء ذلك في عشر سور من التنزيل ، استفتحت خمس منها بنداء النبي صلى الله عليه وسلم . وهي سور :-

١ ـ الأحزاب : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . . . »

٢ ـ الطلاق : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن . . . »

٣ ـ التحريم : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . . . »

٤ ـ المزمل : « يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . . . »

٥ ـ المدثر : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . . . »

ثم استفتحت خمس سور بنداء الأمة(١) وهي :ـ

١ ـ سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » .

٢ ـ سورة الحج : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم »

٣ ـ سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . »

٤ ـ سورة الحجرات : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله »

٥ ـ سورة الممتحنة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء »(٢) .

وتحت هذه الاستفتاحات المباركة أسرار طائلة ، يدرك كثير منها بالتأمل

---

(١) هذه السور الخمس صدرت منها اثنتان بالنداء العام (يا أيها الناس) وثلاث بالنداء الإيماني (يا أيها الذين آمنوا)

(٢) أنظر البرهان للزركشي ١٧٨/١ والاتقان ٣١٦/٣

والتدبر ، فأنظر مثلا دلالة تخصيص نصف نداءات الفواتح لسيدنا رسول الله وحده وما تنبىء عنه من احتفاء الله بنبيه الأعظم ﷺ .

ثم تأمل كيف لم يأت نداء منها باسمه المجرد صلى الله عليه وآله وسلم بل لم يرد ذلك في التنزيل كله بينما خاطب الله تعالى سائر رسله وأنبيائه بأسمائهم فقال تعالى « يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة »(١) .

وقال تعالى : « يانوح أهبط بسلام منا »(٢) .

وقال تعالى : « ياموسى أقبل ولا تخف »(٣) .

وقال تعالى : « ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى »(٤)

وفي ذلك تخصيص وتفضل وتشريف وتكريم لأحب الخلق إلى جناب رب العالمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وعترته الطيبين الطاهرين .

ثم تأمل وجه الاتفاق بين فاتحتى سورتى النساء والحج بـ (يا أيها الناس) وكيف عقب هذا النداء في كل منهما بالأمر بتقوى رب العالمين .

ثم أنظر تعليل الأمر بالتقوى في فاتحة سورة (النساء) بأمر المبدأ ، وهو الخلق من نفس واحدة ، وتعليل الأمر بالتقوى في فاتحة (الحج) بأمر المعاد وهو النهاية المحتومة فقال تعالى : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » !!

ثم تجد من عجيب الاتفاق أن السور الخمس التى استفتحت بنداء الأمة كلها مدنية النزول ففى العهد المدنى كان المجتمع الإسلامى قد أشتد عوده وتأخت لبناته وعلم أمره فتوجه إليه النداء الربانى بمجال التربية التشريعية والأخلاقية بعد تأسيس قواعده العقدية في العهد المكى .

---

(١) سورة البقرة /٣٥ (٢) سورة (هود) /٤٨

(٣) سورة القصص /٣١ (٤) سورة آل عمران ٥٥

«النوع الرابع : الاستفتاح بالجمل الخبرية»

وذلك في ثلاث وعشرين سورة وهي :-

١ — سورة الأنفال : « يسألونك عن الأنفال ..»

٢ — سورة التوبة : « براءة من الله ورسوله ..»

٣ — سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ..»

٤ — سورة الأنبياء : « اقترب للناس حسابهم ..»

٥ — سورة المؤمنون : « قد أفلح المؤمنون ..»

٦ — سورة النور : « سورة أنزلناها وفرضناها ..»

٧ — سورة الزمر : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ..»

٨ — سورة محمد : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم »

٩ — سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ..»

١٠ — سورة القمر : « اقتربت الساعة وانشق القمر »

١١ — سورة الرحمن : « الرحمن . علم القرآن »

١٢ — سورة المجادلة : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ..»

١٣ — سورة الحاقة : « الحاقة ما الحاقة »

١٤ — سورة المعارج : « سأل سائل بعذاب واقع »

١٥ — سورة نوح : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه »

١٦ — سورة القيامة : « لا أقسم بيوم القيامة »

١٧ — سورة عبس : « عبس وتولى »

١٨ — سورة البلد : « لا أقسم بهذا البلد »

١٩ — سورة القدر : « إنا أنزلناه في ليلة القدر »

٢٠ — « البينة « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) .

٢١ — « القارعة : « القارعة ما القارعة »

٢٢ — « التكاثر : « ألهاكم التكاثر »

٢٣ — « الكوثر : « إنا أعطيناك الكوثر »

النوع الخامس : الاستفتاح بالقسم

وذلك فى خمس عشرة سورة كلها مكية النزول وهى : -

١ — سورة الصفات : (والصفات صفا) والقسم فيها على وحدانيته تعالى .

٢ — سورة الذاريات : (والذاريات ذروا) والقسم فيها على وقوع البعث والجزاء .

٣ — سورة الطور : (والطور وكتاب مسطور) والقسم فيها على وقوع الجزاء فى الآخرة .

٤ — سورة النجم : (والنجم إذا هوى) والقسم فيها على تزكية النبى صلى الله عليه وسلم

٥ — سورة المراسلات : (والمراسلات عرفا) والقسم فيها على وقوع الجزاء يوم الفصل .

٦ — النازعات : (والنازعات غرقا) والقسم فيها على وقوع أحداث البعث

٧ — سورة البروج : (والسماء ذات البروج) والقسم فيها على لعن كفار مكة لعن أصحاب الأخدود .

٨ — سورة الطارق : (والسماء والطارق) والقسم فيها على أن كل نفس

٩ — سورة الفجر : (والفجر وليال عشر) والقسم فيها على تعذيب كفار مكة .

١٠ — سورة الشمس : (والشمس وضحاها) والقسم فيها على فلاح من طهر نفسه وخسارة من أخفاها بالمعصية .

١١ — سورة الليل : (والليل إذا يغشى) والقسم فيها على أن أعمال العباد شتى .

١٢ — سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سجى) والقسم فيها على مواصلة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم .

١٣ — سورة التين : (والتين والزيتون) والقسم فيها على خلق الإنسان فى أحسن تقويم .

١٤ — سورة العاديات : (والعاديات ضبحا) والقسم فيها على كفران الكافر لنعمة ربه تعالى .

١٥ — سورة العصر : (والعصر . إن الإنسان لفى خسر) والقسم فيها على خسران الإنسان إلا المؤمن الصالح .

النوع السادس : الإستفتاح بالشرط

وذلك فى سبع سور وهى :

١ — سورة الواقعة : (إذا وقعت الواقعة) وهى مكية النزول .

٢ — سورة المنافقون : (إذا جاءك المنافقون) وهى مدنية النزول

٣ — سورة التكوير : (إذا الشمس كورت) وهى مكية النزول

٤ ــ سورة الانفطار : (إذا السماء انفطرت) وهى مكية النزول .

٥ ــ سورة الانشقاق : (إذا السماء انشقت) وهى مكية النزول .

٦ ــ سورة الزلزلة : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) وهى مدنية النزول

٧ ــ سورة النصر : (إذا جاء نصر الله والفتح) وهى مدنية النزول

النوع السابع : الافتتاح بالأمر

وذلك فى ست سور وهى :

١ ــ سورة الجن : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ..) وهى مكية النزول

٢ ــ سورة العلق : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وهى مكية النزول

٣ ــ سورة الكافرون : (قل ياأيها الكافرون) وهى مكية النزول .

٤ ــ سورة الإخلاص : (قل هو الله أحد) وهى مكية النزول

٥ ــ سورة الفلق : (قل أعوذ برب الفلق) وهى مكية النزول

٦ ــ سورة الناس : (قل أعوذ برب الناس) وهى مدنية النزول

النوع الثامن : الإستفتاح بالاستفهام

وذلك أيضاً فى ست سور هى :

١ ــ سورة الدهر : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر ..) وهى مدنية النزول .

٢ ــ سورة النبأ : (عم يتساءلون) ؟ وهى مكية النزول .

٣ ــ سورة الغاشية : (هل أتاك حديث الغاشية) ؟ وهى مكية النزول

٤ ــ سورة الشرح : (ألم نشرح لك صدرك) ؟ وهى مكية النزول

٥ — سورة الفيل : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ؟ وهي مكية النزول .

٦ — سورة الماعون : (أرأيت الذي يكذب بالدين) ؟ وهي مكية النزول .

النوع التاسع : الاستفتاح بالدعاء

وذلك في ثلاث سور كلها مكية النزول وهي :ـ

١ — سورة المطففين : (ويل للمطففين) والدعاء فيها بالهلاك على المبخسين في الكيل والوزن .

٢ — سورة الهمزة : (ويل لكل همزة لمزة) والدعاء فيها بالهلاك على الطعان المغتاب في أعراض الناس .

٣ — سورة المسد : (تبت يدا أبي لهب وتب) والدعاء فيها بالهلاك على أبي لهب .

النوع العاشر : الاستفتاح بالتعليل

وذلك في سورة واحدة مكية سورة « قريش » المفتتحة بقوله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم » حيث جاء الإيلاف تعليلا إما : لما قبله في سورة « الفيل » والتقدير : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، ويؤيد ذلك : أن سورتي الفيل وقريش — في مصحف أبي بن كعب — سورة واحدة(١) .

وإما أنه تعليل لما بعده من قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) والمعنى :

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي ٢/٥١٢ ط الحلبي الثانية .

أن نعم الله كثيرة جليلة لا تحصى . فإن لم يعبدوه لسائر أنعمه فليعبدوه لأجل إيلاف قريش(١) .

تلك أنواع الفواتح العشرة كما أوردها صاحبا (البرهان والإتقان) عن أحد علماء التنزيل وهو العلامة أبو شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي شارح الشاطبية المتوفى سنة ٦٦٥ هـ . وقد نظم هذه الأنواع المذكورة في بيتين وهما :

أثنى على نفسه سبحانه بثبو ت المدح والسلب لما استفتح السورا
والأمر شرط الندا التعليل والقسم
دعا حروف التهجي استفهم الخبرا(٢)

على أن بعض هذه الأنواع قد يتداخل مع البعض الآخر - كما ذكر أبو شامة - فقسم الدعاء يمكن أن يحتسب مع الخبر ، وكذلك : الثناء على الله تعالى كله خبر ماعدا (سبح (٣) فإنه يدخل أيضاً في قسم الأمر . وقوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده) : يحتمل الخبر والأمر أيضاً(٤) .

هذا : وقد روعي في فواتح السور جميعاً أمران :

أولهما : - وهو الأعم منهما - حسن الابتداء : وقد بينه الإمام السيوطي - رضي الله عنه - بقوله : - « وقال أهل البيان : من البلاغة حسن الابتداء ، وهو : أن يتأنق في أول الكلام ، لأنه أول مايقرع السمع ، فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه ، وإلا : أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن . فينبغي

---

(١) نفس المصدر .
(٢) انظر البرهان ١٨١/١ والإتقان ٣ / ٣١٧ .
(٣) المراد : فاتحة سورة الأعلى المبتدأة بفعل الأمر .
(٤) انظر البرهان ١ / ١٨١ .

أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله ، وأرقه وأسلسه ، وأحسنه نظماً وسبكاً وأصحه معنى وأوضحه وأخلاه من التعقيد ، والتقديم والتأخير الملبس ، أو الذي لا يناسب .

قالوا : وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها ، كالتحميدات وحروف الهجاء ، والنداء ، وغير ذلك »(١) .

وثاني الأمرين : — وهو الأخص منهما — : ما أطلق عليه : « براعة الاستهلال » ، وقد عرف به الإمام السيوطي قائلا : —

« ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى : (براعة الاستهلال) ، وهو : أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله »(٢) .

وقد تناول بعض العلماء هذا الفن الجليل بالبحث والتصنيف ، وممن أفرده بالبحث حديثاً أستاذنا الدكتور عبد الغني الراجحي حيث تناول فواتح من السور القرآنية مجددا فيها براعة الاستهلال بالربط المحكم بين البناء الموضوعي الذي ينتظم مقاصد السور وأغراضها وبين مفتتحها حيث يكمن سر عظيم من أسرار البلاغة والإعجاز(٣) .

---

(١) ، (٢) أنظر الإتقان للإمام السيوطي ٣١٧/٣ — ٣١٨ .

(٣) أنظر طائفة من هذه البحوث التي نشرت بمجلة (منبر الإسلام) تحت عنوان : (براعة الاستهلال وروعة الأساليب في فواتح سور القرآن) — على سبيل المثال : في أعداد : « جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ ، صفر سنة ١٣٩٠ هـ ، ربيع أول سنة ١٣٩٠ هـ » .

كذلك تناول الموضوع بالبحث : الدكتور محمد بدرى عبد الجليل فى كتابه : « براعة الاستهلال فى فواتح القصائد والسور » (١) .

وقد أبرز أسلافنا الأثبات أصول هذا الفن وأصلوا جذوره فى مصنفاتهم ، ضربوا له الأمثال التطبيقية التى تستجلى فيها براعة الاستهلال فى إطار التعرف على مقاصد السورة القرآنية حيث تبرز الفواتح وكأنها مفاتيح موضوعية للسور وعناوين مستجمعة لمقاليد الدلالة على مضامين سورها ! !

وها هو ذا الحبر السيوطى يبرز سر افتتاح التنزيل - حسب الترتيب المصحفى - بالفاتحة على إثر تعريفه ببراعة الاستهلال (٢) فيقول : -

« ... والعلم الأسنى فى ذلك : سورة الفاتحة - التى هى مطلع القرآن - فإنها مشتملة على جميع مقاصده ، كما قال البيهقى - فى شعب الإيمان - : « أخبرنا أبو القاسم بن حبيب ، أنبأنا محمد بن صالح بن هانىء ، أنبأنا الحسين بن الفضل ، حدثنا عفان بن مسلم ، عن الربيع بن صبيح ، عن الحسن قال : -

أنزل الله مائة وأربعة كتب ، أودع علومها أربعة منها : التوراة ، والإنجيل ، والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور : الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن : المفصل ، ثم أودع علوم المفصل : فاتحة الكتاب . فمن علم تفسيرها : كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة .

---

(١) نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٨٠ م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية) .

(٢) براعة الاستهلال - هنا - متعلقة بسورة الفاتحة من حيث أنها فاتحة الكتاب وليست متعلقة بفاتحة السورة نفسها ، ومن ثم يبرز - من إيراد هذا المثال ضرب آخر من ضروب براعة الاستهلال فى غير فواتح السور .

وقد وجه ذلك : بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت بها الأديان : أربعة : ـ

علم الأصول : ومداره على معرفة الله وصفاته ، وإليه الإشارة بـ : « رب العالمين ـ الرحمن الرحيم » :

ومعرفة النبوات : وإليه الإشارة بـ : « الذين أنعمت عليهم » .

ومعرفة المعاد : وإليه الإشارة بـ : « مالك يوم الدين » .

وعلم العبادات : وإليه الإشارة بـ : « إياك نعبد . . . » .

وعلم السلوك : وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية ، وإليه الإشارة بـ : « . . إياك نستعين ـ إهدنا الصراط المستقيم » .

وعلم القصص : وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية ، ليعلم المطلع على ذلك : سعادة من أطاع الله ، وشقاوة من عصاه ، وإليه الإشارة بقوله : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن : وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة ، وأنواع البلاغة » (١) . وبعد أن بين الإمام السيوطي براعة استهلال التنزيل ـ حسب ترتيب المصحف الشريف ـ :

ساق مثالا تطبيقياً لبراعة الاستهلال في فواتح السور فقال : ـ

« وكذلك أول سورة « اقرأ » فإنها مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال لكونها أول ما نزل من القرآن ، فإن فيها الأمر بالقراءة ،

---

(١) أنظر : الاتقان ٣١٨/٣ .

والبداءة فيها باسم الله ، وفيه الاشارة إلى علم الأحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته ، من صفة ذات وصفة فعل ، وفى هذا : الاشارة إلى أصول الدين ، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله :

« علم الانسان مالم يعلم » ، ولهذا قيل : إنها جديرة أن تسمى « عنوان القرآن » ، لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة فى أوله »(١) .

وعلى هذا المنوال : نجد جميع فواتح سور التنزيل حاملة بالروعة والبلاغة القدسية التى لم يقع تحت طائلة الادراك منها إلا أقباس مشعة بالنور وإن هى إلا قل من كثر لا يحيط به جنان المخلوق .

وهكذا تعايشنا عبر هذه السطور مع قطرة من علم « فواتح السور » أسأل الله تعالى أن تكون مفتاح الفتح الأبدى لفهم كلام رب العالمين .

---

(١) أنظر الاتقان ٣١٩/٣ .

الباب الثامن

فى

علم مشكل القرآن وموهم الاختلاف والتناقض

هو علم عظيم يقتدر به على دفع المطاعن التى تسدد نحو التنزيل، وتبديد الشكوك التى تثار حوله سواء من جهة نظمه أو من جهة موهم التعارض بين آياته.

وقد تكلم فى هذا العلم: الصدر الأول من السلف الصالح، كالامام ابن عباس والامام ابن مسعود والامام الحسن وغيرهم. كما صنف فيه جهابذة من علماء الأمة كابن قتيبة (١) الذى أفرده بكتاب «مشكل القرآن» ولم يذكره الامام السيوطى ولا الزركشى فيمن أفرد هذا العلم بالتصنيف رغم أن كتابه هذا من أروع ما صنف فيه (٢).

كما أفرد هذا العلم بالتصنيف: العلامة: قطرب (٣) فى كتابه: «الرد على

---

(١) هو الامام عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزى (٢١٣ – ٢٧٦هـ) صاحب كتاب أدب الكاتب والشعر والشعراء وعيون الاخبار ومشكل القرآن وغيرها من روائع التراث.

(٢) نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ السيد صقر عن دار التراث بالقاهرة وصدرت منه الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣ هـ.

(٣) هو علامة اللغة والنحو – من البصريين –: أبو على محمد بن المستنير (ت سنة ٢٠٦ هـ) أحد تلامذة سيبويه.

الملحدين فى تشابه القرآن » (١) .

وتناوله الإمام الزركشى فى النوع الخامس والثلاثين من « البرهان »(٢) تحت عنوان « معرفة موهم المختلف » ، كما تناوله الإمام السيوطى فى « الاتقان » تحت عنوان : « النوع الثامن والأربعون : فى مشكله وموهم الاختلاف والتناقض(٣) » ونقطة البدء فى بحثنا فى هذا العلم : هى التعرف أولا على هذه المصطلحات الثلاثة وهى : —

« المشكل » و « الاختلاف » و « التناقض » .

أما : المشكل : فهو مأخوذ من الإشكال ، وهو الإلتباس ، فيقال : أشكل الأمر ، إذا التبس ، وأمور أشكال ، أى : ملتبسة ، وبينهم أشكلة ، أى لبس(٤) .

وتفيد مصادر اللغة بأن منشأ الإشكال — غالبا — إنما هو الاختلاط الذى يدخل به الشىء فى شبه غيره وشكله فيحصل بذلك : الاشتباه والالتباس والإشكال ، ويقول ابن منظور : —

« وقال شمر(٥) : الشكلة — بضم الشين — : الحمرة تختلط بالبياض ، وهذا شىء

---

(١) ذكره صاحب « كشف الظنون ١/٨٣٩ ، القفطى فى : « إنباه الرواه : ٢/٣١٩ » .

(٢) أنظر : البرهان : ٢/٤٥ .

(٣) أنظر : الاتقان : ٣/٧٩ .

(٤) أنظر : لسان العرب لابن منظور ١٣/٣٨٠ .

(٥) هو علامة العربية اللغوى النحوى شمر بن حمدوية الهروى تتلمذ على ابن الاعرابى والأصمعى والفراء ومن تصانيفه : غريب الحديث وكتاب الجيم وكتاب الجبال والأودية وغير ذلك وتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، أنظر معجم المؤلفين ٤/٣٠٦ ؛

أشكل، ومنه : قيل للأمر المشتبه : مشكل ، وأشكل على الأمر ، إذا اختلط، وأشكلت على الأخبار وأحكلت : بمعنى واحد . والأشكل عند العرب : اللونان المختلطان ... » (١) .

ثم يقول ابن منظور أيضاً : « ... وحرف مشكل : مشتبه ، ملتبس »(٢) .

ويضيف العلامة ابن قتيبة تعميقاً آخر لمدلول المشكل ، موضحاً ورابطاً بينه وبين المتشابه فيقول . « ومثل المتشابه : المشكل ، وسمى مشكلا : لأنه أشكل أى : دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله .

ثم يقال لما غمض - وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة - : مشكل »(٣)

ومن كلام ابن قتيبة يتضح أن المشكل نوعين : أحدهما : منشأ الأشكال فيه : دخوله فى شكل غيره واختلاطه به ، وثانيهما : يرجع الأشكال فيه إلى غموض واستتار المعانى المختلفة تحت لفظه وإن لم يلتبس بغيره . ومن ثم . أعتد ابن قتيبة (الحروف الفواتح) من قبيل المشكل الذى ادعى على القرآن به الاستحالة وفساد النظم .

. وقد قدمنا - فى باب المحكم والمتشابه - تعريف الإمام الفخر الرازى للمشكل - الذى هو من ضروب المتشابه - بقوله : -

« إما المشكل : بأن يكون اللفظ بأصل وضعه راجحاً فى أحد المعنيين ، ومرجوحاً فى الآخر ، ثم كان الراجح باطلا والمرجوح حقاً ، ومثاله من القرآن

---

(١) أنظر : لسان العرب : ٣٨٠/١٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بتحقيق الاستاذ السيد صقر ص : ١٠٢ .

قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول . . . »(١) . فظاهر هذا الكلام : أنهم يؤمرون بأن يفسقوا . وعكسه : قوله تعالى : « إن الله لا يأمر بالفحشاء . . . »(٢) . . . »(٣) .

ومن ثم : تتجسد الوشيجة الوثقى بين مبحثنا هذا وبين مبحث المحكم والمتشابه المتداخل مع مبحث (فواتح السور ، فى دلالة الحروف المقطعة أوائل السور

وأما (الاختلاف) : فيبين الراغب مدلوله فى اللغة بقوله : « والاختلاف والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر فى حاله أو قوله ، والخلاف أعم من الضد ، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين »(٤) . وقد نفى الله تعالى الاختلاف عن التنزيل بقوله سبحانه ، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »(٥) .

وقد ذكر العلماء للاختلاف المنفى عن التنزيل عدة أوجه :-

الوجه الأول : عدم مطابقة إخباره بالمغيبات الواقع ، سواء كانت تلك المغيبات ماضية أم حاضرة أم مستقبلة .

---

(١) سورة الاسراء / ١٨ .

(٢) سورة الأعراف / ٢٨ .

(٣) أنظر هذا النص فى مفاتيح الغيب ٢ /٣٩٥ ، وقد ذكر الإمام الفخر فيه المعنى الراجح الباطل ولم يذكر المرجوح الحق ، وهو أن (أمرنا) بمعنى : كثرنا . إذ يقال : أمرت الشىء وآمرته فأمر إذا كثرته ، وهو أحد وجوه التأويل التى ذكرها البيضاوى فى تفسيره ١/٢٨٨ والحلبى .

(٤) أنظر : المفردات للراغب الاصبهانى ص ١٥٦ .

(٥) سورة النساء / ٨٢ .

وقد حكى الفخر هذا الوجه فى تفسيره فقال : « قال أبو بكر الأصم : معناه أن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون فى السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد ، والله تعالى كان يطلع الرسول صلى الله عليه وسلم على تلك الأحوال حالا فحالا ويخبره عنها على سبيل التفصيل ، وما كانوا يجدون فى كل ذلك إلا الصدق ، فقيل لهم : إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى : لما اطرد الصدق فيه ، ولظهر فى قول محمد صلى الله عليه وسلم أنواع الاختلاف والتفاوت . فلما لم يظهر ذلك . علمنا أنه ليس إلا بإعلام الله تعالى »(١) .

لقد نفى القرآن الكريم عن نفسه هذا الوجه من الاختلاف المتمثل فى : مخالفة الإخبار للمخبر عنه من أنواع الغيوب ، لأنه منزل من لدن علام الغيوب ؛ ومن ثم كان الصدق مطردا فيه . وقد حكى العلامة أبو السعود هذا الوجه عن كل من الوجاج وأبى بكر الأصم ، وآثره على غيره من الوجوه بالقبول ، معللا لذلك بأن هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم (٢) .

الوجه الثانى : تفاوت النظم فى البلاغة والفصاحة بأن يكون بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى وبعضه على معنى فاسد غير ملتئم ، وبعضه فصيحاً فى ألفاظه وتراكيبه وبعضه ركيكا هابطاً .

وقد ذكر الفخر هــذا الوجه معزوا إلى أبى مسلم الأصفهانى إذ ذكر أن سلامة القرآن عن الاختلاف تعنى عدم الاختلاف فى رتبة الفصاحة ، حتى لا يجد

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب ٣ / ٢٧٠ — ٢٧٢ وانظر : حاشية الشهاب على البيضاوى ٣ / ١٦٠ .

(٢) أنظر : تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٣/٢١٩ .

في جملته ما يعد في الكلام الركيك ، بل بقية الفصاحة فيه من أوله إلى آخره على نهج واحد ، ثم قال : ـ

« ومن المعلوم أن الإنسان ـ وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة فإذا كتب كتاباً طويلاً مشتملاً على المعاني الكثيرة فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قوياً متيناً ، وبعضه سخيفاً نازلاً ، ولما لم يكن القرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله تعالى » (١) .

وظاهر كلام البيضاوي في هذا الصدد مشعر بأنه اعتد كلا من تفاوت النظم واختلاف درجات الفصاحة وجها مستقلا ، ولعله عنى بالأول . ما يتعلق بتأليف الكلام ، وبالثاني ما يتعلق بالألفاظ من نحو خلوصها من التنافر والغرابة ومخالفة القياس على ما قرره علماء البلاغة في بابه (٢) .

وأما الوجه الثالث : فهو التناقض ، وذلك هو المصطلح الثالث الذي يتضمنه عنوان الباب . ومقصودنا أن تتعرف مدلوله قريناً للمشكل ، وفي نطاق دلالة الاختلاف الذي هو أعم منه ومن قسيمية : الوجهين السابقين (٣) .

وقد أورد القاضي البيضاوي هذا الوجه في صدارة وجوه الاختلاف في تفسيره ، إذ قال : ـ

---

(١) مفاتيح الغيب ٣ / ٢٧١ .

(٢) أنظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣ / ١٦٠ وأنظر تهذيب السعد للإمام التفتازاني ١/٤ .

(٣) بالتعرف على علاقة الاختلاف بالتناقض ـ وهي عموم الاختلاف له ـ تعرف سر اقتصار الزركشي في تسميته لهذا النوع في « البرهان » على ذكر الاختلاف دون التناقض .

(.. ولوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .: من تناقض المعنى ، وتفاوت النظم ، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكا ، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل..)(١) الخ . والتناقض فى اللغة : تفاعل من النقض الذى هو ضد الإبرام (٢) .

ثم أخذ النقض من أصل وضعه الذى هو انتشار العقد من بناء أو عقد أو نحوهما واستعمل فى التخالف والتضاد فى الكلام . وكما بين الراغب - فيما أوردناه عنه - أن الاختلاف أعم من التضاد ، فقد نقل الامام السيوطى عن العلامة الكرمانى تبيانا آخر لعلاقة الاختلاف بالتناقض فقال :-

(قال الكرمانى عند قوله تعالى : «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً» : الاختلاف على وجهين :-

اختلاف تناقض : وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر . وهذا هو الممتنع عن القرآن ، وهو الذى ينصرف إليه لفظ «الاختلاف» المندفع عن التنزيل .

واختلاف تلازم : وهو ما يوافق الجانبين ، كاختلاف مقادير السور والآيات واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهى والوعد والوعيد»(١)

---

(١) أنظر : تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١ / ١٦٠ :

(٢) أنظر : لسان العرب ٩/١١٠ وفى المفردات للراغب (ص٥٠٤) قال : «والنقيضان من الكلام : مالا يصح أحدهما مع الآخر ، نحو : هو كذا وليس بكذا فى شىء واحد وحال واحدة» .

وقال الزمخشرى فى (أساس البلاغة ٢/٤٧٢ ط دار الكتب : «ومن المجاز : نقض العهد ، وتناقض قوله الثانى الأول . وفى كلامه تناقض . وهذا نقيض ذاك ، أى : مناقضة ...

(٣) أنظر : الاتقان ٣ /٨٩.

ومن ثم تبين . أن ليس كل اختلاف بمنفى من التنزيل على إطلاق مدلول الاختلاف وإنما المنفى عنه هو مايقدح فى كماله مما ذكر من نحو التناقض بين آية، أو بين إخباره وبين الواقع، أو التفاوت بين بعضه والبعض فى البلاغة والفصاحة.

كذلك لايعنى نفى الاختلاف عن القرآن فى الآية الكريمة : نفى اختلاف الناس فيه ، فذلك أمر واقع فى آراء الناس لا فى التنزيل ذاته . ومن ثم كان جواب مولانا الإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ حينما سئل عن معنى قوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » أن قال : —

« الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفى اختلاف الناس فيه ، بل : نفى الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلف ، أى لا يشبه أوله آخره فى الفصاحة ، أو(١) هو مختلف ، أى : بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا(٢) أو : هو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف ، وبعضه على أسلوب مخصوص فى الجزالة ، وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات ، فإنه على منهاج واحد فى النظم ، مناسب أوله آخره ، وعلى مرتبة واحدة فى الفصاحة . فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى ، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين ، وكلام الآدميين يتطرق إليه هذه الاختلافات . . »(٣) .

ثم إن هذا الوجه ـ الذى نحن بصدد تبيانه ـ من أوجه الاختلاف ، وهو التناقض فى المعنى هو الذى ارتضاه أكثر المتكلمين ، فقد حكاه عنهم الامام الفخر الرازى قائلا : —

---

(١) فى النص المنقول فى البرهان : (إذهو) ، لكن المعنى لايستقيم عليه

(٢) هذا هو التناقض فى المعنى والتعارض فى الأغراض

(٣) انظر : البرهان للزركشى ٤٦/٢ — ٤٧

«والثانى (١): ـ وهو الذى ذهب إليه أكثر المتكلمين ـ أن المراد منه أن القرآن كتاب كبير، وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة، لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك. ولما لم يوجد فيه ذلك: علمنا أنه ليس من عند غير الله» (٢).

وتوضيحاً لمعنى التناقض المنفى عن التنزيل وتعميقاً لمفهومه وبياناً لكيفية وقوعه فى الأسماء وفى المعانى: أورد الإمام الزركشى عن أبى بكر الصيرفى (٣) بياناً رائعاً أدلى به فى شرحه على «الرسالة» للامام الشافعى رضى الله عنه قال فيه :ـ

«جماع الاختلاف والتناقض: أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه (٤) فليس فيه تناقض.

وإنما التناقض فى اللفظ: ماضاده من كل جهة على حسب ما تقتضيه الأسماء

---

(١) أى الوجه الثانى من أوجه الاختلاف حسب إيراد الإمام الرازى لها.

(٢) أنظر: مفاتيح الغيب: ٢٧١/٣.

(٣) هو الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله الصيرفى الشافعى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ علامة فى الفقه والأصول والحديث وعلم الكلام، أخذ عن ابن سريج وغيره، من تصانيفه: شرح الرسالة للامام الشافعى وكتاب «دلائل الأعلام على أصول الأحكام» فى أصول الفقه، وغير ذلك. أنظر ترجمته فى معجم المؤلفين ٢٢٠/١٠.

(٤) المعنى: أنه إذا كان للفظ أكثر من وجه فى الدلالة وكان مناقضاً بأحد الأوجه لمعنى آخر فى التنزيل، وجب حمل الأول على وجه آخر غير مناقض وبذا لا يقع التناقض. «المؤلف».

ولن يوجد في الكتاب ولا في السنة شيء من ذلك أبداً . وإنما يوجد فيه النسخ في وقتين ، بأن يوجب حكما ثم يحله ، وهذا لا تناقض فيه .

وتناقض الكلام : لا يكون إلا في إثبات ما نفى ، أو نفي ما أثبت ، بحيث يشترك المثبت والمنفي في الاسم والحدث والزمان والأفعال والحقيقة ، فلو كان الاسم حقيقة في أحدهما وفي الآخر مستعاراً ، ونفى أحدهما وأثبت الآخر : لم يعد تناقضاً .

هذا كله في الأسماء :

وأما المعاني : - وهو باب القياس - : فكل من أوجد علة وحررها ، وأوجب بها حكما من الأحكام ، ثم ادعى تلك العلة بعينها فيما يأباه الحكم : فقد تناقض .

فإن رام الفرق : لم يسمع منه ، لأنه في فرقه تناقض ، والزيادة في العلة نقض أو تقصير عن تحريرها في الابتداء ، وليس هذا على السائل .

وكل مسألة يسأل عنها فلا تخلو من أحد وجهين : إما أن يسأل فيما يستحق الجواب عنه أو : لا .

فأما المستحق للجواب : فهو ما يمكن كونه : ويجوز .

وأما ما استحال كونه : فلا يستحق جواباً ، لأن من علم أنه لا يجتمع القيام والقعود فسأل : هل يكون الإنسان قائماً منتصبا ، جالسا في حال واحدة ؟؟ فقد أحال ، وسأل عن محال ، فلا يستحق الجواب . فإن كان لا يعرف القيام والقعود : عرف . فإذ عرفه : فقد استحال عنده ما سأله .

قال : وقد رأيت كثيراً ممن يتعاطى العلم يسأل عن المحال ، ولا يدري أنه محال ويجاب عنه ، والآفات تدخل على هؤلاء لقلة علمهم بحق الكلام » (١) .

---

(١) أنظر : البرهان للزركشي ٢/٥٣ - ٥٤ .

بهذا البيان الدقيق المفصل لاختلاف التناقض فى الألفاظ وفى المعانى - الذى هو مناط حل الأشكال والإبهام فى التنزيل - يحصل لدينا تصور دقيق للوجه الثالث من أوجه الاختلاف ، وهو أبرزها كما نوهنا .

وقد أضاف القاضى البيضاوى - كما سبق إيراده عنه فى وجوه الاختلاف - لهذه الوجوه الثلاثة (١) وجهين آخرين وهما : -

(أ) كون بعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل المعارضة له .

(ب) موافقة العقل لبعض أحكامه دون البعض (٢) .

وقد ذهب البيضاوى - بتحديده وجوه الاختلاف - : إلى أن صفة الكثرة فى قوله تعالى « لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » إنما هى راجعة فى الاختلاف نفسه لا فى المختلف ، وعارض فى ذلك الزمخشرى الذى يجعل الكثرة صفة للمختلف من التنزيل — على فرض كونه من عند غير الله تعالى — ويجعل الاختلاف فى أمرين فقط وهما : إعجاز القرآن الكريم وعدمه فحسب ، ومن ثم : لم يكن الاختلاف — عنده — كثيراً ، وإنما المختلف هو الكثير .

وقد رجح متجه الزمخشرى ، بأن مناط الاختلاف إنما هو عدم الإعجاز لا غيره ، بينما لا يدل عدم الاختلاف — بناءً على ما ذكره البيضاوى من وجوه — على كون القرآن من عند الله تعالى ; وذلك : لجواز صدور كلام غير معجز — ليس

---

(١) سبق التنويه بأن البيضاوى اعتد كلا من تفاوت النظم واختلاف درجات الفصاحة وجها برأسه ، فتكون الوجوه الثلاثة التى أوردناها : أربعة عند القاضى .

(٢) أنظر : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب عليه ١٦٠/١ .

فيه شيء من هذا الاختلاف - عن البشر ، كالأحاديث النبوية الشريفة فلا يتضح الاستدلال الواقع في الآية الكريمة (١) .

ومن ثم تكون تلك الوجوه التي اعتبرها البيضاوي وجوها للاختلاف المنفي عن القرآن : نقائض لوجوه الإعجاز القرآني عند الزمخشري . وذلك ملحظ فريد يتأمله وتدبره .

ooo

---

(١) أنظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٥٤٦ - ٥٤٧ وانظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب : ١/١٦٠ - ١٦١ .

تنزه القرآن الكريم عن الاختلاف والتناقض

من الحقائق الراسخة التي أثبتها النقل والعقل : أن كتاب الله تبارك وتعالى منزه عن الاختلاف والتناقض ، والتعارض والتضاد ، وعن شتى وجوه القدح في كلامه العظيم ، لأنه كلام الحكيم العليم ، ومن أصدق من الله قيلا وهو القائل جل شأنه : —

« . . . وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١) . وهو القائل تقدست كلماته : —

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » (٢) .

وفي هذه الآية الكريمة التي تشرق منها أنوار تنزيه القرآن الكريم عن الاختلاف والتناقض يأمرنا سبحانه — في صدارتها — بالتدبر ، إذ الاستفهام فيها بمعنى الأمر (٣) .

ويدال لنا — سبحانه — على صدق رسوله العظيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى أن القرآن منزل عليه من عنده تعالى : بأن هذا التنزيل خلو من الاختلاف لذاته .

---

(١) سورة فصلت : ٤١ — ٤٢ .

(٢) سورة النساء / ٨٢ .

(٣) أنظر : حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى ٢ / ٥٣ نشر المكتبة الإسلامية بتركيا .

بيد أن التحقق من خلوه من الاختلاف والتناقض مستلزم لتدبره وتبصر معانيه وفقه مراميه ، ومن ثم حق على الأمة أن تضطلع طائفة منها بالعكوف على كتاب ربها درساً وفقها وتدبراً وتمرساً بتفسيره وتأويله وسبرا لأغوار علومه تشمل من كل ذلك قوام الهداية ورسوخ المعرفة لتشع من شآبيب عرفانها أضواء التبصير والتنوير : وانبرز من كنانتها سهام الذود عن حمى التنزيل لتمرق في صدور الطاعنين على كتاب الله الأعظم تقدست كلماته .

ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من المماراة والملاحجة والاختلاف في التنزيل بضرب بعضه ببعض ، وندد بالخوض فيه من غير تثبت وتدبر ولا تبين :

فقد روى الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن أبيه عن جده أنه قال : لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة (١) ، إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ، ويقول : مهلا يا قوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض (٢) : إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً ،

---

(١) قال الزمخشري في أساس البلاغة ١/١٥٤ : «... وقعد حجرة : أي ناحية ، والمعنى : أنهم جلسوا منفردين . وضبط (حجرة) بفتح الحاء وسكون الجيم وفتح الراء .

(٢) هذا بلاغ وإنذار ، وتهديد ووعيد لأولئك الذين يثيرون الفتنة بإبراز موهم التعارض والتناقض في التنزيل على غير تثبت من حقيقته وتعرف على الأسباب الموهمة للاختلاف .

فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » (١) .

كذلك روى الإمام أحمد - رضى الله عنه - عن عمرو بن شعيب أيضا عن أبيه عن جده أنه قال : -

(خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر - قال - وكأنما تفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب - قال - فقال لهم : « ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من كان قبلكم » قال : فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أشهده بما غبطت نفسى بذلك المجلس أنى لم أشهده » (٢) .

وروى الإمام الطبرى - فى تفسيره - عن الإمام ابن زيد أنه قال : « إن القرآن لايكذب بعضه بعضاً ، ولا ينقض بعضه بعضاً ، ما جهل الناس من أمره فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم ، وقرأ : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » قال : -

فحق على المؤمن أن يقول : كل من عند الله ، ويؤمن بالمتشابه ، ولا يضرب بعضه ببعض ، إذا جهل أمراً ولم يعرفه أن يقول : الذى قال : الله حق ، ويعرف : أن الله تعالى لم يقل قولا وينقضه ، ينبغى أو يؤمن بحقية ما جاء من الله » (٣) .

وقد نقل أبو حيان - فى تفسيره - عن ابن عطية المفسر أنه قال ، « فإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافا : فالواجب أن يتهم نظره ، ويسأل من هو أعلم منه .

---

(١) أنظر : مسند الإمام أحمد ١٨١/٢ وانظر تفسير ابن كثير : ٣٢٠/٢ .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ١٧٨/٢ وانظر تفسير ابن كثير ٣٢٠/٢ - ٣٢١

(٣) أنظر جامع البيان للامام الطبرى ٥ /١٧٩ - ١٨٠ .

وما ذهب إليه بعض الزنادقة المعاندين ، من أن فيه أحكاماً مختلفة ، وألفاظاً غير مؤتلفة : فقد أبطل مقالتهم علماء الإسلام .

وما جاء فى القرآن من اختلاف فى تفسير وتأويل ، وقراءة ، وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ، وعام وخاص ومطلق ومقيد : فليس هو المقصود فى الآية ، بل هذه من علوم القرآن الدالة على اتساع معانيه ، وإحكام مبانيه » (١) .

الأسباب الموهمة للاختلاف والتناقض

قيض الحق تبارك وتعالى لكتابه المبين من عكفوا على تدبر آياته وبصروا بوجوه دلالاته وفقهوا علومه، فردوا إلى محكمه متشابهاته ، وعرفوا وجوه خطابه ومرامى إشاراته وبيان مبهماته وتفصيل مجملاته وتعرفوا حقائقه وضروب مجازاته وتضافرت لهم أسباب الدراية بتأويل مشكلاته فنصبوا أنفسهم للذود عن حمى التنزيل ناضحين عن كتاب ربهم(٢) ، ورامين من رامه بالحجج النيرة والبراهين الساطعة ، كاشفين للناس مايلبسون.

ولقد أبرز هؤلاء الأثبات من علماء التنزيل — فى مصنفاتهم — تلك الأسباب الموهمة للاختلاف والتناقض ، فذكرها الإمام الزركشى — فى البرهان(١) كما أثبتها الإمام السيوطى — فى الاتقان(٢) - وتتمثل فيما يلى :

(السبب الأول) : وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى ، فهذا سبب لإيهام الاختلاف فى نحو ما جاء فى خلق أبينا آدم على نبينا وعليه

(١) أنظر : البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى : ٣٠٥/٣ .

(٢) قال الزمخشرى فى الأساس ٢/ ٤٥٠ « ... ونضحناهم بالنبل : فرقناهم : كما يفرق الماء بالرش » ومنه : ينضح عن نفسه ، دفع عنها » .

(١) أنظر البرهان ٥٤/٢ (٢) أنظر الاتقان ٨٤/٢ .

الصلاة والسلام : من قوله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ... »(١) وقوله تعالى مرة أخرى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون »(٢) وقوله تعالى مرة ثالثة : « ... إنا خلقناهم من طين لازب »(٣) ثم قوله سبحانه : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار »(٤) .

فقد اختلفت أسماء المادة التي خلق منها سيدنا آدم على نبينا وعليه السلام في الآيات الأربع وتفاوتت معانيها لاختلاف أحوالها ، إذ التراب غير الصلصال والصلصال غير الحمأ ، والحمأ غير التراب .

وبالتدبر : نجد أن مرجع هذه المسميات كلها إلى جوهر واحد وهو التراب، ومن التراب تدرجت في هذه الأحوال .

وقد بين القاضي البيضاوي هذا التدرج في تفسيره لقوله تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » إذ قال : « الصلصال : الطين اليابس الذي له صلصلة ، والفخار : الخزف . وقد خلق الله آدم من تراب جعله طينا ، ثم حمأ مسنونا ، ثم صلصالا : فلا يخالف ذلك قوله : « خلقه من تراب » ونحوه »(٥) .

ولنفس السبب أيضاً : وقع إيهام الاختلاف في قوله تعالى : « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين »(٦) بينه وبين قوله تعالى : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ... »(٧) : فإن الجان يطلق على الصغير من الحيات ،

---

(١) سورة آل عمران / ٥٩ (٢) سورة الحجر / ٢٦ .
(٣) سورة الصافات / ١١ (٤) سورة الرحمن / ١٤ .
(٥) أنظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٢٤١ ط الحلبي الثانية .
(٦) سورة الشعراء / ٣٢
(٧) سورة القصص / ٣١

والثعبان : هو الكبير منها وكلا التعبيرين أيضاً مطابق للواقع من جهة ما ، فإن العصا بعد تحولها : كان خلقها خلق الثعبان العظيم ، واهتزازها وحركتها وخفتها: كاهتزاز الجان وخفته ، فالتعبير الأول مناسب للعرض والصفات .

(السبب الثاني): اختلاف الموضوع أو المواقف(١) ، فقد نجم عن هذا السبب إيهام التناقض في آيات عديدة نذكر منها على سبيل المثال : --

أ -- بين قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »(٢) وبين قوله تعالى « فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون »(٣) ونحوه من قوله تعالى : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين(٤) وقوله سبحانه أيضاً: « وقفوهم إنهم مسئولون » (٥) .

وقد نقل صاحبا « البرهان » و « الاتقان »عن الامام أبي عبد الله الحليمي(٦) الجواب عن موهم التناقض في هذه الآيات بقوله : « فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، والثانية : على ما يستلزم الاقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه ، ثم قال الإمامان : « وحمله غيره على اختلاف الأماكن ، لأن في القيامة مواقف كثيرة ، فموضع : يسأل ويناقش ، وموضع

(١) أورد كل من الامامين الزركشي والسيوطي في مصنفه هذا السبب بقوله: « الثاني : لاختلاف الموضوع ، وأشار محقق الاتقان -- في الهامش -- أن في « بعض النسخ « لاختلاف الموضع » وهو مناسب لما أتى به في بيان هذا السبب في بعض أمثلته من حمل بعض العلماء له على اختلاف الأماكن .

(٢) سورة الرحمن /٣٩ (٣) سورة الحجر / ٩٢ .

(٤) سورة الأعراف / ٦ (٥) سورة الصافات/٢٤ .

(٦) هو الامام الحسين بن الحسن الحليمي البخاري الشافعي الفقيه المحدث المتكلم ت سنة ٤٠٣ هـ أنظر معجم المؤلفين ٣/٤ .

آخر : يرحم ويلطف به ، وموضع آخر : - يعنف ويوبخ - وهم الكفار - وموضع آخر لا يعنف : وهم المؤمنون .

ويقول الإمام ابن قتيبة في تأويله : « وأما ما أدعوه من التناقض في مثل قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » ، وهو يقول في موضع آخر : « وربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » : -

فالجواب في ذلك : أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى : « مقداره خمسين ألف سنة »(١) ، ففي مثل هذا اليوم يسألون - وفيه لا يسألون ، لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون ، فاذا انتهت المسألة ووجبت الحجة : « انشقت السماء فكانت وردة كالدهان »(٢) ، وانقطع الكلام ، وذهب الخصام ، واسودت وجوه قوم ، وابيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت الصحف من الأيدي ، فأخذ ذات اليمين إلى الجنة ، وأخذ ذات الشمال إلى النار .

وكذلك قال ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » قال : هو موطن لا يسألون فيه ، « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون »(٣) ا هـ .

ب — كذلك وقع - لنفس السبب - إيهام التناقض بين قوله تعالى :

---

(١) سورة المعارج / ٤

(٢) سورة الرحمن / ٣٧ .

(٣) أنظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بتحقيق الأستاذ السيد صقر ص : ٦٥ .

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ...»(١) وبين قوله تعالى: «فاتقوا الله ما استطعتم»(٢) حيث أن حق التقاة فوق حد الاستطاعة، والأمر به يناقضه الأمر بالمستطاع من التقوى، وقد رجع علماء التنزيل في إزالة هذا الإيهام إلى أهل التقوى والمعرفة من صفوة أقطاب الصوفية العارفين بالله تعالى وبأسرار كتابه المبين، فأصدر الامام الزركشي - وتبعه الامام السيوطي - عن سيدى الامام أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، في هذا المقام إذ قال: «يحكى عن الشيخ العارف: أبي الحسن الشاذلي(٣) رحمه الله أنه جمع بينهما، فحمل الآية الأولى: على التوحيد، والثانية: على الأعمال، والمقام يقتضي ذلك، لأنه قال بعد الأولى: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»(٤)»(٥).

ونقل عن العلماء: أن الآية الثانية ناسخة للأولى - وهذا وجه آخر في إزالة موهم التناقض - إذ قال العلامة ابن المنير: «الظاهر: أن قوله: «اتقوا الله حق تقاته» إنما نسخ حكمه، لا فضله وأجره، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم: «حق تقاته» بأن قال: «هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر» فقالوا: أينا يطيق ذلك؟؟ فنزلت «فاتقوا الله ما استطعتم»، وكان التكليف

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٢ (٢) سورة التغابن ١٦.

(٣) هو إمام الطريقة الشاذلية القطب الفرد الجامع والعالم الفقيه المحقق سيدى أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي - نسبة إلى شاذلة وهي قرية ببلاد المغرب من أفريقيا، وقد نزل الاسكندرية ونشر طريقته التي تربى بها أعلام وأئمة كالامام أبي العباس المرسي وغيره رضي الله عنهم وتوفي سنة ٦٥٦ هـ أنظر معجم المؤلفين ٧/ ١٣٧.

(٤) سورة آل عمران / ١٠٢

(٥) انظر البرهان ٢/ ٥٧ والإتقان ٣/ ٨٥

أولا : باستيعاب العمر بالعبادة بلا فترة ولانعاس ، كما كانت الصلاة خمسين ، ثم صارت بحسب الاستطاعة خمسا ، والاقتدار منزل على هذا الاعتبار ، ولم ينحط عن درجاته »(١).

وقد استدرك على ذلك الشيخ كمال الدين الزملكاني بقوله : « وفي كون ذلك منسوخا نظر ـ وقوله : « مااستطعتم » هو : « حق تقاته » ، إذ به أمر ، فإن « حق تقاته » الوقوف على أمره ودينه ، وقد قال بذلك : كثير من العلماء »(٢) اهـ

وأضاف صاحب البرهان قائلا : « والحديث الذي ذكره ابن المنير في تفسيره : « حق تقاته » : لم يثبت مرفوعا ، بل هو من كلام ابن مسعود(٣) ، رواه النسائي ، وليس فيه قول الصحابة : « أينا يطيق ذلك » . ونزول قوله تعالى : « فاتقوا الله مااستطعتم »(٤) .

حـ ـ كذلك وقع إيهام التناقض بين قوله تعالى : « .. ولا يكلمهم الله يوم القيامة »(٥) .

وبين قوله سبحانه : « فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون »(٦) إذ

---

(١) ، (٢) . انظر البرهان ٥٧/١ – ٥٨

(٣) أخرج الحاكم في مستدركه هذا الحديث بسنده عن مرة عن الإمام ابن مسعود مرفوعا وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه انظر :(المستدرك كتاب التفسير ٢٩٤/٢ (ونقل ذلك ابن كثير في تفسيره (٧١/٢ – ٧٢) وعقب عليه بقوله : (كذا قال والأظهر : أنه موقوف : والله أعلم) .

(٤) انظر البرهان ٥٨/٢ .

(٥) سورة البقرة/١٧٤

(٦) سورة الحجر /٩٢ - ٩٣

إفادة الآية الكريمة الأولى : نفي تكليم الله تعالى أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، بينما أفادت الآية الكريمة الثانية : إثبات تكليم الكفار بسؤالهم أجمعين عما كانوا يعملون ، ومن ثم : تقابل نفي التكليم في الأولى بإثباته في الثانية !!

والجواب عن ذلك : أن المنفي هو كلام التلطف والإكرام . والمثبت : هو سؤال التوبيخ والإهانة ، ومن ثم اختلف الموضوع - في الكلام المنفي - عنه : - في الكلام المثبت فانفكت الجهة ، فلا تناقض ولا تنافي (١)

د ـ ومما وقع إيهام التناقض فيـــه لاختلاف الموضوع أيضا : قوله تعالى: فإن خفتم ألا تعدلوا فـــواحدة »(١) مع قوله تعالى في نفس السورة : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)(٣) .

فإن الآية الكريمة الأولى يفهم منها إمكان العدل ، والثانية : يفهم منها نفي هذا الإمكان .

وقد أجيب عن ذلك : بأن العدل ممكن بين الزوجات إنما هو العدل في توفية حقوقهن التي أوجبها الشرع على الأزواج . بينما المراد بالعدل المنفي إمكانه : الميل القلبي الذي لا يدخل في استطاعة الزوج التحكم فيه وتطويعه . ومن ثم كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)(٤) . فناط العدل في الأولى غيره في الثانية .

---

(١) انظر ، البرهان ٢/٥٥ (٢) سورة النساء /٣

(٣) النساء / ١٢٩ (٤) أخرجه صاحب التاج الجامع للأصول:٢/٣٢٢

٣٢٣) عن أصحاب السنن عن السيدة عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وذكر أنه بسند صالح صححه ابن حبان .

وقد نقل الزركشي عن ابن عطية ـ في إزالة الإبهام ـ : أنه يمكن أن يكون المراد بالعدل ـ في الآية الكريمة الثانية ـ العدل التام ، وليس في الإمكان بالطبع(١) .

هـ ـ كذلك ما وقع فيه الإبهام ، لاختلاف المواقف : قوله تعالى : « .. لاتختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد »(٢) وقوله تعالى : « هذا يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون »(٣) ، مع قوله تعالى في موضعين آخرين : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون »(٤) و : « .. هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٥) .

فان الجواب عن ذلك : أنهم يختصمون أولا ، ويدعى المظلومون على الظالمين ، وهذا حال الإثبات ، فاذا وقع القصاص وثبت الحكم : قيل لهم : لاتختصموا ولا تنطقوا ولاتعتذروا ، فليس ذلك بمغن عنكم ، ولا نافع الحكم ، فيخسأون ، وهذا حال النفي .

وقد روى ابن قتيبة عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : أن رجلا جاء إلى عكرمة فقال : أرأيت قول الله تعالى : « هذا يوم لاينطقون » وقوله « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » ؟؟

فقال : إنها مواقف ، فأما موقف منها : فتكلموا واختصموا ، ثم ختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم ، فحينئذ : لايتكلمون(٦) .

---

(١) انظر : البرهان ٢/٥٨
(٢) سورة (ق) /٢٨
(٣) سورة المرسلات /٣٥
(٤) سورة الزمر/٣١
(٥) سورة القصص/٧٥
(٦) انظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص : ٦٦

و — ومن أمثلة ماوقع الإيهام فيه لاختلاف الموضوع أيضا : قوله تعالى: « ولا تكسب كل نفس إلا عليها »(١) مع قوله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٢) ، فى النص الكريم الأول : قصر كسب كل نفس على كونه عليها وهذا يتناقض بظاهره مع ما أفادته الآية الكريمة الثانية من كونه لها لا عليها .

والجواب عن ذلك : أن مدلول الكسب فى الآية الأولى غيره فى الثانية ، فهو فى الثانية : مايفعله الإنسان من الخير ، وقد جاء فيها مقابلا للاكتساب الذى هو : فعل الشر .

بينما أريد بالكسب فى قوله تعالى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » : فعل الشر والإثم .

وذلك بدليل : سبب النزول الذى أورده القرطبى فى تفسيره للآية قائلا : « روى أن الكفار قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ارجع يامحمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها فى دنياك وآخرتك ، فنزلت الآية »(٣)

والمعنى لقوله تعالى : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) : لا تؤخذ بما أتت من المعصية وركبت من الخطيئة سواها)(٤) ومن ثم كان موضوع الكسب فيها غير موضوعه فى الآية الأخرى ، وقد ذكر الإمام أبو الحسن الواحدى

---

(١) سورة الأنعام/١٦٤

(٢) سورة البقرة ٢٨٦

(٣) انظر تفسير القرطبى ١٥٦/٧

(٤) نفس المصدر السابق .

فى تفسيره أن الصحيح عند أهل اللغة : أن الكسب والاكتساب واحد لا فرق بينهما واستشهد لذلك بقول ذى الرمة : -

(. . . . . ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب)(١)

ومن ثم يكون استعمال الكسب فى كل من الخير والشر : استعمالا حقيقيا فى اللغة .

ز - كذلك من أبرز أمثلة ما وقع فيه إيهام التناقض لاختلاف الموضوع : قوله تعالى شأنه :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها »(٢) مع قوله تعالى : « إن الله لا يأمر بالفحشاء »(٣) .

فإن ظاهر الآية الكريمة الأولى موهم بأن المترفين قد أمروا بالفسق ففسقوا .. وهذه مناقض لمفاد الآية الكريمة الثانية من نفى أمره تعالى بالفحشاء .

ولكن هذا الإيهام سرعان ما يتبدد إذا ما أمعنا النظر فى تعرف المأمور به ، وفى دلالة الأمر ذاته ، فإنها هنا(٤) إما حقيقة وإما مجازية ، والحمل على الحقيقة أولى من الحمل على المجاز !! فإذا ما حمل الأمر على حقيقة - وهو ما نرجحه - ففى دلالته قولان : -

---

(١) أنظر تفسير البسيط للامام الواحدى ٦٠٤/١ .

(٢) سورة الاسراء /١٦ .

(٣) سورة الأعراف / ١٨ .

(٤) أى فى قوله تعالى : « أمرنا مترفيها » .

أولهما : أن المراد منه : التكليف بالفعل(١) ، وعليه : فالمأمور به عند أكثر العلماء هو الطاعات والخيرات ، والتقدير : أمرنا مترفيها بالطاعات ففسقوا فيها فحق عليها القول

وقد استبعد الزمخشري هذا التقدير معللا : بأن حذف مالا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ؟ وقال : « . . إن المأمور به إنما حذف ، لأن (فسقوا) يدل عليه » ومن ثم ذهب : إلى أن المأمور به إنما هو الفسق ، وأن الأمر هنا مجاز ، ووجهه : أنه تعالى صب عليهم النعمة صبا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم أمروا بذلك ، لتسبب النعمة فيه (٢) .

وقد رجح حكيم المفسرين الإمام الفخر - رضى الله عنه - متجه الأكثرين وهو أن دلالة الأمر حقيقية وأن المأمور به هو الطاعات ، وذلك : لأن الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقاً ينافى كونه مأموراً به ، كما يقال : أمرته فعصانى ، فان هذا لا يفهم منه أنى أمرته بالمعصية ، لأن المعصية منافية للأمر ومناقضة له ، فكذلك : أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق(٣) .

وثانيهما : أن الأمر هنا بمعنى التكثير ، وهو حقيقة لغوية فيه ، وقد نقل العلامة الفخر عن الإمام الواحدى رحمه الله أنه قال : « العرب تقول :

---

(١) قال الراغب فى مفرداته (ص ٢٤ ط الحلبي) : « الأمر : الشأن ، وجمعه أمور ، ومصدر أمرته ، إذا كلفته أن يفعل شيئاً ، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها . . »

(٢) أنظر : الكشاف ٢/٤٤٢ ط / الحلبي .

(٣) أنظر : مفاتيح الغيب ٥/٣٨٢ .

أمر القوم، إذا كثروا، وأمرهم الله: إذا كثرهم، وآمرهم أيضاً بالمد..

كذلك نقل القرطبي وغيره عن أبي عبيدة أنه قال: «آمرته - بالمد - وأمرته: لغتان بمعنى كثرته، ومنه الحديث: «خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة»(١)، أي كثيرة النتاج والنسل(٢).

وبحمل الأمر في الآية الكريمة على معنى التكثير: يكون سبب إيهام التناقض بينها وبين قوله تعالى «إن الله لا يأمر بالفحشاء»، هو اختلاف موضوع الأمر.

أما بحمله على التكليف بالفعل، فإن الإيهام يكون راجعاً إلى حذف متعلق الأمر وهو الطاعات.

(السبب الثالث من أسباب إيهام الاختلاف والتناقض): الاختلاف في جهة الفعل، وذلك: كقوله تعالى: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»(٣) حيث نفى قتل المؤمنين للكفار — مع حصوله في الواقع — وأسنده إليه تعالى، كما نفى الرمي عنه صلى الله عليه وسلم بقوله «وما رميت» بعد أن أثبته نصاً بقوله تعالى «إذ رميت» وأسنده إليه سبحانه بقوله «ولكن الله رمى».

---

(١) هذا الحديث الشريف خرجه الإمام الألوسي في تفسيره (٤٤/١٥) عن الإمام أحمد وابن أبي شيبة في مسنديهما وعن الطبراني في الكبير من حديث سويد بن هبيرة. وهو في المسند للإمام أحمد بسنده عن سويد ابن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير مال المرء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة» أنظر المسند ٤٦٨/٣.

(٢) أنظر تفسير القرطبي: ٢٣٢/١٠.

(٣) سورة الأنفال/ ١٧.

فلنتدبر كيفية إزالة الإيهام في ضوء سبب نزول الآية الكريمة . فقد روى أنه لما طلعت قريش من العقنقل(١) قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني فأتاه جبريل وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان تناول كفا من الحصباء فرمى بها في وجوههم . وقال ، شاهت الوجوه . فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا ، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم . ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر ، فيقول الرجل قتلت وأسرت ، فنزلت »(٢) .

من ثم نستوضح أن جهة انتفاء القتل والرمي عن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : إنما هي جهة الخلق والتأثير ، وأن جهة الإثبات إنما هي جهة الكسب والسبب والمباشرة (٣) .

وبتبصر انفكاك جهة النفي عن جهة الإثبات : يزول الإيهام .

---

(١) العقنقل : هو الكثيب العظيم من الرمل ، والمراد به : محل مخصوص عنده في بدر . وقد خرج الحافظ ابن حجر - من عدة طرق - أن الرمي المذكور كان ببدر خلافا لمن ذهب - كالطيبي - إلى أنه كان يوم حنين . (أنظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢٦١/٤) .

(٢) نقل الشهاب في حاشيته (٢٦١/٤) تخريج الامام السيوطي لهذا الحديث عن ابن جرير عن عروة مرسلا - وليس فيه أمر جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام بذلك - بينما جاء ذلك فيما أخرجه ابن جرير وابن مردوية عن الامام ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) من ثم قال في البرهان (٦٠/٢) : (وكذا قوله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » : أي ما رميت خلقا إذ رميت كسبا) : ومن ثم كان نفي الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه اثباته بالجهة الأخرى .

ومن أمثلة موهم الاختلاف بسبب الاختلاف فى جهتى الفعل أيضاً :

قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء »(١) مع قوله سبحانه : « ... وقوموا لله قانتين »(٢) .

فإن جهة الفعل فى آية النساء : هى القيام بالأمر بمعنى المراعاة للشىء وحفظه .

وأما جهة الفعل فى : «وقوموا لله قانتين» : فهى الانتصاب فى الصلاة(٣) .

(السبب الرابع لإيهام الاختلاف والتناقض) : الاختلاف فى الحقيقة والمجاز ، وهو راجع لما يسمى عند المناطقة (الاختلاف بالإضافة) وذلك كقوله تعالى : « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »(٤) . حيث أسند السكر إلى الناس ثم نفاهم عنه فى نفس الآية الكريمة .

والإيهام هنا يزول بمعرفة أن السكر المثبت إنما هو مجازى ، وأما السكر المنفى فهو الحقيقى ، وقد جسد الإمام الزركشى وجه الاضافة التى نيط بها الاختلاف فقال : « وهو - أى السبب الموهم للاختلاف - يرجع لقول المناطقة : الاختلاف بالاضافة أى : وترى الناس سكارى بالاضافة إلى أهوال القيامة مجازا ، وماهم بسكارى بالاضافة إلى الخمر الحقيقية (٥)

---

(١) سورة النساء /٣٤ .

(٢) سورة البقرة/٢٣٨ .

(٣) أنظر البرهان ٢/٦٠ ومفردات الراغب ص٤١٦ .

(٤) سورة الحج /٢ .

(٥) أنظر البرهان للزركشى ٢/٦٠ .

ولنفس السبب أيضاً: وقع الإيهام في قوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (١).

حيث جاء الإخبار بسماع الكفار مثبتاً ثم عقب بنفيه:

والجواب عن ذلك: أن السماع المثبت على حقيقته اللغوية التي هي إدراك الصوت بقوة في الأذن، وأما السماع المنفي: فهو مجاز عن التصديق والقبول، فهو سماع خاص، لكنه أتى به مطلقاً: للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلا، بجعل عامهم بمنزلة العدم (٢).

كذلك نجد الإيهام لنفس السبب في قوله تعالى: «وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» (٣). فإن فاعل النظر والإبصار في الآية الكريمة إما أن يكون الأصنام السابق ذكرهم في قوله تعالى: «والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون»(٤). وإما أن يكون المشركين. وعلى كل من الاحتمالين: فالإيهام واقع بإثبات النظر ونفي الإبصار: ولإزالة الإيهام نقول: إن كان فعلا النظر والإبصار مسندين إلى الأصنام: كان الإبصار المنفي على حقيقته والنظر المثبت مجازياً فيكون إطلاق النظر - في حق الأصنام - استعارة تصريحية تبعية بأن يشبه ما لهم من الهيئة - وهي كونها مقابلة بوجوهها أوجه القوم - بالنظر وإذا أسند فعلا النظر والإبصار إلى المشركين كان النظر على حقيقته، وكان الإبصار المنفي مجازاً عن الانتفاع بأبصارهم (٥).

---

(١) سورة الأنفال / ٢١.
(٢) أنظر حاشية الشهاب: ٢٦٣/٤.
(٣) سورة الأعراف / ١٩٨.
(٤) سورة الأعراف / ١٩٧.
(٥) أنظر: حاشية الشهاب ٢٤٧/٤.

وثمة طريق آخر لإزالة الإيهام في الآية الكريمة : وهو أن يبقى كل من النظر والإبصار على حقيقته ويفرق بينهما في أصل الدلالة فتنفك جهة الاختلاف ، وذلك أنه يتضح الدلالة اللغوية لمادة (النظر) : فجدأنه : يقال نظرت إلى كذا ، إذا مددت طرفك إليه رأيته أو لم تره ، ونظرت فيه : إذا رأيته وتدبرته ،(١). فالنظر المتعدي فعله إلى مفعوله بإلى - كما هنا - أعم من الرؤية وأما البصر : فيقال للجارحة الناظرة وللقوة التي فيها(٢) وهي القوة المدركة .

ومن ثم : لا يلزم من نفي النظر نفي الإبصار (٣) وعليه فلا إيهام للتناقض ولا للإختلاف(٤) .

(السبب الخامس للإيهام) : الاختلاف بوجهين واعتبارين ، وهذا السبب : هو الجامع للتفرقات العديدة من الظواهر الموهمة للاختلاف والتناقض في آيات شتى من التنزيل .

وقد ساق علماء التنزيل لهذا الوجه الجامع أمثلة عديدة نذكر منها ما يلي :-

(أ) قال تعالى : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم »(٥) .

---

(١) أنظر : المفردات للراغب /٤٩٧ .

(٢) أنظر : المفردات/٤٩ .

(٣) استدل العلماء على انفكاك هذه الملازمة بجواز قولهم : نظرت إليه فلم أبصره .

(٤) أنظر البرهان للزركشي ٢/٦١ .

(٥) سورة البقرة / ٢٧ .

وقال تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها (١) » .

فالآية الكريمة الأولى تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء ، بينما يقتضي ظاهر آيات « النازعات » المذكورة : أن خلق الأرض بعد السماء (٢) .

والجواب : أن الله تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السماء ثانياً ، ثم دحى الأرض - أي : بسطها (٣) - ثالثاً ، وذلك : لأنها كانت أولا كالكرة المجتمعة ، ثم إن الله تعالى مدها ، وبسطها بسطاماً لنبات الأقوات وهذا هو الذي بينه بقوله : « أخرج منها ماءها ومرعاها » (٤) ، وذلك ؛ لأن هذا الاستعداد لايحصل للأرض إلا بعد وجود السماء ، فإن الأرض كالأم والسماء كالأب ، وما لم يحصلا لم تتولد أولاد المعادن والنبات والحيوان (٥) .

(ب) قال تعالى : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في

---

(١) سورة النازعات ٢٧ — ٣٠ .

(٢) أنظر : مفاتيح الغيب ٢٤٥/١ ، ٣٢٨/٨ .

(٣) استشهد أهل اللغة على أن الدحى بمعنى البسط بما أورده الفخر في تفسيره (٣٢٨/٨) من قول زيد ابن عمرو بن نفيل :

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

(٤) سورة النازعات/٣١

(٥) أنظر مفاتيح الغيب ٣٢٨/٨ .

ستة أيام ... »(١).

وقال سبحانه : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ... »(٢) .

وعندما نتأمل فى هذه الآيات الكريمات جميعاً : نجد أن الآية الكريمة الأولى تفيد أن مدة خلق السماوات والأرض جميعاً هى ستة أيام :

وإذا ما أحصينا أيام خلق السماوات والأرض فى آيات سورة (فصلت) المذكورة : نجد أنها ثمانية أيام !! ومن ثم يتأتى إيهام الاختلاف والتناقض .

والجواب عن ذلك : أن اليومين المذكورين فى قوله تعالى « .. خلق الأرض فى يومين » داخلان فى الأربعة المذكورة فى قوله سبحانه : « وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » والتقدير : فى تتمة أربعة أيام ، ولم يرد بذكر الأربعة إلا ما يشمل اليومين المتقدمين وإنما قال «فى أربعة أيام » ولم يقل : فى يومين : للاشعار باتصالها باليومين الأولين والتصريح بالأربعة - كما ذكر القاضى البيضاوى - : على الفذلكة (٣) .

---

(١) سورة الأعراف / ٥٤ وسورة يونس / ٣

(٢) الآيات الكريمات ٩ - ١٢ من سورة فصلت .

(٣) أنظر تفسير البيضاوى ٢/١٨٦ ط الحلبى الثانية .

وقال الإمام الزركشي: « ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره(١) وهذا كما يقول الفصيح: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام. وسرت إلى الكوفة في ثلاثة عشر يوما، ولا يريد سوى العشرة بل يريد مع العشرة ثلاثة.

ثم قال تعالى: « فقضاهن سبع سماوات في يومين » وأراد: سوى الأربعة، وذلك: لا مخالفة فيه، لأن المجموع يكون ستة »(٢).

ج — قال تعالى: « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك »(٣).

وقال عز شأنه: « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى »(٤)

فقد أثبتت الآية الكريمة الأولى: أن لفرعون آلهة يعبدها. وقد روى عن الإمام الحسن رضي الله عنه أنه قال: « كان فرعون يعبد الأصنام »(٥)، بينما تفيد آية « النازعات »: أنه أدعى في قومه لنفسه الربوبية العليا.

ولقد كان سيدنا عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — يقرأ: « ويذرك وإلاهتك » أي: وعبادتك.

---

(١) أي: لم يرد مغايرتها لليومين المتقدم ذكرهما، بل أراد حصول الأربعة لهما.

(٢) أنظر: البرهان ٢/ ٦٣.

(٣) سورة الأعراف / ١٢٧.

(٤) سورة النازعات / ٢٣ — ٢٤.

(٥) أنظر مفاتيح الغيب ٤/ ٢٧٧.

فيقول: «كان فرعون يعبد ولا يعبد»(١) وعلى هذه القراءة: لا إشكال.

وأما على قراءة «وآلهتك»: فإن إيهام التناقض قائم.

وقد أجاب القاضي البيضاوي عن هذا الاشكال بما قيل من أنه صنع لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه، ولذلك قال: «أنا ربكم الأعلى»(٢) وعلى هذا تكون الإضافة فى قوله «وآلهتك»: إضافة على معنى الملك، بمعنى: ويذرك والآلهة التى تملكها(٣).

أما الامام الفخر رضى الله عنه فيقول فى جواب هذا الاشكال: «بل الأقرب أن يقال: إنه كان دهريا ينكر وجود الصانع، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلى هى الكواكب.

وأما المجدى فى هذا العالم للخلق ولتلك الطائفة والمربى لهم، فهو نفسه فقوله «أنا ربكم الأعلى»: أى مربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم. وقوله: «ما علمت لكم من إله غيرى»(٤)، أى: لا أعلم لكم أحدا يجب عليكم عبادته إلا أنا. وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال: إنه كان قد اتخذ أصناماً على صور الكواكب ويعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب، وعلى هذا التقدير: فلا امتناع فى حمل قوله تعالى: «ويذرك وآلهتك» على ظاهره. فهذا ما عندى فى هذا الباب، والله أعلم»(٥).

---

(١) ضبط (يعبد) الأولى: بالبناء للمجهول. والثانية مبنية للمعلوم أى: كان معبودا لا عابداً: أنظر المصدر السابق.

(٢) أنظر: أنوار التنزيل ١/١٧٠.

(٣) أنظر البرهان ٢/٦١.

(٤) سورة القصص /٣٨. (٥) أنظر مفاتيح الغيب ٤/٢٧٧.

(د) قال تعالى : «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب »(١) .

وقال عز من قائل : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »(٢)

ففي الآية الكريمة الأولى : بين سبحانه أن القلوب تطمئن بذكره تعالى ، والطمأنينة : هي السكون بعد الانزعاج(٣) ، فالذكر يكسب القلب أنساً به تعالى واعتماداً عليه ورجاء منه(٤) ثم بين سبحانه في آية الأنفال : أن المؤمنين الكاملين في الإيمان إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والوجل : هو استشعار الخوف ، فلن ذكر الله تعالى فزعت قلوب المؤمنين لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله سبحانه .

فكيف نجمع بين أمرين متقابلين هما : الطمأنينة والوجل ناتجين عن مؤثر واحد وهو ذكر الله تعالى ؟؟

والجواب عن ذلك : تضمنه القرآن الكريم نفسه في قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .. »(٥) فإن الذكر الحكيم يثمر في القلوب المستشعرة لخوف الله عز وجل مزيداً من الخشية لما فيه من الوعيد وكذلك فإن ذكر الله الأكبر بما يتضمنه من التوحيد والرحمة المشبعة بالرجاء : ينشرح له الصدر ويطمئن به القلب وتنبسط

---

(١) سورة الرعد/٢٨

(٢) سورة الأنفال/٢ (٣) أنظر : مفردات الراغب/٣٠٧

(٤) أنظر أنوار التنزيل البيضاوي ٢٠٢/١

(٥) سورة الزمر/٢٣ .

منه أسارير النفس فتصبح به مطمئنة . فالوجل والطمأنينة من وجهين غير متضادين .

• وفى هذا الصدد : يفيض المفسر الصوفى الحكيم الإمام فخر الدين الرازى قدس الله سره ببيان جامع بين إشراق المعرفة الصوفية ، وإشمام الحكمة العقلية فيقول : —

(قال المفسرون : والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح : فتلين قلوبهم إلى ذكر الله(١) .

وأقول . إن المحققين من العارفين(٢) قالوا : السائرون فى مبدأ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا(٣) — ثم قال — :

ويجب علينا أن نذكر فى هذا الباب : مزيد شرح وتقرير ، فنقول : الإنسان إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز

---

(١) ذكر الإمام الفخر — فيما سبق هذا النص الذى أوردناه — الأثر المقابل للين القلوب وهو القشعريرة ؛ وفسرها بأنها : تغير يحدث فى جلد الإنسان عند الوجل والخوف .

(٢)هذا إصدار من حكيم المفسرين وفخرهم عن محقق العارفين وهم : سادتنا الصوفية رضى الله عنهم وأغدق علينا من بركاتهم ، فهم من مصادر الفخر المعطاءة فى تفسيره وقولهم ينبىء عن تحققهم .

(٣) مفاد هذه العبارة الصوفية النيرة : أن لين القلب واطمئنانه بذكر الله إنما يحدث عن إشراق تجليات الجمال ، وأن وجل القلب وخشيته عند سماع الذكر الحكيم إنما يحدث بسطوة هيبة الجلال .

والجهة ، فهنا : يقشعر جلده ، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، مما يصعب تصوره ، فهنا : تقشعر الجلود .

أما إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فرداً أحداً ، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم ، فهنا : يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله»(١)

قال الإمام الفخر — رضي الله عنه — يذهب إلى أن مقامي : الوجل والطمأنينة ، أو : الخوف والرجاء : لا يجب قصرها على سماع آية العذاب وآية الرحمة ، بل : «ذاك أول تلك المراتب ، وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول الحالتين المذكورتين»(٢) .

ه — قال الله تعالى : «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»(٣) .

وقال — تبارك اسمه — «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»(٤) .

ففي الآية الكريمة الأولى : بين سبحانه أن مقدار اليوم الذي يعرج الأمر كله إليه فيه ، وهو يوم القيامة : ألف سنة(٥) .

(١، ٢) أنظر : مفاتيح الغيب ٢٤٧/٧ .

(٣) سورة : السجدة/٥ (٤) سورة المعارج/٤

(٥) هذا أحد الوجوه التي وردت عن المفسرين في تفسير الآية الكريمة ، وقد نص عليه البيضاوي قائلاً : وقيل : يدبر الأمر إلى قيام الساعة ، ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة ، أنظر أنوار التنزيل ١٢٤/٢ .

وفى الآية الكريمة الثانية : ذكر ـ تعالى شأنه ـ أن اليوم الذى تعرج فيه الملائكة والروح طوله خمسون ألف سنة . وهذا قول الامام الحسن رضى الله عنه فى تفسيرها (١) .

فكيف يزال إيهام الاختلاف والتناقض بين الآيتين الكريمتين على هذين التفسيرين ؟؟

والجواب عن ذلك من وجهين (٢) .

(أولهما) : أن ذكر المدة فى كل من الآيتين الكريمتين ليس على سبيل التحقيق ولكن على سبيل التقدير ، ففى آية (السجدة) جاء ذكر هذا المقدار : للاشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، قطعاً لتوهم انقطاعه ، فمعنى قوله تعالى : « فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » : يدبر الأمر فى زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه ؟ وكم تكون سنة ؟ وكم يكون دهر منه ؟؟ .

وعلى هذا الوجه : لا فرق بين هذا وبين قوله تعالى فى سورة المعارج « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » لأن ذلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفاً ، لا يتفاوت ، إلا أن المبالغة تكون فى الخمسين ألفا أكثر ، ولذا عبر بها فى سورة المعارج للمبالغة فى طول هذه المدة وفى سعة هذه المعارج ، وذلك على معنى أنه

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب ٢٠٨/٨ .

(٢) هذان الوجهان مترتبان على أن المراد باليوم المذكور فى كل من الآيتين الكريمتين هو يوم القيامة لأن ثمة أقوالا أخرى تفيد بأن المراد باليوم فيهما هو زمان العروج مطلقاً ، أنظر تفسير البيضاوى : ٢/ ١٢٥ ، ٣/ ٢٧٨ .

لو اشتغل بالقضاء بين الخلائق ومحاسبتهم أعقل الخلق وأذكاهم لظل فيه خمسين ألف سنة ، ولكن الله ـ تعالى شأنه ـ يتمم ذلك القضاء والحكومة فى مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ! !

وكذلك : تعرج الملائكة والروح إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لاستغرق فى ذلك الصعود خمسين ألف سنة ، ولكن الملائكة والروح يصعدون إليها فى ساعة قليلة ! ! وقد عزا الإمام الفخر لوهب وجماعة من المفسرين (١) .

(والوجه الثانى) أن ذكر المدة فى كل من الآيتين الكريمتين على سبيل التحقيق النسبى(٢) . فقد أورد الإمام القرطبى عن بعض العلماء من الأقوال ما يوفق به ـ على أساس تحقيق المدة ـ بين الآيتين فقال : « وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ، فمنه ما مقداره ألف سنة ، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة (٣) .

وقيل : أوقات القيامة مختلفة . فيعذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى : ٥٥٧/٦ ، ٢٠٨/٨ - ٢٠٩ .

(٢) مرادنا بالنسبى ههنا : أى بالنسبة لزمن الدنيا ، لأنه لا زمن فى الآخرة ، أو بالنسبة لبعض الخلائق دون بعض كما قال تعالى : « فذلك يوم عسير . على الكافرين غير يسير » سورة المدثر / ٩ — ١٠ .

(٣) على هذا : تنفك جهة الاختلاف بين الآيتين بأن اليوم فى كل منهما غير اليوم المذكور فى الأخرى .

وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفاً ، كل موقف ألف سنة ، فمعنى «... يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة » أى : مقدار وقت ، أو : موقف من يوم القيامة ،

وقال النحاس : اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ، فالمعنى : تعرج الملائكة والروح إليه فى وقت كان مقداره ألف سنة، وفى وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة »(١) .

ثم يضيف الامام الفخر — فى بيان اليوم المذكور فى سورة المعارج — تحقيقاً رائعاً يفيد عدم حصر يوم القيامة فى هذا المقدار ، كما يفيد نسبية هذا المقدار وعدم إطلاقه فيقول : —

« القول الأول : هو أن معنى الآية : أن ذلك العروج يقع فى يوم من أيام الآخرة ، طوله : خمسون ألف سنة ، وهو يوم القيامة . وهذا قول الحسن .

قال : وليس يعنى أن مقدار طوله هذا فقط : إذ لو كان كذلك : لحصلت له غاية ، ولفنيت الجنة والنار عند تلك الغاية ، وهذا غير جائز .

بل المراد : أن موقفهم للحساب — حتى يفصل بين الناس — : خمسون ألف سنة من سنى الدنيا ، ثم بعد ذلك : يستقر أهل النار فى دركات النيران نعوذ بالله منها .

واعلم أن هذا الطول : إنما يكون فى حق الكافر ، أما فى حق المؤمن : فلا . والدليل عليه : الآية والخبر ، أما الآية : فقوله تعالى : « أصحاب

---

(١) أنظر : الجامع لأحكام القرآن ١٤/٨٧ — ٨٩

الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً »(١) . واتفقوا على أن ذلك هو الجنة .

وأما الخبر : فما روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : ما أطول(٢) هذا اليوم !! فقال (رسول الله ﷺ)(٣) : والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه(٤) من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا »(٥) .

وأما إذا أريد باليوم فى كل من الآية الكريمتين : زمان العروج مطلقاً : فقد وفق الإمام البيضاوى بين الآيتين الكريمتين عند تفسير آية المعارج فقال : —

(معناه : تعرج الملائكة والروح إلى عرشه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، من حيث أنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان فيه لو فرض . لا أن ما بين أسفل العالم وأعلا شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ، لأن ما بين مركز الأرض ومقعر السماء الدنيا على ما قيل : — مسيرة خمسمائة عام وثخن كل واحدة من السماوات السبع ، والكرسى ، والعرش : كذلك .

---

(١) سورة الفرقان / ٢٤ .

(٢) فى الأصل : (ما طول هذا اليوم) بدون همزة ، والتصويب من تفسير ابن كثير الذى خرجه من المسند للإمام أحمد (٣/٧٥) . أنظر تفسير ابن كثير ٨/٢٤٩ ط / الشعب .

(٣) ما بين القوسين ليس فى الأصل . وقد أثبته من المصدر السابق ذكره .

(٤) فى الأصل (حتى يكون عليه أخف) والمثبت من المصدر السابق .

(٥) أنظر : مفاتيح الغيب ٨/٢٠٨ .

وحيث قال: «في يوم كان مقداره ألف سنة»: يريد زمان عروجهم من الأرض إلى محدب السماء الدنيا»(١).

و — قال الله عز وجل: «الله يتوفى الأنفس حين موتها ..»(٢)

وقال تعالى. «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون»(٣).

وقال جل شأنه: «.. حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون»(٤).

وقال تبارك اسمه: «الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم .....»(٥).

فقد اختلف فاعل التوفي في الآيات الكريمات الأربع، فالفاعل في الأولى: هو الله تعالى، وفي الثانية: ملك الموت، وفي الثالثة: رسل الله(٦)، وفي الرابعة: الملائكة!!.

وفي إزالة إيهام التناقض بين هذه الآيات الكريمات: يقول الإمام الفخر قدس الله سره:

---

(١) أنظر: أنوار التنزيل ٢/٢٦٨ وانظر نحو هذا القول معزوا إلى وهب بن منبه في (مفاتيح الغيب) للإمام الرازي ٨/٢٠٩.

(٢) سورة الزمر / ٤٢ (٣) سورة السجدة/١١

(٤) سورة الأنعام / ٦١ (٥) سورة النحل/٣٢

(٦) ذكر الإمام أبو السعود في تفسيره (هامش: مفاتيح الغيب ٤/ ١٩٩) أن المراد بقوله تعالى «رسلنا» في هذه الآية الكريمة: هم ملك الموت وأعوانه.

. . . أنه تعالى قال : «الله يتوفى الأنفس حين موتها»(١) وقال : «الذى خلق الموت والحياة . . »(٢) . فهذان النصان يدلان على أن توفى الأرواح ليس إلا من الله تعالى .

ثم قال : «قل يتوفاكم ملك المـــوت » : وهذا يقتضى : أن الوفاة لا تحصـــل إلا من ملك الموت . ثم قال فى هذه الآية : «. توفته رسلنا . .»(٤) ، فهذه النصوص الثلاثة كالمتناقضة !!

والجواب : أن التوفى فى الحقيقة يحصل بقدرة الله تعالى : وهو فى عالم الظاهر ، مفوض إلى ملك الموت ، وهـــو الرئيس المطلق فى هذا الباب ، وله أعوان وخدم وأنصار ، فحسنت إضافة التوفى إلى هذه الثلاثة بحسب الاعتبارات الثلاثة والله أعلم»(٥) .

ز — وقال الله تعالى : «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين»(٦) .

وقال سبحانه : «إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين»(٧) .

فى الآية الكريمة الأولى أخبر الحق تعالى أنه استجاب لرسوله الكريم ﷺ وللمؤمنين على أثر استغاثتهم ربهم جل وعلا . بأنه سبحانه ممدهم بألف من الملائكة متتابعين ، بعضهم فى إثر بعض .

---

(١) سورة الزمر/ ٤٢ (٢) سورة الملك/٢

(٣) سورة السجدة/ ١١ (٤) سورة الأنعام/٦١

(٥) أنظر : مفاتيح الغيب ٤/٥٩ (٦) سورة الأنفال/٩

(٧) سورة آل عمران/ ١٢٤ - ١٢٥ .

وفي الآية الكريمة الثانية : أخبر سبحانه بوعده للمؤمنين على لسان رسوله العظيم ﷺ : أنه تعالى يمدهم يوم بدر(١) بثلاثة آلاف من الملائكة ثم بخمسة آلاف أخر بشرط تحقق صبرهم وتقواهم وقد تحقق ذلك كله في يوم بدر بفضل الله تعالى .

ومن ثم : يستشكل بالاختيار بأن الإمداد كان بألف - كما في آية الأنفال - مع الاخبار - في سورة آل عمران - أن الامداد كان بثلاثة آلاف ثم بخمسة آلاف أخرى مشروطة !! .

والجواب عن ذلك : أن الله تعالى قد أمد أصحاب الرسول ﷺ بألف أولا . ثم زادهم ألفين فصاروا ثلاثة . ثم زاد ألفين فصاروا خمسة آلاف(٢) وقد نقل القرطبي ذلك عن سيدنا قتادة من السلف فقال:

« قال قتادة : كان هذا يوم بدر: أمدهم الله بألف، ثم صاروا ثلاثة ثم صاروا خمسة آلاف ، فذلك قوله تعالى: « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » وقوله : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » ؟؟ .

وقوله : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة ، على ما وعدهم، فهذا كله يوم بدر »(٣)

---

(١) هذا قول أكثر المفسرين أن هذا الوعد كان يوم بدر لا يوم أحد كما ذهب البعض ، أنظر مفاتيح الغيب ٢/٤٤ .

(٢) أنظر : المصدر السابق .

(٣) أنظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/١٩٤ .

كذلك يوفق الشيخ أبو السعود المفسر بين الآيتين عند تفسير آية الأنفال قائلا : -

وقرىء : بآلاف(١) ، ليوافق ما فى سورة « آل عمران » . ووجه التوفيق بينه وبين المشهور : أن المراد بالألف : الذين كانوا على المقدمة، أو : الساقة(٢) ، أو : وجوههم وأعيانهم ، أو من قاتل منهم ، واختلف فى مقاتلتهم ، وقد روى أخبار تدل على وقوعها »(٣) .

وقد أضاف الامام الآلوسى رضى الله عنه توفيقا آخر بين آية الأنفال - عند تفسيرها - وبين آية (آل عمران) فقال : -

(وصرح بعضهم : أن ما فيها(٤) بيان إجمالى لما فى تلك السورة(٥)) ، بناء على أن معنى « مردفين » : جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لأنفسهم وهو ظاهر فى أن المراد بالألف : الرؤساء المستتبعون لغيرهم »(٦) .

وهكذا يرتفع إيهام التناقض بين آى التنزيل بالوقوف على الاعتبارات

---

(١) أى قرىء قوله تعالى « فاستجاب لكم أنى ممدكم بآلاف من الملائكة مردفين » وقد عزا الآلوسى فى تفسيره : (١٧٤/٩) : هذه القراءة للسدى

(٢) يقال : ساقة الجيش لمؤخره . كأنهم يسوقون من أمامهم القتال أنظر : القاموس المحيط ٢٥٥/٣ .

(٣) أنظر : إرشاد العقل السليم بهامش : مفاتيح الغيب ٥٧٩/٤ .

(٤) مرجع الضمير المجرور هنا : هو سورة آل عمران .

(٥) المشار إليه هنا : سورة الأنفال .

(٦) أنظر : روح المعانى ١٧٤/٩ .

المتغايرة والوجوه المتعددة التى تنفك بها جهات التعارض ويزول إيهام التضاد .

ومن بركة العلم التى لا يسعنا التفريط فيها - فى هذا الصدد - : أن نستضىء بمشكاة ترجمان القرآن سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فقد كان له الباع الأطول فى إزالة الاشكال ورفع إيهام الاختلاف والتناقض بين آى التنزيل ، ولقد روى الامام السيوطى رضى الله عنه بعض المرويات فى هذا الباب فى إتقانه .

من ذلك ما أخرجه عن الحافظ عبد الرازق - فى تفسيره - والحاكم - فى مستدركه - باسنادهما عن سيدنا سعيد بن جبير رضى الله عنه أنه قال : « جاء رجل إلى ابن عباس فقال : « رأيت أشياء تختلف على من القرآن .

فقال ابن عباس : ما هو ؟؟ أشك ؟؟

قال : ليس بشك ، ولكنه : اختلاف .

قال : هات ما اختلف عليك من ذلك .

قال : أسمع الله يقول : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين(١) .

وقال : « ولا يكتمون الله حديثاً »(٢) فقد كتموا .

وأسمعه يقول : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »(٣) .

ثم قال : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون »(٤) .

---

(١) سورة الأنعام /٢٣ (٢) سورة النساء / ٤٢

(٣) سورة : المؤمنون/١٠١

(٤) سورة : سورة الطور/٢٥ .

وقال : « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . . . » حتى بلغ : « . . طائعين »(١) ثم قال فى الآية الأخرى : « . . . أم السماء بناها . . . » ثم قال : « والأرض بعد ذلك دحاها »(٢) وأسمعه يقول : « . . . كان الله . . »(٣) ، ما شأنه يقول : « وكان الله » ؟؟ .

فقال ابن عباس : — أما قوله : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » : فإنهم لما رأوا يوم القيامة ، وأن الله يغفر الذنوب ولا يغفر شركا ، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره : جحده المشركون ،(٤) رجاء أن يغفر لهم فقالوا : « والله ربنا ما كنا مشركين » فختم الله على أفواههم ، فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون !! .

فعند ذلك : يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا !! .

. وأما قوله : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فإنه إذا نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله : فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام

---

(١) سورة : فصلت/٩ - ١١ (٢) سورة النازعات/٣٠

(٣) أى : فى نحو قوله تعالى : « وكان الله عليما حليما » — سورة الأحزاب / ٥١ — وقوله تعالى : « وكان الله غفوراً رحيماً » سورة الأحزاب /٧٣ .

(٤) أى : جحدوا الشرك . وفى جواب حبر الأمة لنافع ابن الأزرق : أن المشركين يقولون يوم جمعهم للحساب « والله ربنا ما كنا مشركين » قال : فيختم على أفواههم وتنطق جوارحهم .

يتظرون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون(١).

وأما قوله : « خلق الأرض فى يومين » . فان الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض.

وأما قوله : « والأرض بعد ذلك دحاها » يقول : جعل فيها جبلا ، وجعل فيها نهراً ، وجعل فيها شجراً ، وجعل فيها بحوراً(٢).

وأما قوله : « كان الله . . » : فان الله كان ولم يزل كذلك : وهو كذلك : وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير . لم يزل كذلك .

فما اختلف عليك من القرآن : فهو يشبه ما ذكرت لك ، وإن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد أصاب الذى أراد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .(٣)

---

(١) أورد الإمام السيوطى عن الحافظ ابن حجر أنه قد جاء فى تفسير آخر : أن نفى المساءلة عند تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط ، وإثباتها فيما عدا ذلك . وهذا منقول عن السدى (أنظر الاتقان ٣/٨١).

وفى نفس المصدر أن الإمام ابن مسعود تأويل نفى المساءلة على معنى أن يطالب بعض الأنسباء من بعض العفو .

(٢) ومما أورده فى الاتقان من أجوبة أخرى : أن ثم فى (ثم استوى إلى السماء) بمعنى الواو . أو : أن المراد : ترتيب الخبر لا المخبر به كقوله تعالى فى سورة (البلد) « ثم كان من الذين آمنوا » أو أن (خلق) بمعنى قدر .

(٣) الاتقان ٣/٨٢ .

ثم لقد أورد — فى الإتقان — تعليقاً على جواب الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — عن السؤال الرابع المتعلق بقوله تعالى : « ... وكان الله .. » قال فيه(١) :-

« وأما الرابع وجواب ابن عباس عنه : فيحتمل كلامه أنه أراد أنه سمى نفسه « غفورا رحيما » ، وهذه التسمية مضت ؛ لأن التعلق انقضى . وأما الصفتان : فلا تزالان كذلك لا تنقطعان ، لأنه إذا أراد المغفرة أو الرحمة فى الحال أو الاستقبال وقع مراده قاله الشمس الكرمانى(٢) ، قال : ويحتمل أن يكون ابن عباس أجاب بجوابين :-

أحدهما : أن التسمية هى التى كانت وانقضت ، والصفة لا نهاية لها .

والآخر : أن معنى (كان) الدوام ، فإنه لا يزال كذلك .

ويحتمل أن يحمل السؤال على مسلكين ، والجواب على دفعهما . كأن يقال : هذا اللفظ يشعر بأنه فى الزمان الماضى كان غفوراً رحيما مع أنه لم يكن هناك من يغفر له أو يرحم .

وبأنه : ليس فى الحال كذلك ، لما يشعر به لفظ (كان) .

والجواب عن الأول : بأنه كان فى الماضى تسمى به ، وعن الثانى : بأن (كان) تعطى معنى الدوام ، وقد قال النحاة : « كان » لثبوت خبرها ماضياً دائماً أو منقطعاً » .

---

(١) جاء هذا التعليق فى سياق شرح الحافظ ابن حجر للحديث الوارد عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) هو العلامة شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانى شارح صحيح البخارى وصاحب كتاب عجائب القرآن فى سنة ٧٨٦ .

وقد أخرج ابن أبي حاتم – من وجه آخر – عن ابن عباس : أن يهودياً قال : إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً . فكيف هو اليوم ؟؟

فقال : إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً . . »(١)

إمتناع التعارض بين نصوص الكتاب والسنة

كما لا يقع التعارض مطلقاً بين آي التنزيل بعضها مع بعض لا يقع كذلك بين آي الكتاب العزيز والسنة المشرفة التي هي بيان وتفسير له ، كما قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(٢) وكما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه .. »(٣) .

بيد أنه قد يقع إيهام للتعارض بين الآية والحديث ، كما يقع بين آية وأخرى ، فمن أمثلة ذلك : قوله تعالى : « .. والله يعصمك من الناس »(٤).

مع ما رواه البخاري بسنده عن سيدنا أنس رضي الله عنه من أنه قال : « شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزلت « ليس لك من الأمر شيء » (٥) »(٦) .

---

(١) أنظر : الإتقان ٢/٨٣ وانظر : معترك الأقران ١/٩٨ – ٩٩ .

(٢) سورة النحل / ٤٤ .

(٣) أخرجه أبو داود عن المقدام بن معد يكرب في (باب لزوم السنة) من سننه ٤/٢٧٩ ط التجارية .

(٤) صدر الآية الكريمة : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس .. » سورة المائدة / ٦٧ .

(٥) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه ٣/١٧ ط محمد عبد اللطيف حجازي .

والجواب عن ذلك من وجهين :-

أولهما : أن حادثة أحد إنما كانت قبل نزول الآية الكريمة ، لأن غزوة أحد كانت سنة ثلاث من الهجرة ، وسورة المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة .

والثاني : أن المراد بالعصمة في الآية الكريمة : العصمة من القتل ، وفيه التنبيه على أنه ﷺ قد احتمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء دون تفريط في حق مولاه عز وجل ، وما أشد تكاليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام !!(١) .

كذلك مما وقع فيه إيهام التعارض بين الآية والحديث : قوله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »(٢) .

مع قوله ﷺ : « لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة »(٣) .

والجواب عنه من وجوه ثلاثة :-

الأول : وهو المنقول عن سيدنا سفيان الثوري وغيره : أن النجاة من النار إنما تكون بعفو الله تعالى ، وأن دخول الجنة إنما هو بفضل الله تعالى ورحمته . وأما انقسام المنازل والدرجات في الجنة فإنه يكون على

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب ٤٣١/٢ والبرهان للزركشي ٦٦/٢ .

(٢) سورة النحل /٣٢ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المرضى من صحيحه ٦/٤ .

قدر الأعمال الصالحة فى الدنيا ، يؤيد ذلك ما رواه الترمذى وابن ماجه باسنادهما عن سيدنا سعيد بن المسيب أنه لقى سيدنا أبا هريرة رضى الله تعالى عنهما ، فقال أبو هريرة : أسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة ، فقال سعيد : أفيها سوق ؟ قال : نعم ، أخبرنى رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم . . . »(١) الحديث .

والثانى : أن معنى الباء فى الآية الكريمة : السببية العادية ، بينما مدلولها فى الحديث الشريف : السببية الحقيقية(٢) ، والفرق بينهما : أن السببية الحقيقية يتوقف فيها وجود المسبب على وجود السبب حتما بينما لا يلزم — فى السببية العادية — من وجود السبب أن يوجد المسبب . ومن ثم : فان الله عز وجل أن يعذب الطائع ، لعدم ترتب الثواب على الطاعة بسببية حقيقية بينما لو تفضل سبحانه بفضله ورحمته لأثيب العبد ولو كان مسيئاً . وهذا لا يقدح فى صدق وعده سبحانه للصالحين بالمثوبة . فان هذا الوعد بفضله ورحمته .

والثالث : من وجوه إزالة التناقض بين الآية والحديث : أن الباء فى الآية الكريمة ليست بمعنى السببية ، وإنما هى باء المقابلة ، وهى التى تدخل على الأعواض ، نحو (اشتريته بألف ، و « كافأت إحسانه بضعف » وقد نص على ذلك من أئمة العربية : جمال الدين بن هشام النحوى الذى قال عند هذا الموضع من معانى الباء : « ومنه : « أدخلوا الجنه بما كنتم تعملون » ، وإنما لم تقدرها باء السببية — كما قالت المعتزلة وكما قال الجميع

---

(١) أنظر سنن الترمذى : كتاب صفة الجنة ٤/ ٦٨٥ ، وانظر سنن ابن ماجه : كتاب الزهد ٢/ ١٤٥٠ .

(٢) أنظر روح المعانى للإمام الآلوسى ١٤/ ١٣٤ .

ف « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » — . لأن المعطى بعوض قد يعطى مجاناً ، وأما المسبب : فلا يوجد بدون السبب . وقد تبين أنه لا تعارض بين الحديث والآية ، لاختلاف محل الباءين ، جمعاً بين الأدلة.(١) .

أسس الترجيح عند إيهام التعارض

تقدم فى بيان معنى الاختلاف والتناقض : أن التناقض فى اللفظ ما ضاده من كل جهة على حسب ما تقتضيه الأسماء . وذلك لا يوجد فى الكتاب ولا فى السنة على الإطلاق !! .

وإنما يوجد النسخ فيهما فى وقتين ، بأن يوجب حكما ثم يحله ، وهذا ليس بتناقض ؛ بل التناقض لا يكون إلا فى إثبات ما نفى أو نفى ما أثبت بحيث يشترك المثبت والمنفى فى الاسم والحدث والزمان والأفعال والحقيقة . كما ذكره أبو بكر الصيرفى فى شرح الرسالة الشافعية (٢) وبمقتضاه : يكون التعارض فى النسخ منفكا فى الزمان بين الناسخ والمنسوخ ، ولكنه قبل تعرف هذا الانفكاك الزمنى يظل تصور التعارض قائماً ما لم يقطع الإجماع باستعمال إحدى الآيتين فيعرف نسخها وتنفك جهة التعارض باستلزام ذلك لتأخر الناسخ عن المنسوخ .

من ثم نقل فى (البرهان) عن أبى إسحق الاسفرايينى أنه قال : — « إذا تعارضت الآى(٣) ، وتعذر فيها الترتيب والجمع : طلب التاريخ ،

---

(١) أنظر . مغنى اللبيب لابن هشام بتحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ١٠٤/١ ط صبيح .

(٢) أنظر . البرهان ٥٣/٢ .

(٣) أى إذا ظهر التعارض قبل تعرف نسخ إحدى الآيتين الأخرى .

وترك المتقدم منها بالمتأخر ، ويكون ذلك نسخا له ، وإن لم يوجد التاريخ وكان الإجماع على استعمال إحدى الآيتين : علم بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل بها .

قال : ولا يوجد فى القرآن آيتان متعارضتان تعريان (١) عن هذين الوصفين (٢) .

ومن ثم وضع أثبات العلماء أسسا للترجيح يؤخذ بها عند إيهام التعارض (٣) وتتمثل هذه الأسس فيما يلى . —

الأول . تقديم المكى على المدنى من حيث ترتيب النزول غالباً ، إذ أن غالب الآيات المكية كان نزولها قبل الهجرة . ثم يقدم الحكم بالآية المدنية على المكية فى التخصيص والتقديم .

والثانى : إذا كان أحد الحكمين على غالب أحوال أهل مكة والآخر على غالب أحوال أهل المدينة . يقدم الحكم بالخبر الذى فيه أحوال

---

(١) فى النص المنقول فى البرهان (تعريان) وفى المنقول فى الاتقان ، تخلوان ، وما أثبته مستقى من لحوى السياق .

(٢) أنظر البرهان ٢/٤٨ وعبارة الإتقان ، ولا يوجد فى القرآن آيتان متعارضتان تخلوان من هذين الوصفين ، أنظر الاتقان ٣/٨٩

(٣) إنما نقول إيهام التعارض لأنه لا وجود للتعارض الحقيقى بين نصوص الكتاب العزيز ، يقول الإمام الشاطبى فى الموافقات (٤/٢٠٢) بتحقيق محمد محي الدين (التعارض إما أن يعتبر من جهة ما فى نفس الأمر وإما من جهة نظر المجتهد . أما من جهة ما فى نفس الأمر ، فغير ممكن بإطلاق . وقد مر آنفاً فى كتاب الاجتهاد من ذلك فى مسألة أن الشريعة على قول واحد ما فيه كفاية . وأما من جهة نظر المجتهد : فممكن بلا خلاف . .)

أهل المدينة . وذلك كقوله تعالى : « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » (١) مع قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى . . » (٢) .

فإذا أمكن بناء كل واحدة من الآيتين على البدل : جعل التخصيص في قوله تعالى : « ومن دخله كان آمناً » كأنه قال : إلا من وجب عليه القصاص .

والثالث : تقديم الظاهر المستقل بحكمه بنفسه على مايعارضه من الظاهر الذي لا يستقل بنفسه عما يقتضى لفظا يزاد عليه ، وذلك كقوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله . . » (٣) .

مع قوله سبحانه : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » (٤)

فإن مفاد قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » الأمر بإتمامهما ببلوغ آخرهما بعد الدخول فيهما (٥) والمنع من الاحلال منهما عند المرخص .

بينما أفاد قوله تعالى : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » جواز الإحلال الذي هو سبب وجوب الهدى عند الإحصار ، وهذا الإحلال غير مذكور

---

(١) سورة آل عمران / ٩٧ .

(٢) سورة البقرة / ١٧٨ .

(٣) ، (٤) سورة البقرة / ١٩٦ .

(٥) أورد الكيا الهراسي (أبو الحسن الطبرى) هذا التفسير عن الإمام مجاهد في (أحكام القرآن) بتحقيق الشيخ موسى محمد علي والدكتور عزت عطية : ١ / ١٢٣ .

في الكلام . لذا رجحت دلالة صدر الآية لعدم توقف الحكم فيها على مقدر (١) .

والرابع : تقديم حمل كل واحد من العمومين على ما قصد به في الظاهر : على تخصيص كل واحد منهما بالمقصود من الآخر .

وذلك كقوله تعالى : « ... وأن تجمعوا بين الأختين »(٢) حيث ذهب البعض إلى أن الجمع فيما يخص بملك اليمين المذكور في قوله تعالى «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ... » (٣) على معنى : وأن تجمعوا بين الأختين في ملك اليمين . كما ذهب إلى تخصيص عموم الإباحة في قوله تعالى « أو ما ملكت أيمانكم » بما يفيده قوله تعالى : « وأن تجمعوا بين الأختين » من تحريم الجمع بين الأختين المملوكتين .

فالأولى : أن تحمل آية الجمع على العموم ، فيكون القصد فيها : بيان ما يحل وما يحرم .

وأن تحمل آية الإباحة على زوال اللوم فيمن أتى بحال (٤) .

والخامس : تخصيص أحد الاستعمالين بلفظ تعلق بمعناه : والآخر بلفظ تعلق باسمه .

---

(١) أنظر : البرهان ٢ / ٤٩ والنص فيه على جانب من خفاء المراد . وانظر هذا الترجيح في (الإحكام) للآمدي ٤/ ٣٤٠ط بيروت .

(٢) سورة النساء /٢٣ .

(٣) سورة النساء / ٣ .

(٤) أنظر البرهان ٢/٤٩ .

وقد مثل الزركشي لذلك بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم .. »(١)

فإن لقوله تعالى « أو آخران من غيركم » متجهين في الدلالة والاستعمال قال بهما المفسرون : أحدهما : أن المراد به : أو شهادة آخرين من غير دينكم وملتكم إذا كنتم في السفر . فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة في الحضر والسفر . وشهادة غير المسلمين لا تجوز إلا في السفر . وهذا قول الأئمة : ابن عباس وأبي موسى الأشعري وغيرهما(٢)

وعلى هذا الاستعمال : تخصص شهادة الغير الكافر بالتبين المشروط في شهادة الفاسق (٣) . في قوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »(٤).

ولذا قال الزركشي : « فيمكن أن يقال في الآية بالتبين من شهادة الفاسق إذا كان ذلك من كافر على مسلم أو مسلم فاسق على كافر ، وأن يقبل الكافر على الكافر وإن كان فاسقاً »(٥) .

---

(١) سورة المائدة / ١٠٦ .

(٢) أنظر : مفاتيح الغيب ٣/٤٦٢ .

(٣) فإن الفاسق داخل مع الكافر في شمول معنى الغير له وتعلقه به ، لا فتقاد عدالته وليس لأنه بثابته .

(٤) سورة الحجورات /٦ .

(٥) ، (٦) أنظر : البرهان ٢/٥٠ ، وانظر أحكام القرآن لالكيا الهراس ٢/٢١١ .

وقتى المتحيرين فى الدلالة والاستعمال : أن يحمل ظاهر قوله تعالى :
« أو آخران من غيركم » على معنى : من غير قبيلتكم وليس من غير ملتكم
فى هذا تخصيص للغير بالقبيلة ؛ لأنه يرجع إلى الإسم . على عموم الغير .
وعلى هذا : يحمل الأمر بالتثبت على عموم للنسيان فى الملة ، لأنه رجوع
إلى تعيين اللفظ (١) .

والسادس : ترجيح ما يعلم بالخطاب ضرورة على ما يعلم منه ظاهراً .
وذلك : كتقديم دلالة قوله تعالى « وأحل الله البيع .. »(٢) على حل البيع :
على دلالة قوله تعالى « وذروا البيع . . »(٣) على فساد البيع ، وذلك :
لأن قوله تعالى « وأحل » يدل على حل البيع ضرورة ، بينما دلالة الأمر
بترك البيع فى « وذروا البيع » على فساد البيع ليست لازمة بالضرورة
وإنما يستفيدها من يقول بها من ظاهر الخطاب (٤) .

والسابع : ترجيح ما يؤيده دليل العقل على ما يعارضه الدليل
العقلى(٥) .

---

(١) ، (٢) ما قبله .

(٢) سورة البقرة / ٢٧٥ .

(٣) سورة الجمعة / ٩

(٤) نقل الكيا الهراسى عن الإمام مالك رضى الله عنه : أنه قال :
« قوله « وذروا البيع » يدل على فساد البيع ، ورآه أخص من العمومات
الواردة فى البيع .. أى أن البيع لما حرم دليل على فساده . أنظر أحكام
القرآن ٤ / ٤٧١ .

(٥) اقتصر العلامة الزركشى فى بيان المرجحات عند التعارض على
ذكر الأسس الستة التى ذكرناها قبل ثم أضفنا إليها هذا الأساس السابع
الذى أورد مضمونه فى القول عند تعارض آى القرآن والآثار ..

وقد نقل صاحب (البرهان) عن الإمام الباقلانى رحمه الله تبيان هذا الأساس وابتناء الترجيح عليه عند ظهور إيهام التعارض فقال عليه الرضوان :-

«وقال القاضى أبو بكر (١) فى «التقريب» : لا يجوز تعارض آى القرآن والآثار، وما توجبه أدلة العقل، فلذلك : لم يجعل قوله تعالى : «الله خالق كل شىء» (٢) معارضا لقوله : «.. وتخلقون إفكا» (٣)، وقوله : «.. وإذ تخلق من الطين ..» (٤)، وقوله : «فتبارك الله أحسن الخالقين» (٥) لقيام الدليل العقلى : أنه لا خالق غير الله تعالى :

فيتعين تأويل ما عارضه، فيؤول قوله : «وتخلقون» بمعنى تكذبون : لأن الإفك نوع من الكذب.

وقوله : «وإذ تخلق من الطين»، أى تصور.

---

(١) هو الإمام المتكلم سيف أهل السنة وأحد أساطين علماء الأمة القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، المعروف بالباقلانى الأشعرى المالكى (ت٤٠٣ هـ) وكتابه المذكور هو كتاب «التقريب والإرشاد» فى أصول الفقه، أشار إليه الامام السيوطى فى الاتقان (١/ ٤٨ ط حجازى) وذكره الأستاذ السيد صقر فى مقدمة كتاب «إعجاز القرآن» للباقلانى ص ٤٧ ط / دار المعارف.

(٢) سورة الزمر /٦٢.

(٣) سورة العنكبوت / ١٧.

(٤) سورة المائدة /١١٠.

(٥) سورة المؤمنون/١٤

ومن ذلك قوله : «إن الله بكل شيء عليم»(١) ، لا يعارضه قوله : «أتنبئون الله بما لا يعلم»(٢) ، فإن المراد بهذا : ما لا يعلمه أنه غير كائن ويعلمونه وقوع ما ليس بواقع ، لا على أن من المعلومات ما هو غير عالم به وإن علمتموه .

وكذلك لا يجوز جعل قوله تعالى : «إن الله لا يخفى عليه شيء...»(٣) معارضاً لقوله : «حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»(٤) «(٥)» ، وقوله: «إلى ربها ناظرة»(٦) معارضاً لقوله : «لا تدركه الأبصار»(٧) . في تجويز الرؤية وإحالتها ، لأن دليل العقل يقضي بالجواز ، ويجوز تخليص النفي بالدنيا ، والإثبات بالقيامة»(٨) .

وهكذا يكون الدليل العقلي مرجحا لدلالة على أخرى عند قيام إيهام التعارض في آي التنزيل الحكيم ، ولا تعارض ولا تناقض في الحقيقة كما سبق تبيانه ، وإنما الإيهام راجع إلى نظر المجتهد في تعرف دلالة آي

---

(١) سورة المجادلة / ٧ . (٢) سورة يونس / ١٨ :

(٣) سورة آل عمران / ٧ .

(٤) سورة محمد (صلى الله عليه وسلم) / ٣١ .

(٥) لم يبين الزركشي هنا تأويل العلم الذي هو غاية البلاء وتأويله أنه العلم باعتبار تعلقه الحالي الذي هو مناط الجزاء ، فالعلم له منزلتان: علم بالشيء قبل وجوده وعلم بعده وهو مناط الحكم ، فالمعنى هنا حتى يتعلق علمنا بالمجاهدين والصابرين موجودين : أنظر : البسيط للواحدي ٣٢٧/١ وتفسير البيضاوي ٣٨/١ .

(٦) أي في قوله تعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» من سورة القيامة /٢٢ - ٢٣ .

(٧) سورة الأنعام / ١٠٣ .

(٨) أنظر : البرهان للزركشي ٥١/٢ - ٥٢ .

الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

هذا ما قدر لنا بحثه من علم « مشكل القرآن وموهم الاختلاف والتناقض » أزال الله تعالى به عنا الإشكال وأماط عنا الإبهام وكشف عن قلوبنا الحجب والأغلفة والأكنة والريون لنحظى بالتشرف بمعرفة أسرار حقائق كتابه المبين ونكون من خاصة أهله وورثته المحمديين في الدنيا ويوم الدين بجاه رحمة الله العظمى للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه تعالى عليه وعلى آله وورثته الكاملين المتحققين وأحقنا بهم في عليين آمين آمين يارب العالمين .

○○○

الباب الرابع

في

علم المجمل والمبين

في القرآن الكريم

من أجل وأهم علوم التنزيل التي يتوقف على معرفتها فهم الكتاب العزيز والوقوف على تفسيره ، علم مجمله ومبينه ، ذلك : لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وقد وقفنا الإمام الجليل جلال الدين السيوطي رضي الله عنه على أبعاد هذه الحقيقة في علم « معرفة شروط المفسر وآدابه »(١) فقال : —

« قال العلماء : من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن ، فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه .

وقد ألف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع وفسر في موضع آخر منه ، وأشرت إلى أمثلة منه في نوع « المجمل » ، فإن أعياه ذلك ، طلبه من السنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له . . . »(٢) .

وعلم « المجمل والمبين » من علوم المعاني المتعلقة بأحكام القرآن الكريم ،

---

(١) (٢) أنظر الاتقان بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤/١٧٤ .

ومن ثم : تناوله الأصوليون بالبحث عن أصناف دلالات المنظوم من الكتاب ، والسنة ، والإجماع(١) . وفي نطاق تقسيم الألفاظ باعتبار وضوحها ورجحانها في المعنى وفي الدلالة وعدم وضوحها ورجحانها(٢) ولذا قال صاحب « مفتاح السعادة » بصدد التعريف بعلم « معرفة عام القرآن وخاصه ، ومجمله ومبينه » ، ومباحث هذا العلم في علم الأصول ، ومن أتقنها : سهل عليه معرفتها في الآيات القرآنية،(٣) .

ولضرورة تعرف هذا العلم المتصدى للتفسير صنف الحافظ ابن الجوزى فيه الكتاب الذى ذكره الإمام السيوطى فيما أوردناه عنه آنفاً ، وهو الذى استقى منه بعض مادته في تناوله لهذا العلم في « الاتقان » كما صرح به نفسه .

وخليق بنا أن نتعرف - في مستهل بحثنا في هذا العلم - معنى المجمل في اللغة ، ثم في اصطلاح الأصوليين ثم نتعرض لبيان معنى المبين والبيان(٤)

---

(١) أنظر : الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الآمدى ٢/١٨٨ ط / دار الكتب العلمية ببيروت .

(٢) أنظر : منهاج الوصول في علم الأصول للقاضي البيضاوى بشرحى الأسنوى والبدخشى ١/١٩٠ .

(٣) أنظر . مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لطاش كبرى زادة : ٢/٤٤٢ .

(٤) تناول الأصوليون هذا العلم تحت عنوان « المجمل » فقط بينما تناوله الإمام السيوطى في (الاتقان) ٣/٥٢ تحت عنوان : « النوع السادس والأربعون : في مجمله ومبينه » وذلك لأن الدراسة القرآنيـــة تستهدف تعرف التبيين بإزاء الإجمال في الآيات ، بينما ينظر الأصوليون إليه باعتبار خفاء الدلالة وعدم رجحانها . (أنظر الأحكام للآمدى ٣/٩) .

أما المعنى اللغوي: فقد اشتق الآمدي مدلول «المجمل» من صاحب «المجمل»(١)

فقال: «وهو في اللغة(٢) مأخوذ من الجمع. ومنه يقال: «أجمل الحساب» إذا جمعه ورفع تفاصيله. وقيل: هو المحصل، ومنه يقال: «جملت الشيء»: إذا حصلته، هكذا ذكره صاحب «المجمل» في اللغة»(٣)

وأما معنى «المجمل» في اصطلاح الأصوليين: فقد عرفه الآمدي بأنه «ماله دلالة على أحد أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه»(٤)

فقوله: «ما له دلالة»: ليعم الأقوال والأفعال وغير ذلك من الأدلة المجملة.

وقوله: «على أحد أمرين»: احتراز عما لا دلالة له إلا على معنى واحد.

---

(١) المراد به: العلامة اللغوي الكبير أحمد بن فارس بن زكريا (ت سنة ٣٩٥هـ) صاحب كتاب (المجمل) في اللغة.

(٢) قال في المفردات (ص/٩٨): «وحقيقة المجمل: هو المشتمل على جملة أشياء كثيرة غير ملخصة».

ونقل الأسنوي في شرحه على منهاج البيضاوي (١٩١/١ ط صبيح) عن القرافي: أن المجمل مأخوذ من الجمل وهو الاختلاط (الاختلاط المراد بغيره).

(٣) أنظر: الأحكام للآمدي ٩/٣.

(٤) نفس المصدر ١١/٣.

وقوله لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه : احتراز عن اللفظ الذى هو ظاهر فى معنى وبعيد فى غيره ، كاللفظ الذى هو حقيقة فى شىء ، ومجاز فى آخر .

ومن التعاريف الصحيحة المجمل : أنه « ما خفيت دلالته على المراد لتعدد معانيه وتساويها مع انتفاء القرينة لأحدها بخصوصه »(١) .

وقد أورد الإمام السيوطى — فى الاتقان — بيانا للعلامة على بن الحصار الإشبيلى ت سنة ٦١١ فرق فيه بين المجمل والمحتمل ، بأن المجمل : (هو اللفظ المبهم الذى لا يفهم المراد منه) .

وأن المحتمل : (هو اللفظ الواقع بالوضع الأول على معنيين مفهومين فصاعدا سواء كان حقيقة فى كلها أو بعضها) وأضاف قائلا .

« والفرق بينهما ، أن المحتمل يدل على أمور معروفة ، واللفظ مشترك متردد بينهما .

والمبهم : لا يدل على أمر معروف ، مع القطع بأن الشارع لم يفوض لأحد بيان المجمل بخلاف المحتمل »(٢) .

وبتأمل كلام ابن الحصار ، نجده قد حصر المجمل فى « المبهم » ، وبهذا لا يكون جامعا لبعض أفراد المجمل من الأفعال كما صرح الآمدى . كما أن فى قوله (المبهم الذى لا يعرف المراد منه) إجمالا فى تعريف المجمل ثم إن قطعه بعدم تفويض الشارع لأحد بيان المحمـــل . قد سلك به مسلك الأحناف الذين يرون أن بيان المجمل لا يكون إلا من متكلمه الذى

---

(١) أنظر أصول الفقه للشيخ طه عبد الله الدسوقى ص/ ١٥٤ ط لجنة البيان العربى سنة ١٩٦٦ .

(٢) أنظر : أصول الاتقان ٢/ ٥٨ .

أحدها، بينما يكتفى الشافعية فى تعيين أحد احتمالى «المجمل» أدنى ما يفيد الترجيح(١).

كذلك قوله أن (المبهم لا يدل على أمر معروف): لا ينطبق على باشتراكه، فكلا معنييه معروف والمفتقد لبيانه هو القرينة المرجحة لأحدهما بخصوصه، ولهذا قال الشافعية بعموم المشترك فى معانيه(٢).

وأما معنى «المبين» فإنه مأخوذ من البين وهو فى أصل اللغة: بعد الشيء وانكشافه، يقال: بأن الشيء وأبان: إذا اتضح وانكشف، وفلان أبين من فلان، أى: أوضح كلاما منه(٣) وقال الراغب: «والبيان: الكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق مختص بالإنسان، ويسمى ما بين به: بيانا..»(٤) وقال: «وسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره نحو: «هذا بيان للناس»(٥) وسمى ما يشرح به «المجمل» و: «المبهم» من الكلام بيانا نحو ما قوله: «ثم إن علينا بيانه»(٦)، ويقال: بينته وأبنته: إذا جعلت له بيانا تكشفه نحو: «لتبين للناس ما نزل إليهم»(٧)، ...»(٨) «المبين(٩) عند الأصوليين إطلاقان: ـ

---

(١) أنظر الأحكام للآمدى ٣/٤٠.

(٢) أنظر أصول الفقه للأستاذ عباس متولى حمادة ص/٤٤.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/٣٢٧ — ٣٢٨.

(٤) انظر المفردات: ص ٦٩

(٥) سورة آل عمران/١٣٨

(٦) سورة القيامة/١٩

(٧) سورة النحل/٤٤.

(٨) انظر المفردات: ص ٦٩

(٩) ضبط المبين هنا: بضم الميم وفتح الباء والياء المشددة (اسم مفعول).

احدهما : أنه يطلق ويراد به : ما كان من الخطاب المبتدأ المستغنى بنفسه من بيان .

وثانيها : أنه يطلق مرادا به . ما كان محتاجاً إلى البيان وقد ورد عليه بيانه ، وذلك : كاللفظ المجمل إذا بين المراد منه ، وكالعام بعد تخصيصه والمطلق بعد تقييده ونحو ذلك (١) .

وأما البيان : فقد رجح الآمدى أنه هو الدليل وقد عرفه – فى عرف الأصوليين – بأنه : ما يمكن التوصل به إلى العلم بمطلوب خبرى ، وينقسم إلى عقلى محض وسمعى محض ، ومركب من الأمرين (٢) .

والقول بأن البيان هو الدليل هو مختار كبار متكلمى الأشاعرة كالامام الباقلانى وحجة الاسلام الغزالى كما ارتضاه أكثر المعتزلة (٣) .

وبعد التعرف على مدلولات المجمل والمبين والبيان فى اللغـــة وعند الأصوليين – وهى مباحث لابد من إتقانها أصوليا كما صرح صاحب مفتاح السعادة ، لاستجلاء حقيقتها فى الآيات الفرقانية – : نتوجه إلى رحاب التنزيل لنتعرف بمجمله ومبينه .

---

(١) أنظر الإحكام للآمدى ٣٤/٣ .

(٢) أنظر الإحكام للآمدى ٣٣/٣ – ٣٤ ، ١٢/١ .

(٣) رجح الآمدى تعريف البيان بحد الدليل على ماذهب إليه أبو عبد الله البصرى وغيره من أن البيان هو العلم الحاصل من الدليل . لأن حصول العلم عن الدليل يسمى تبيناً ، وقد يكون الحاصل عن الدليل ظناً لا علما . كما تعقب تعريف الصيرفى للبيان بأنه هو التعريف المعبر عنه باخراج الشىء عن حيز الأشكال إلى حيز الوضوح والتجلى ، بأنه غير جامع لما يدل على الحكم من غير سابقة إجمال . أنظر الاحكام ٣٣/٣ .

فنجد الإمام السيوطي رضي الله عنه يدفع أولا - قول من أنكر وقوع المجمل في التنزيل فيقول :

« وهو واقع في القرآن ، خلافا لداود الظاهري ، وفي جواز بقائه مجملا أقوال ، أصحها : لا يبقى المكلف بالعمل به بخلاف غيره » (١) .

وقد دل التنزيل على وجود المجمل فيه بقوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (٢) .

في تفسير الآية الكريمة الأخيرة يقول البيضاوي عليه الرضوان: « .. بيان ما أشكل عليك من معانيه وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب » (٣) .

وقال الإمام الفخر قدس الله سره : « قوله تعالى : « ثم إن علينا بيانه » يدل على أن بيان المجمل واجب على الله تعالى . أما عندنا . فبالوعد والتفضيل ، وأما عند المعتزلة فبالحكمة » (٤) .

كذلك دل القرآن الكريم على اشتماله على المجمل بقوله سبحانه « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٥) فقد قال الإمام فخر الدين في تفسيرها :-

---

(١) أنظر : الاتقان ٣/٥٣ .

(٢) سورة القيامة / ١٦ - ١٩ .

(٣) أنظر : أنوار التنزيل ٢/٢٨٨ .

(٤) أنظر : مفاتيح الغيب ٨/٢٦٦ .

(٥) سورة النحل / ٤٤ .

« ظاهر هذا الكلام يقتضي أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمفتقر إلى البيان : « مجمل » . فظاهر هذا النص يقتضي أن القرآن كله مجمل !!

فلهذا المعنى : قال بعضهم : متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر : وجب تقديم الخبر ، لأن القرآن مجمل ، والدليل عليه : هذه الآية !! ، والمبين مقدم على المجمل .

والجواب : أن القرآن منه محكم ومنه متشابه : والمحكم يجب كونه مبيناً فثبت أن القرآن ليس كله مجملاً ، بل : فيه ما يكون مجملاً : فقوله « ولتبين للناس ما نزل إليهم » : محمول على المجملات »(١) .

أسباب الإجمال

لوقوع الإجمال أسباب عديدة بينها العلماء في مصنفاتهم الأصولية والقرآنية ، وقد أورد الإمام السيوطي - عليه الرضوان - منها في الإتقان أسباباً تسعة :-

(الأول منها) الاشتراك(٢) كما في قوله تعالى :

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب : ٥/٣١٢ .

(٢) يعرف الاشتراك بأنه هو كون اللفظ موضوعة لحقيقتين مختلفتين وضعاً أولاً من حيث هما كذلك . والمشترك قد يكون للضدين ، كالجون للأبيض والأسود وكالقرء للحيض والطهر وقد يكون للجزء والكل ، كالإمكان للعام والخاص والذات والصفة كالشمس : للجرم والضوء والجرم والصفة : كالناطق للمدرك واللافظ ، والأشياء المختلفة كالعين : للباصرة والدوارة والذهب وقرص الشمس ونفس الشيء وموضع من الركية والجاسوس (شرح البدخشي على المنهاج ١/١٨٨ ، ٢٣١) .

« والليل إذا عسعس »(١) فإن لفظ عسعس موضوع لأقبل وأدبر ، وكما في قوله سبحانه : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »(٢) فإن القرء موضوع للحيض والطهر. فهذان مثالان للاشتراك في اللفظ المفرد وقد يقع الاشتراك في اللفظ المركب كما في قوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح »(٣) ، فإنه يحتمل الزوج والولي ، إذ كل منهما بيده عقدة النكاح (٤)

السبب (الثاني) : الحذف ، كما في قوله تعالى : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ... »(٥) فإنه يحتمل تقدير كل من « في » و « عن » ، على معنى وترغبون في نكاحهن ، أو : عن نكاحهن(٦) .

(الثالث) : اختلاف مرجع الضمير ، كما في قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »(٧) فإن الكلام يحتمل عود ضمير الفاعل في « يرفعه » إلى ما عاد عليه ضمير « إليه » ، وهو الله تعالى.

كما يحتمل عود الضمير إلى « العمل » ، على معنى أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب .

---

(١) سورة التكوير /٧ .

(٢) سورة البقرة /٢٢٨

(٣) سورة البقرة /٢٣٧ .

(٤) أنظر : الأحكام للآمدي ١١/٢ - ١٢ وأنظر الاتقان ٥٣/٢

(٥) سورة النساء/١٢٧ (٦) أنظر : الاتقان ٥٣/٢

(٧) سورة فاطر/١٠

كذلك يحتمل عود الضمير في « يرفعه » على الكلم الطيب ، والمعنى : أن الكلم الطيب — وهو التوحيد — يرفع العمل الصالح ، لأنه لا يصح العمل إلا بالتوحيد (١) .

(الرابع) الوقف والابتداء (٢) ، وعبر عنه الإمام السيوطي : باحتمال العطف والاستئناف ، كما في قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . . . » (٣) وقد سبق بيان ذلك في علم « المحكم والمتشابه » .

(الخامس) غرابة اللفظ كما في قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن . . . » (٤) فإن العضل أصله : الشد بالعضل ، ثم تجوز به في كل منع شديد (٥) ويقال (عضلت — بالتشديد في الضاد — على فلان) بمعنى : ضيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد (٦) كذلك يطلق العضل على الحبس والتضييق ، ومنه : عضلت الدجاجة : إذا نشب بيضها فلم يخرج (٧) .

(السادس) : عـــدم كثرة الاستعمال الآن كما في نحو قوله تعالى « يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » (٨) فإن المعنى إما . يلقى الشياطين

---

(١) أنظر : الاتقان ٢/٥٣ .
(٢) هكذا أطلق عليه الآمدي في (الأحكام) ٣/١٢ .
(٣) سورة آل عمران/٧
(٤) سورة النساء/١٢٧ (٥) أنظر : الاتقان ٣/٥٣
(٦) سورة فاطر /١٠ (٧) . . . . .
(٨) هكذا أطلق عليه الآمدي (في الأحكام) ٣/١٢ .

سمعهم إلى الملأ الأعلى - أى يسمعون - وإما : يلقون مسموعهم من الملأ الأعلى إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم (١).

ومثله قوله تعالى «ثانى عطفه..»(٢) أى متكبرا، إذ يستعمل ثنى العطف كناية عن التكبر أو مطلق الإعراض.

(السابع) : التقديم والتأخير فى الكلام، كما فى قوله تعالى : «ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى»(٣) فأصله : ولولا كلمة.. وأجل مسمى لكان لزاما. والمعنى : ولولا العدة بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم - وهو يوم القيامة أو يوم بدر - لكان العذاب لازماً حصوله لهم (٤).

وإنما فصل الأجل عما عطف عليه - بالجواب - : للدلالة على استقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب، ومن ثم : كان للتقديم والتأخير فائدة معنوية جلى رغم سببيتهما فى الإجمال، لإيهام عطف الأجل على جواب لولا.

وقد مثل لذلك الإمام السيوطى أيضاً بقوله تعالى : «يسألونك كأنك حفى عنها»(٥) فذكر أن ترتيب الكلام : يسألونك عنها كأنك حفى(٦) والمعنى : يسألونك عن الساعة كأنك حفى - أى شفيق - تتحفى بهم فتخصهم

---

(١) سورة آل عمران / ٧ (٢) سورة البقرة / ٢٣٢.

(٣) أنظر المفردات ص / ٣٣٨.

(٤) أنظر أساس البلاغة ١٢٤/٢ ط دار الكتب.

(٥) أنظر تفسير البيضاوى ٥٢/١.

(٦) سورة الشعراء / ٢٢٣.

لأجل قرابتهم بتعليم وقتها ، وقيل : معناه : كأنك حفى بالسؤال عنها تحبه من حفى بالشيء إذا فرح - أن تكثره ، لأنه من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه (١) .

(الثامن) : قلب المنقول ، وقد مثل له فى الاتقان بقوله تعالى: (وطور سينين ›(٢) .

أى : سيناء ، قال البيضاوى فى تفسيره : ‹ يعنى الجبل الذى ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ، وسينين وسيناء : اسمان للموضع الذى هو فيه ›(٣) .

كما مثل له بقوله تعالى ‹ سلام على إل ياسين ›(٤) أى على إلياس : وقد قال البيضاوى فى تفسيره : ‹ لغة فى إلياس ، كسيناء وسينين ، وقيل جمع له ، مراد به هو واتباعه كالمهلبين ، لكن فيه : أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام)(٥) .

(التاسع) : التكرير القاطع لوصل الكلام فى الظاهر كما فى قوله تعالى : ‹ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ...›(٦) فإن قوله تعالى : ‹ لمن آمن منهم › بدل من الذين استضعفوا ، بدل الكل - إن كان الضمير لقومه - وبدل البعض - إن كان للذين ...›(٧) .

---

(١) أنظر تفسير البيضاوى ١٧٩/١ .
(٢) سورة التين / ٢ .
(٣) أنظر تفسير البيضاوى ١٧٩/١ (٤) سورة الصافات / ١٣٠
(٥) أنظر تفسير البيضاوى ١٦٠/٢ (٦) أنظر : الاتقان ١٩/٢ ط الحلبي
(٧) أنظر تفسير البيضاوى ١٧٩/١ .

هذه الأسباب القسمة للاجمال فى التنزيل أوردها الإمام السيوطى فى « الاتقان » .

وقد أورد العلامة الآمدى – فى الإحكام – جملة أخرى من أسباب الاجمال نذكر أبرزها – على إثر ما اوردناه – فيما يلى :–

« العاشر » : تردد اللفظ بين مجازاته المتعددة عند تعذر حمله على حقيقته .

ولم يورد الآمدى أمثلة لوقوع هذا السبب فى التنزيل ، بيد أنى استظهرت مثاله محلاه فى كثير من متشابه الصفات ، كما فى نحو قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم »(١) ، فإنه يتعذر حمل لفظ اليد – هنا – على حقيقته التى هى الجارحة ، ومن ثم تأول جمهور الخلف من الأشاعرة معنى اليد فى الآية الكريمة بعدة تأويلات منها أنها بمعنى القدرة ، أو القوة ، أو النعمة وذلك على سبيل الاستعارة كما مر بيانه(٢) . وفى تردد لفظ « اليد » بين هذه المجازات . يكمن سر الاجمال .

« الحادى عشر » : تخصيص العموم بصور مجهولة ، أو بصفة مجهولة ، أو باستثناء مجهول .

أما تخصيصه بصور مجهولة : فلم يورد له الآمدى مثالا من التنزيل ، بل مثل له بمثال عام فقال : « كما لو قال « اقتلوا المشركين » ، ثم قال بعد ذلك : « بعضهم غير مراد لى من لفظى »(٣) ، فإن قوله « اقتلوا المشركين » بعد ذلك يكون مجملا غير معلوم .

---

(١) سورة الفتح /١١ .

(٢) أنظر ص ٧٦ من هذا الكتاب .

(٣) وهذا التخصيص غير وارد فى القرآن الكريم بهذه الصور المجهولة لذا قلنا إنه مثال عام

وأما تخصيص العموم بصفة مجهولة : فقد مثل له من التنزيل بقوله تعالى « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين »(١) . فإن تقييد الحل بالإحصان مع الجهل بما هو الإحصان يوجب الإجمال فيما أحل(٢) .

وأما تخصيص العموم باستثناء مجهول ، فهو كقوله تعالى : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » (٣) فإن المستثنى ههنا مجمل بدليل تردد المفسرين في تقديره ، إذ يقول البيضاوى عند هذا الموضع من تفسيره : « .. إلا محرم ما يتلى عليكم ، كقوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة .. » (٤) أو ؟ إلا ما يتلى عليكم تحريمه » (٥) . ومن ثم قال الآمدى : « فإنه مهما كان المستثنى مجملا فالمستثنى منه كذلك »(٦) وقال : « وكذا الكلام في تقييد المطلق »(٧) .

« والثاني عشر » : إخراج اللفظ - في عرف الشرع - عما وضع له في اللغة - عند القائلين بذلك - قبل بيانه لنا ، ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .. »(٨) وقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا .. »(٩) .

---

(١) سورة النساء /٢٤ (٢) أنظر الأحكام للآمدى ٣/١٣
(٣) سورة المائدة /١ (٤) سورة المائدة /٣
(٥) أنظر أنوار التنزيل للبيضاوى ١/١١١ .
(٦) أنظر : الأحكام ٣/١٣ .
(٧) أنظر الأحكام ٣/١٣ .
(٨) سورة البقرة /٤٣ .
(٩) سورة آل عمران /٩٧ .

فان كلا من ألفاظ الصلاة والزكاة والحج يكون مجملا ، وذلك : لعدم إشعار اللفظ بما هو المراد منه بعينه من الأفعال المخصوصة ، لأنه مجمل بالنسبة إلى الوجوب »(١) .

تلك أبرز الأسباب التي يقع بها الإجمـــال في التنزيل ، وبشوط بها الإبهام بيد أن الحق تبارك وتعالى — جلت حكمته وعظمت رحمته — قد تكفل بالبيان وعهد إلى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وســـلم بالتبيين ، فقال عز من قائل : « ثم إن علينا بيانه »(٢) .

وقال جل شأنه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »(٣)

ومن ثم نتناول بعد ذكر أسباب الإجمال : —

مواقع التبيين

يقع التبيين لما أجمل في التنزيل على أنحاء ثلاثة : —

« الأول » اتصاله بالمجمل في التنزيل ، ومجيؤه عقبه مباشرة في نفس الآية كما في قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ... »(٤) .

فقد جاء بقوله سبحانه : « من الفجر » بياناً مباشراً للخيط الأبيض ، ولولاه لما عرف مدلوله ، يقول القاضي البيضاوي عند تفسيرها : « شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين : أبيض ، وأسود ، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله « من الفجر » عن بيان الخيط الأسود ، لدلالته عليه ، وبذا خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل »(٥) .

« والثاني » : انفصاله عن المجمل في التنزيل ، ومجيئه في آية أخرى ،

---

(١) أنظر : الاحكام للآمدي ٣/١٣ . (٢) سورة القيامة /١٩

(٣) سورة النحل /٤٤ (٤) سورة البقرة/١٨٧

(٥) أنظر : أنوار التنزيل ١/٤٤

وأكثر التبيين فى القرآن الكريم على هذا النحو ، فمن ذلك : قوله تعالى : « مالك يوم الدين »(١) جاء تبيانه فى قوله تعالى : « وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله »(٢) .

وقوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . . »(٣) جاء بيانه فى قوله سبحانه : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »(٤) .

وقوله جل شأنه . « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم . . (٥) قال العلماء : إن بيان هذا العهد قوله تعالى : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً »(٦) فهذا عهده . وعهدهم : « لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . .

وقد دل على أن هذين هما العهدان المذكوران فى آية « البقرة » قوله تعالى بعدها مباشرة : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية . . . »(٧) .

وكذلك قوله تعالى شأنه : « صراط الذين أنعمت عليهم . . »(٨) جاء تبيين الموصول وصلته فيها فى قوله سبحانه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

---

(١) سورة الفاتحة /٤ (٢) سورة الانفطار/١٧ — ١٩

(٣) سورة البقرة/٣٧ (٤) سورة الأعراف/٢٣

(٥) سورة البقرة/٤٠ (٦) سورة المائدة/١٢

(٧) سورة المائدة/١٣ (٨) سورة الفاتحة/٧

والصالحين وحسن أولئك رفيقاً »(١) جعلنا الله تعالى بحقهم عنده فى معيتهم أبد الآبدين ومن رفقائهم المقربين . اللهم آمين .

« الموقع الثالث للتبيين » : فى السنة المحمدية الغراء ، وذلك بمقتضى قوله تعالى شأنه «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »(٢) حيث قال القاضى البيضاوى عند تفسيرها « لتبين للناس ما نزل إليهم : فى الذكر بتوسط إنزاله إليك مما أمروا به ونهوا عنه ، أو : مما تشابه عليهم . والتبيين أعم من أن ينص بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل »(٣) .

وقال صاحب الإتقان عليه الرضوان : « وقد يقع التبيين بالسنة ، مثل : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »(٤)، «ولله على الناس حج البيت»(٥) وقد بينت السنة أفعال الصلاة والحج ومقادير نصب الزكوات فى أنواعها »(٦) .

ومن ثم : تبرز معاضدة السنة الشريفة للقرآن العظيم بالبيان والتبيين كما قال عز شأنه : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٧) .

آيات بين الإجمال والتبيين

هناك آيات وقع فيها الاختلاف بين العلماء : أهى من قبيل المجمل أم من قبيل المبين » ؟ ؟

---

(١) سورة النساء/٦٩ (٢) سورة النحل/٤٤

(٣) أنظر أنوار التنزيل ٢٧٣/١ (٤) سورة البقرة/٤٣

(٥) سورة آل عمران/٩٧ (٦) أنظر : الاتقان للامام السيوطى ١٩/٢ ط الحلبى

(٧) سورة النحل/٦٤ .

ومن حق البحث أن نسوق أمثلة منها لنتعرف وجهات الأنظار وحيثيات الإجمال لدى القائلين به فيها ومتمسك القائلين بانتفائه عنها.

فمن ذلك أولا: قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما»(١).

فقد ذهب بعض الأصوليين إلى أن فيها إجمالا في لفظ «اليد» وفي لفظ «القطع».

أما في لفظ «اليد» فلأنه يطلق على جملة العضو إلى المنكب، وعليه إلى المرفق وعليه إلى الكوع، وليس أحد هذه الاحتمالات أظهر من الآخر. فلذا كان لفظ «اليد» في الآية مجملا.

وأما في لفظ «القطع» فلأنه يصدق على بينونة العضو من العضو على شق الجلد الظاهر من العضو بالجرح دون إبانة للعضو. ومن ثم كان كل من اللفظين مجملا.

وقال آخرون: إنه لا إجمال في اللفظين، لأن لفظ «اليد» حقيقة في جملة العضو إلى المنكب ومجاز فيما عداه، بدليل صحة القول — إذا أبينت اليد من المرفق أو الكوع —: هذا بعض اليد لا كلها.

وأيضاً: لفظ «القطع» حقيقة في إبانة الشيء عما كان متصلا به، ومجاز في إطلاقه على إبانة بعض أجزائه عن بعض.

ولا يقال — بناء على أن تسمى اليد حقيقة في جملتها إلى الكوع — إنه لو كان الأمر كذلك لما وجب الاقتصار في قطع يد السارق على قطعة من الكوع، لما فيه من مخالفة الظاهر.

إذ يقال: بأنه — رغم استلزامه مخالفة الظاهر — إلا أنه أولى من

---

(١) سورة المائدة/٣٨.

القول بالإجمال فى كلام الشارع ، ومن ثم ترجح الأخذ بالأغلب ، حتى لا يؤدى القول بالإجمال إلى تعطيل اللفظ عن الإعمال فى الحال إلى حين قيام الدليل المرجح(١) .

ومما وقع الاختلاف فى إجماله كذلك: قوله تعالى «وامسحوا برءوسكم»(٢) ، إذ قال بعض الأحناف: إنه مجمل ، لتردده بين مسح الكل ومسح البعض ، وقالوا بأن ما روى من مسحه ﷺ بناصيته هو بيان لمجمل الآية الكريمة .

ومذهب الإمام مالك رضى الله عنه وآخرين : إنه لا إجمال فى الآية ، وذلك بحكم وضع اللغة حيث أن الباء أصل فى الإلصاق وقد دخلت على المسح وقرنته بالرأس واسم الرأس حقيقة فى كله لا بعضه ، فذلك مقتضى متفهم مسح جميع الرأس . وليس ثمة إجمال .

ومذهب إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : أن عرف استعمال أهل اللغة الطارىء على الوضع الأصلى حاكم عليه باقتضاء إلصاق المسح بالرأس فقط مع قطع النظر عن الكل والبعض ، بدليل إنه لو قال قائل : مسحت يدى بالمنديل ، فإن السامعين يجوزون أنه مسح بكله وببعضه غير فاهمين لزوم وقوع المسح بالكل أو البعض ، بل بالقدر المشترك بين الكل والبعض وهو مطلق المسح ، فيجب أن يكون كذلك نفياً للتجوز والاشتراك فى العرف . ومن ثم : فلا وجه للقول بالإجمال فى الآية

---

(١) أنظر الأحكام للآمدى ٢/٢٥ — ٢٦ . والاتقان ٢/١٩ .

(٢) سورة المائدة/٦

الكريمة لا بالنظر إلى أصل وضع اللغة ، ولا بالنظر إلى عرف الاستعمال(١) .

ومن الآيات التي وقع الاختلاف في إجمالها أيضاً . قوله تعالى «حرمت عليكم أمهاتكم...(٢) الخ .

فاحتج القائلون بأنها مجملة(٣) : بأن إسناد التحريم إلى العين لا يصح ؛ لأنه إنما يتعلق بالفعل فلا بد من تقديره والتقدير محتمل لا حاجة لجميعها ولا مرجح لبعضها !! وقال آخرون : بأنه لا إجمال ، لوجود المرجح - وهو العرف - فإنه يقضي أن المراد هو تحريم الاستمتاع بوطء ونحوه . ويجري ذلك في كل ما تعلق به التحليل والتحريم من الأعيان . والله تعالى أعلم .

---

(١) أنظر : الأحكام للآمدي ١٧/٣ - ١٨ والاتقان ١٩/٢ .

(٢) سورة النساء /٢٣ .

(٣) نقل الآمدي في الأحكام (١٤/٣) القول بالإجمال فيها عن الكرخي وأبي عبد الله البصري ، خلافاً لأهل السنة وبعض المعتزلة كالقاضي عبد الجبار والجبائي وأبي هاشم فقد وافقوا أهل السنة في القول بأن التحليل والتحريم المضافين إلى الأعيان لا إجمال فيه .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين على ما أتم وأنعم وتفضل على عبده بالتوفيق. إلى تناول هذه المباحث من علوم كتابه العزيز ، والخوض في غمارها ، والتعرف على منابع العلم الفياضة التي روت القلب والعقل فأينعت تلك الثمار من الجنان معلقة على تلك الأفنان كأنها ثمار من الجنان دانية القطوف للمتناولين ! !

وأشهد أن بحار علوم التنزيل - دونما غلو أو مبالغة - لا ساحل لها ولا قرار ، فإني كلما تناولت مسألة من تلك المباحث تراءت لي فيها مساحات وأبعاد دونها طاقة البشر ويحسب من الحقيقة في دروب المعرفة أن تدأب قدماه على الصراط المستقيم دون انحراف أو التواء ، فإنه مهما تقاصرت القوى مع وثوق الهمم وصدق العزائم : فلن تقدم الطائل ، فإن من سار على الدرب وصل ! !

وأشهد أنني كلما طرقت جانباً من جوانب بحثي هذا جمعت همتي الكلمة مستشعراً عجزي أمام عظمة علوم كلام الله ، متوجها إليه سبحانه باستمداد فتحه وفيضه ، وسرعان ما أجد سحاب الكرم تهطل وغمائم الجود تنهل فأقول : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » ! !

وإن خير ما سعدت به نفسي في هذا البحث دون شك : هو شرف النسبة لكتاب الله تعالى بالاشتغال بتسطير حرف من علومه .

ثم تعايش مع أنوار آثار سلفنا الصالح المبارك في هدى أقوال صحابة سيدنا رسول الله ﷺ وتابعيهم ، وهي التي كنت ولا زلت أقتات بها وأتطلع وأرتوي ، فقد تعايشت معها في مباحث علم المحكم والمتشابه

وعلم فواتح السور وعلم مشكل القرآن وموهم الإختلاف والتناقض، وتغلغلت أشعتها في جوانب نفسي في خطوط الاتصال القلبي والعقلي بأعلام وأئمة ربتهم يد مولانا المصطفى ﷺ وغذتهم حكمته وروحانيته، وامتد نورهم في أساطين علماء الأمة كالامام الطبري والإمام الفخر الرازي والإمام الزركشي والامام السيوطي والامام الآلوسي وغيرهم رضي الله تعالى عنهم وسلك بنا سبيلهم حتى نلقى الله تعالى ونحشر في زمرتهم بمنه وفضله وجوده وكرمه.

اللهم بحرمة كلامك العزيز وقرآنك الكريم ورسولك العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وورثته المباركين حققني والمتعلقين بكتابك وأحبابك شرف التحقق بهم والمعية لهم لنكون من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والحمد لله رب العالمين ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظمة سلطانك أبد الآبدين.

وصلى الله تعالى وسلم على أعظم خلقه وأشرف رسله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم صلاة وسلاما تامين دائمين عدد معلوماته ومداد كلماته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

دكتور

جودة محمد أبو يزيد المهدى
أستاذ مساعد ورئيس قسم
التفسير وعلوم القرآن الكريم
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا

في الرحاب الحسيني المبارك
الخميس ١٢ ربيع ثان ١٤٠٣
٢٧ يناير ١٩٨٣

فهرس المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم :

٢ - الابانة عن أصول الديانة. للامام الأشعرى بتحقيق د/ فوقية حسين (نشر : دار الانصار بالقاهرة).

٣ - الاتقان فى علوم القرآن . للامام السيوطى بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ط/ المشهد الحسينى بالقاهرة)

٤ - إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للمرتضى الزبيدى (نشر دار إحياء التراث العربى بيروت)

٥ - أحكام القرآن . لالكيا الهراس : بتحقيق الشيخ موسى محمد على والدكتور عزت عطية (ط/ دار الكتب الحديثة)

٦ - الإحكام فى أصول الأحكام . لسيف الدين الآمدى : (نشر دار دار الكتب العلمية ببيروت) .

٧ - إحياء علوم الدين : لحجة الاسلام الامام الغزالى . (ط / العثمانية)

٨ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبى السعود العمادى (بهامش مفاتيح الغيب ط / الشرفية) .

٩ - أساس البلاغه . للزمخشرى (ط / دار الكتب) .

١٠- إعجاز القرآن . للباقلانى . بتحقيق الاستاذ السيد صقر (ط دار المعارف بالقاهرة) :

١١- الانصاف للباقلانى (ط / الخانجى)

١٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى البيضاوى (ط / الحلبى)

. . .

١٣ - البحر المحيط . لأبي حيان (ط السعادة ، نشر مكتبة النصر الحديثة بالرياض)

١٤ - براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور للدكتور محمد عبد الجليل (ط الهيئة العامة للكتاب)

١٥ - البرهان في علوم القرآن . للزركشي . بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (ط/عيسى الحلبي) .

١٦ - البسيط في التفسير . للإمام أبي الحسن الواحدي . مخطوط بدار الكتب (رقم ٥٣ تفسير) .

١٧ - التاج الجامع للأصول . للشيخ منصور على ناصف . (نشر : دار إحياء التراث العربي ببيروت) .

١٨ - تأويل مشكل القرآن . لابن قتيبة . بتحقيق الأستاذ السيد صقر . ط/ دار التراث بالقاهرة) .

١٩ - تأويلات أهل السنة . لأبي منصور الماتريدي . بتحقيق الدكتور إبراهيم عوضين (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

٢٠ - تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الأشعري . للحافظ ابن عساكر . (نشر القدسي) .

٢١ - تدبر أسرار التنزيل . للدكتور جودة محمد المهدي (نشر مكتبة تاج بطنطا) .

٢٢ - الترغيب والترهيب . للحافظ عبد العظيم المنذري . بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط التجارية) :

٢٣ - تفسير القرآن العظيم . للحافظ ابن كثير . (ط دار الشعب بالقاهرة) .

٢٤ - تفسير المنار . للشيخ رشيد رضا (ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

. . .

٢٥ - الجامع الصحيح المسند . لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (ط محمد عبد اللطيف) .

٢٦ - الجامع الصحيح لأبى عيسى الترمذى . بتحقيق الشيخ أحمد شاكر وآخرين ((ط الحلبى) .

٢٧ - الجامع لأحكام القرآن . للامام القرطبى (ط/دار الكتب) .

٢٨ - الجامع الكبير . للامام السيوطى (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب)

٢٩ - جامع البيان . للامام الطبرى (ط/ الحلبى) .

٣٠ - حاشية السيد الشريف الجرجانى على تفسير الكشاف (ط/الحلبى)

٣١ - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى (نشر دار صادر بيروت)

٣٢ - حاشية زادة على تفسير البيضاوى) نشر المكتبة الإسلامية بتركيا) .

٣٣ - حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم الأصبهـــانى رضى الله عنه (ط/ الخانجى) .

٣٤ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للأمام السيوطى (نشر دار المعرفة بلبنان) .

٣٥ - رد المتشابه إلى المحكم للشيخ محمد بن أحمد بن اللبان (وهو منسوب للشيخ الأكبر محى الدين بن عربى خطأ .

٣٦ - سنن ابن ماجه بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى(ط/عيسى الحلبى)

٣٧ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى (نشر المكتب التجارى للطباعة والنشر بلبنان) .

٣٨ - طبقات المفسرين للحافظ الداودى بتحقيق على محمد عمر (نشر مكتبة وهبة بالقاهرة) .

٣٩ - الطبقات الكبرى للامام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه (ط/ الشرفية) .

٤٠ - غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى (نشر ج برجستراسر والخانجى) .

٤١ - الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للامام يوسف النبهانى رضى الله عنه (ط / الحلبى) .

٤٢ - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للامام الغزالى رضى الله عنه (ط الحلبى) .

٤٣ - قصد السبيل فى التفسير الموضوعى لآى التنزيل للدكتور جوده محمد المهدى (ط / دار الطباعة المحمدية) .

٤٤ - القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز (بادى (ط/الحلبى) .

٤٥ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة (نشر مكتبة المثنى بغداد) .

٤٦ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ط/ الحلبى) .

٤٧ - لسان العرب لابن منظور (نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة)

٤٨ - لمع الأدلة لإمام الحرمين الجوينى بتحقيق د / فوقية حسين (نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة) .

٤٩ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية بتحقيق أحمد صادق الملاح (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

٥٠ - المستصفى للإمام الغزالي (ط/ الأميرية ببولاق) .
٥١ - المسند للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (نشر دار صادر بيروت) .
٥٢ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (نشر مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ببيروت) .
٥٣ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون (ط الحلبي) .
٥٤ - معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي بتحقيق علي محمد البجاوي (ط/ دار الفكر العربي) .
٥٥ - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (ط/ صبيح) .
٥٦ - المغني عن حمل الأسفار بتحقيق ما في الأحياء من الأخبار للحافظ العراقي (بهامش الأحياء ط/ العثمانية) .
٥٧ - مفاتيح الغيب التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه ط/ الشرقية) .
٥٨ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني بتحقيق محمد سيد كيلاني (ط/ الحلبي) .
٥٩ - مقدمتان في علوم القرآن لصاحب كتاب المباني وابن عطية بتصحيح آرثر جفري (نشر الخانجي) .
٦٠ - مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ط/ الحلبي) .
٦١ - منبر الإسلام (مجلة شهرية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة أعداد سنة ١٣٨٩) .

٦٢ ـ نكت الانتصار لنقل القرآن للإمام الباقلاني بتحقيق د. محمد زغلول سلام (نشر منشأة المعارف) .

٦٣ ـ نهاية السول في شرح منهاج الوصول (للبيضاوي) تأليف الإمام الأسنوي (ط / صبيح) .

٦٤ ـ هدية العارفين لإسماعيل البغدادي (ط / استامبول ونشر المثنى ببغداد) .

٦٥ ـ الواحدي ومنهجه في التفسير للدكتور جوده محمد المهدي (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

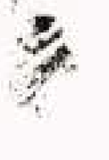
وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

تصويب الأخطاء المطبعية

صفحة	سطر	الصواب	صفحة	سطر	الصواب
٩	١٠	(أولوا الألباب)	٤٤	٣	الله ولي الذين (آمنوا)
١٠	١٤	(معنى) قوله	٤٥	٢٣	(نحوه) في تفسيره
١٠	١٨	(إتحاف) السادة	٤٨	٨	(مختص) بديهية
١٠	١٨	(لشرح) أسرار	٤٨	١٣	(والراسخون) مبتدأ
١٣	٣	(ومع) ذلك	٤٩	٦	(بتقلب) عرفانه
١٤	١٦	(اثنى) عشر نوعا	٤٩	٩	(بالبصيرة)
١٦	١٧	(فأخذ مكانه) بجدارة	٥٣	١٩	كذلك (تقل)
٢٣	٦	(يكون) هذا الشيء	٥٨	٩	وقالوا (ماباله)
٢٥	١١	(لايصرفان) إلى الباطل	٥٩	١٣	(خاض) فيها الزائغون
٢٥	١٣	على (دلالة) غيره	٦٥	٣	سمى الله (فاحذروهم)
٣٠	١٧	إما أن (يكون) احتماله	٦٥	٥	(كتاب) الإبانة
٣٣	٢١	(الخالقة) للأشياء	٧٤	١	نفس الشيء
٣٤	١٤	من جهة (المعنى)	٧٤	١٦	سورة (الفتح)
٣٥	٦	منه (ناحية) الكيفية	٧٥	١٥	من (معنى) هذه
٣٥	١٥	إذا (أسرعوا)	٧٧	٤	ابن (اللبان)
٣٥	١٧	ليس (بالبر)	٧٨	٣	(دلالاتها اللغوية)
٣٥	٢٠	سورة (التوبة) ٤	٨٠	٣	التي (يرددها) الباحث
٣٦	٤	على علم (المخاطب)	٨٠	٧	(بدءا) واستمرارا
٣٨	٩	الإمام ابن (مسعود)	٨٠	١٠	من (نهاوند)
٣٩	٥	ربما أن (العلاقات)	٨٠	١٠	وتفقه على (أبي ثور)
٤٣	٧	يجب أن يكون (معلوم)	٨٣	٣	هذا (النوع)
٤٣	١١	(أجلى) سبحانه	٨٣	١٠	التي (نعرض) لها
٤٣	١٤	ويعترف (بالقصور)	٨٣	١٣	التي (تنفي)
٤٣	١٦	إلا أن (يقولوا)	٨٣	١٦	صفات (المدح)
٤٣	١٧	كل من (عند الله	٨٤	١	(سبح) لله

صفحة	السطر	الصواب	صفحة	السطر	الصواب
٨١	١	بني إسرائيل	١١٣	٦	(فقاضت) عمار المعاني
٨٤	٢	والصف (الأنه)	١١٣	٨	ومن (ثم) ودون
٨٤	٣	في (الجنة) والقف بن	١١٣	١٦	الحروف (الفواتح)
٨٤	١٢	دون (سدرته)	١١٣	١٩	أظهر (القدر) المأثور
٨٤	٢١	ما يفيد (العلم)	١١٤	٢٣	(الجزء) الأول
٨٥	٤	وسوء في (الفرقان)	١١٦	٦	(ثانيا) قال الزمخشري
٨٥	١٥	(بن) أبي الحسن	١١٩	٧	وهي أن (المسمات)
٨٥	١٦	(الشهاب) في حاشيته	١١٦	٢٠	عن ابن (حجر)
٨٦	٦	وقال (بعض)	١٢٠	١٦	تخرجها على الوسط وثانية
٨٧	٧	(نور) الشمس	....	..	ثالثة تخرجها على الجانبة
٩١	١١	لا (يعاب) عن عيبه	١٢٣	٥	من أنفاظ (ظنونيه)
٩١	١٠	لا (يشكره)	١٢٣	٨	وعيد ، الرزاق ، نوفل
٩٣	٩	و (تنعم) و (نفس)	١٢٤	١٣	بالغة ، من الإلباس
٩٤	٢٦	على (الشهاب)	١٢٤	١٦	المصحف بها سنة ، لا تخالف
٩٤	٧	كسائر (أخواته)	١٢٥	١٠	الذي ، حاكم ، من نفس
١٠٠	٤	(وتأكد) صحته	١٢٦	١١	نبي ، فاتحتي سورتي ،
١٠١	٨	فلولا (أنه)	١٢٨	١	من أهل الكتاب والمشركين
١٠٣	١	إن (التسمية) مجموع	١٣٠	٥	، الاستفتاح ، بالأمر
١٠٣	١٥	إنما هو (بحسب)	١٣١	٨	في التكميل ، وأجزاء ،
١٠٤	١	للإيقاظ (والتنبيه)	١٣١	١٥	(لإيلاف قريش)
١٠٤	٣	(القوى) والقدر	١٣٢	٦	أتى على ، نفسه ،
١٠٤	١٢	بالنظر إلى (حاله)	١٣٣	٤	جميع ، فواتح ،
١٠٦	١٠	هو أبو (ياسر)	١٣٣	١٧	التي ، تشرت ،
١٠٦	١٢	(الأقفال) تطوف	١٣٤	٧	(الحبر) السيوطي
١٠٧	١٨	وقد نقل (عن) أبي ..	١٣٦	٦	، حافلة ، بالروعة
١١٠	٢٠	نزلت فيهم (هو الذي)	١٣٩	٥	ابن قتيبة ، تحميدًا ،
١١٠	١	لم يعهد (الاستئناف)	١٤١	١٣	في البلاغة ، والفصاحة ،
١١١	٥	في (مقام) الهيبة	١٤٢	٢٠	سر ، الاختصار ،
١١٣	٦	(وهذا الحصر)	١٤٣	٤	، الإيثار ، العقد

صفحة	سطر	الصواب	صفحة	السطر	الصواب
١٤٤	٩	(حسبه) بل فوق	١٦٣	٣	(والقاعات)
١٤٤	١١	فبعضه ، على [illegible]	١٦٣	١٤	في ، الورى
١٥٠	١٢	بعد أن (التحقق)	١٦٤	١١	عقد بدر ،
١٥١	٦	(فردوه) إلى عائله	١٦٤	١٥	، كان في بدر
١٥١	٩	إلى (القرآن)	١٦٦	١٦	مقابلة ، بوجودها ،
١٥١	١٥	يقتضي ، أن يؤمن ،	١٦٧	٥	، عنه ، إدراكه
١٥٢	١١	ورائهن ، من ورائه ،	١٦٧	٦	وأعم ، من الرؤية
١٥٢	١٥	البرهان (٣) ... والاتقان (٤)	١٦٧	٧	، أي ، القوى
١٥٥	١٤	لا يسألون عنه ، ومثله ، ولا يسأل ،	١٦٩	٨	خلق ، السماوات ، والاصنام ،
١٥٧	٦	الوقوف على ، أمره ،	١٧٠	١٢	من ، جلاله ، سبحانه
١٥٧	١١	ولا ، يكلمهم ، الله	١٧٢	٩	، تنزيه ، الله
١٥٩	١٠	لكم ، ليحسنون ،	١٧٥	١٧	(المبالغة ، في حلول



فهرس مواضيع الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

الباب الثانى

الموضوع الصفحة

الباب الثالث

الموضـــوع الصفحة

الباب الرابع

وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه دائما

(رقم الإيداع ٨٣/٢٠٤٨)

دار الرسالة
للطباعة والنشر - ٧ شارع الباب الأخضر
ميدان المشهد الحسيني - القاهرة